شرح

حنين المتفجع وأنين المتوجع

وهي قصيدة من نظم

الإمام محمد زاهد الكوثري

في التأسف على الأحوال الأخيرة للدولة العثمانية

والتحسر من ويلات الحرب العالمية الأولى على البلاد الإسلامية

تأليف

الدكتور حمزة البكري

مع نشر متن القصيدة المذكورة

وتصديرها بمقدمة علمية تشتمل على دراسة تاريخية وقراءة تحليلية للقصيدة

وإضاءة على شخصية الكوثري الفكرية وحضورها في قضايا الأمة الإسلامية

دار الفتح

للدراسات والنشر

CS CamScanner

شرح

حنين المتفجع وأنين المتوجع

CamScanner

بيانات الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية بالمملكة الأردنية الهاشمية

البكري، حمزة محمد وسيم الشيخ رشيد.

كتاب شرح حنين المتضجع وأنين المتوجع، عمان، دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٢٥.

٢١٦ص، قياس القطع: ١٧×٢٤سم.

الواصفات: الشعر العربي/ التحليل الأدبي/ التحليل اللغوي/ الأدب العربي/ العصر العثماني.

التصنيف العشري (ديوي): ٨١١,٨

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٢٥/٦/٣٠٤٤).

الرقم المعياري الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٧٣٩-٤

9 789957 237394

الطَّبعَةُ الأولىٰ

١٤٤٧هـ = ٢٠٢٥م

دار الفتح للدراسات والنشر

أسسها سنة ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م

د. إياد أحمد الغوج

رقم الهاتف : ٦٤ ٣٥ ٥١٦ ٦ (٠٠٩٦٢)

رقم الجوال : ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)

ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن

البريد الإلكتروني : info@daralfath.com

الموقع الإلكتروني : www.daralfath.com

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من المؤلف. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved for the publisher. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the author.

بسم الله الرحمن الرحيم

CamScanner

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمدُ لله ذي الفَضْل والإحسان، خلق الإنسانَ علّمَه البيان، والصلاةُ والسلامُ على الناطق بجوامع الكَلِم والمُفصِح عن بديع المعاني بخير لسان، سيِّدنا ومولانا محمَّد سيِّد ولد عدنان، المُؤيَّد بسواطع الدلائل وقاطع البرهان، وعلى آله وصَحْبه والتابعين لهم بإحسان.

وبعد،

فهذا مجموع لطيف يدور في فَلَكِ قصيدة بديعة، نظمها العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري سنة ١٣٣٧هـ=١٩١٨م، متأسّفاً على ما أصاب الدولة العثمانية من أحوال سياسية واجتماعية إبّانَ حكم الاتحاديِّين (١٩٠٨-١٩١٨م)، ومُتحسّراً من وَيْلات الحرب العالمية الأُولى على البلاد الإسلامية، وسمّاها «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع»، في خمسة وخمسين بيتاً.

ولا يخفى أن تلك السنواتِ العشرَ قد أسفَرَت عن تحوُّلات كبيرة وانقلابات جَذْريّة في التاريخ المعاصر، وكان للأُمّة الإسلامية نصيبٌ وافر منها، لم تتوقَّف عند سقوط الدولة العثمانية، ولم تَنتَهِ بتقاسُم القُوى الأجنبية البلدانَ الإسلامية واحتلالِها، بل ما زالت تَبِعاتُها المريرة، وآثارُها الخطيرة، مستمرّةً إلى اليوم،

في جروحٍ لم تَلتَئِم، وآلامٍ لم تَندَمِل. وتُعدُّ هذه القصيدةُ - على وجازتها - شاهداً تاريخيّاً ووثيقةً أرشيفيّةً لتلك المرحلة وأحداثها الأليمة.

ومن جهة أخرى، تكشف هذه القصيدةُ عن جانب خفيّ من سيرة الكوثري، وهو حضورُ هذه الشخصية العلمية الفريدة في قضايا الأمة الإسلامية، وشعورُها بهمومها وغمومها وآلامها وأحزانها، وهو جانبٌ وإن كان لا ينفصلُ تماماً عن الجانب العلميّ الذي برَزَت فيه شخصيةُ الكوثريّ وعَلَا صِيتُها، فإنّ إبرازه وإيضاحه يُجلّي تكامُلَ هذه الشخصية وتوازُنَها، في زمن اختَلَّت فيه المقاييس وفسَدَت، واختلَطَت فيه الأمور واشتبَهَت.

وكانت هذه القصيدةُ قد طُبِعَت في قسطموني - حيثُ كان الكوثريُّ مقيماً حينها - في ١٢ من صفر سنة ١٣٣٧هـ الموافق لـ ١٧ من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م، بعد نحو أسبوعين من نَظْمِها، ويبدو لي أنها كانت طبعةً شخصيّةً محدودةَ النُّسَخ، نظراً لأحوال الدولة العثمانية حينها من جهة، ولمحتوى القصيدة الناقد للمُتنفِّذين في الحكومة من جهة أخرى، وبعدها بأربع سنوات اضطُرَّ الكوثريّ إلى ترك إسطنبول والهجرة إلى مصر سنة ١٣٤١هـ=١٩٢٢م، وبعدها بثلاثين عاماً توفي الكوثريّ سنة ١٣٧١هـ=١٩٥٢م، فعُثِرَ على نسخة من هذه القصيدة بين أوراقه[1]، لكنَّها بقيت حبيسةَ الخزائن. وفي سنة ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م توجَّه الأستاذ المُحقِّق محمد فاتح قايا حفظه الله تعالى إلى العناية بمتنها؛ ضبطاً لنصِّها وتفسيراً لغريب ألفاظها، ونشر منها نحو ١٥ نسخةً فقط، فبقيت القصيدةُ في حكم المخطوط.

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٥٩.

ولمّا كانت أحوالُ الأُمّة الإسلامية اليوم شبيهةً ـ من بعض الوجوه ـ بتلك الأحوال التي نُظِمَت فيها القصيدة، رأيتُ من المناسب إعادةَ نَشْرِها، ولمّا كان فيها إيجازٌ بطيٌّ كثير من التفصيلات وإلغاز، وإبهامٌ لعِدّةِ أسماءٍ وإيهام، وإشاراتٌ إلى حوادثَ تاريخية، وإيحاءاتٌ إلى خِلافاتٍ اجتماعية، رأيتُ الحاجةَ ماسّةً إلى بَسْطِها وإيضاحِها، فشرحتُها شرحاً متوسّطاً مجتنباً فيه الإخلال والإملال، على ما بيَّنتُه في أول الشرح من منهجي فيه.

وقدَّمتُ لهذه القصيدة وشرحها بدراسة علمية، أطنبتُ فيها بعضَ إطناب في الدراسة التاريخية، وذلك لأن الوقوف على السياق التاريخي وما اشتمل عليه من تحوُّلات اجتماعية ونقاشات علمية أمرٌ في غاية الأهمية، لا يمكنُ من دونه فهمُ القصيدة على وجهها.

ومن هنا، فقد اشتمل هذا المجموع على ثلاثة محاور:

الأول: دراسة علمية لقصيدة «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع»، وفيها:

١ـ الكوثريُّ وشِعرُه: تعريفٌ مُوجَز بالكوثري، شِعرُ الكوثري.

٢ـ قصيدة «حنين المتفجِّع» دراسة تاريخية: سؤال التحديث (التغيير) في الدولة العثمانية، وموقع قصيدة «حنين المتفجِّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية.

٣ـ قصيدة «حنين المتفجِّع»: قراءة تحليلية.

٤ـ إضاءة على شخصية الكوثريّ الفِكرية وحضورها في قضايا الأمة الإسلامية: موقفه من الخلافة الإسلامية، وموقفه من العَلْمانية، والأخوّة الإيمانية في فِكر الكوثري، وموقفه من القضية الفلسطينية، وموقفه من تأسيس

جامعة الدول العربية، وموقفه من التغريب في الحياة الاجتماعية والتجديد في الحالة العلمية، ونظرته إلى واجب العلماء ووظيفتهم.

الثاني: نصُّ قصيدة «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع» للكوثري.

الثالث: شرحُ قصيدة «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع».

وقد اعتمدتُ في إخراج نصِّ القصيدة ونَشْرِه على الطبعة المذكورة آنفاً الصادرة في قسطموني في حياة ناظمها سنة ١٩١٨م، وأُسجِّلُ هنا شكري الجزيل إلى الأخ الحفيّ والصديق الوفي، الأستاذ المُحقِّق الدكتور محمَّد فاتح قايا الذي أمَدَّني بنسخة مُصوَّرة من هذا الأصل، جزاه الله تعالى خيراً وأكرَمَه، كما لا يفوتُني أن أُسجِّل شكري الجزيل إلى الأخ الكريم الأستاذ المُدقِّق الشيخ علي هاني، فقد ذاكرتُه بكثير من القضايا اللغوية في شرحي للقصيدة، فأفادني فوائدَ سديدة، وأمَدَّني بملاحظاتٍ مفيدة، جزاه الله تعالى خيراً وأحسَنَ إليه.

وكتب

حمزة البكري

في إسطنبول

غُرّة صَفَر الخير ١٤٤٦هـ

دِراسَة عِلميَّة لقصِيدَة

حنين المتفجع وأنين المتوجع

بقلم

الدكتور حمزة البكريّ

CamScanner

CamScanner

(١)

الكوثري وشعره

CamScanner

١. ١. تعريف مُوجَز بالكوثري

هـو محمـد زاهد بن الحسـن بن علـي الكوثريّ، جركسـيّ الأصـل، وُلد في القرية المُسـمّاة باسـم والده: قرية الحاج حسـن[1] بالقرب من دُوزْجَة سنة ١٢٩٦هـ=١٨٧٩م، وتلقّى مبـادئ العلوم من والـده (ت١٣٤٥هـ)[2] وغيره من شـيوخ دُوزْجَه، ثم غادرها سـنة ١٣١١هـ=١٨٩٣م إلى إسطنبول عاصمة الخلافة وحاضرة العلم حينذاك، فطلب العلم في مدارس جامع الفاتح، ولازم هنـاك العلامـة إبراهيم حَقّي الأكيني[3] إلى وفاته سـنة ١٣١٨هـ=١٩٠٠م، ثم أتـمَّ دروسـه على العلامة عليّ زين العابدين الألَصُونـي (ت١٣٣٦)[4] إلى أن تخرَّج على يديه[5] سـنة ١٣٢٢هـ=١٩٠٤م، غير أنّ (امتحان الرؤوس) الذي هو بمنزلة امتحان العالميّة أو الدراسات العليا كان يُعقَد في كلّ خمس سنوات

---

(١) انظر تعريفاً موجزاً بهذه القرية في «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز» للكوثري ص٧٥. وقد تغيَّر اسـمها سـنة ١٩٦٠م إلى Çalıcuma ثم إلى Karaçalı، وفي سـنة ٢٠١٢م أُعيد لها اسمُ Çalıcuma، وتقع على بُعد ٥ كم إلى الجنوب من مدينة دُوزْجَه الواقعة على بُعد حوالي ٢٠٠كم إلى الشرق من إسطنبول.

(٢) انظر ترجمته في «التحرير الوجيز» للكوثري ص٧٥-٧٨، وذكر الكوثريّ فيه أيضاً ص١٥ أنه تفقّه عليه وعلى الأستاذين الجليلين الأكيني والألصوني.

(٣) انظر ترجمته في «التحرير الوجيز» للكوثري ص٥٦-٥٩.

(٤) انظر ترجمته في «التحرير الوجيز» للكوثري ص٦٦-٧٢.

(٥) ذكرهما الكوثريّ في «التحرير الوجيز» ص١٥ وقال: «بهما تمّ تخرُّجي في العلوم».

مرّة[1]، فدخل الكوثريّ الامتحان المذكور سنة ١٣٢٥هـ=١٩٠٧م، وكان اختبارُه على يد لجنة مكوَّنة من كبار علماء إسطنبول حينذاك، وأُجيز من قِبَلِهم في العلوم اللغويّة والشرعيّة[2].

ولم يلبث بعد تخرُّجه من معاهد الفاتح أن عُيِّن مدرِّساً فيها، فباشَرَ التدريسَ سنة ١٣٢٦هـ=١٩٠٨م[3]، وما زال مشتغلاً بالتدريس فيها إلى أوائل الحرب العالميّة الأولى سنة ١٣٣٢هـ=١٩١٤م، حيث كانت تجري بينه وبين الاتحاديِّين ـ أي: المُنتَسِبين إلى جمعيّة الاتحاد والترقّي ـ خلافاتٌ شديدة، فقد كان لهم نفوذ كبير في الدولة العثمانيّة حينذاك، وكان ممَّن يرفض التغييرات التي يريدون إدخالها على نظام التعليم الشرعيّ، فاضطهدوه كما اضطهدوا جماعةً من علماء الدولة وأساتذة المدارس الشرعيّة في ذلك العهد، ولذا اختار أن يبتعد عن هذه الاضطرابات قليلاً، فطلب الانتقال إلى مدينة قسطموني لافتتاح مدرسة شرعيّة أنشأتها الدولة هناك، وحصل على الموافقة على ذلك، وبقي هناك ثلاث سنوات[4].

ثم عاد إلى إسطنبول أوائل سنة ١٣٣٧هـ الموافق لأواخر سنة ١٩١٨م،

---

(١) انظر تعريفاً موجزاً بهذا الامتحان في «التحرير الوجيز» للكوثري ص٦٧.

(٢) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٢٩ من المطبوع في آخر «مقالات الكوثري».

(٣) انظر: «إرغام المَريد في شرح النظم العتيد لتوسل المُريد» للكوثري ص١١٢، تعليقاً لمصحِّح الكتاب.

(٤) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠. وانظر مزيداً من التفصيل في مواقف الصدام بينه وبين الاتحاديِّين فيما سيأتي تحت عنوان (موقع قصيدة «حنين المتفجِّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية).

وكان صيتُـه العلمـيّ واجتيـازه بعض الامتحانـات التخصُّصيّة سـبباً في تعيينه مدرِّساً في قسم الاختصاص (الدراسات العليا)، مع صِغَرِ سنّه مقارنةً بأساتذة ذلك القسم حينذاك، ثم انتُخِبَ عضواً في مجلس وكالة الدرس في المشيخة الإسلاميّة، ثم عُيِّن وكيلاً للدرس في ١٥ من آب (أغسطس) سنة ١٩١٩م[1]، أي: رئيسـاً لمجلس وكالـة الـدرس، وهـو المجلس الـذي ينوبُ عن شـيخ الإسـلام في شـؤون المدارس الدينيّة والمعاهد العلميّة في الدولة[2]، ثم عُزِلَ عن منصبه الأخير أواخر سنة ١٩٢٠م، لكنْ بقي عضواً في المجلس المذكور، ولم ينقطع عن التدريس في قسـم التخصُّص إلى أن غادر إسـطنبول إلى مصر سنة ١٣٤١هـ=١٩٢٢م[3].

وكان سـببَ مغادرتـه اشـتدادُ الخـلاف بينـه وبيـن الكماليِّين، مـع ازدياد نفوذهم في الدولة، وشروعُهم في تغييرات جذريّة في نظام الدولة العثمانيّة بعد خسـارتها في الحرب العالميّة الأولى، وتضييقُهم على العلماء واضطهادُهم، وإضعافُهـم للسـلطان وحيد الدين آخر السـلاطين العثمانيِّين، ثـم ما بلغه من أخبـار تُفيـد قُـربَ صدور أمر اعتقاله، فما كان منه إلا أن غادر من السُّـوقِ إلى الميناء للسَّفَر بحراً إلى مصر، من غير أن يَمُرَّ ببيته.

وقبل مُضيِّ سنة من وصوله إلى القاهرة غادرها إلى دمشق، وأقام فيها ما يزيد على سـنة، ثم عاد إلى القاهرة وأقام فيها نحو ثلاث سـنين، ثم غادرها ثانيةً إلى

---

(1) Yusuf Şevki Yavuz, «Zâhid Kevserî», TDV İslâm Ansiklopedisi, 44/79.

(٢) انظر تعريفاً موجَزاً بمنصب وكالة الدرس في «التحرير الوجيز» للكوثري ص٤٥-٤٧.

(٣) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣١.

دمشق سنة ١٣٤٧هـ=١٩٢٨م وأقام فيها نحواً من سنة، ثم عاد أخيراً إلى القاهرة سنة ١٣٤٨هـ=١٩٢٩م، وهناك حضرت أُسرتُه من إسطنبول ليلقاهم لأوّل مرّة منذ هجرته، وما زال مقيماً في القاهرة إلى وفاته سنة ١٣٧١=١٩٥٢م(١).

جمع الكوثريّ بين العلوم العقليّة والنقليّة، فكان علامةً بارعاً في الأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، إماماً مُتقِناً للفقه والحديث، مُبرِّزاً مشاركاً في علوم اللغة والمنطق، واسعَ الاطلاع جدّاً، جِهبِذاً خبيراً بالكتب والمؤلّفين، قويَّ الحافظة سريعَ البديهة حادَّ الذكاء.

وله مُصنَّفات تزيد على الخمسين، إلا أن شطرها مفقود، وهو ما صنَّفه قبل هجرته من إسطنبول غالباً، وفي الشطر الثاني من مُصنَّفاته ـ وهو ما صنَّفه بعد هجرته غالباً ـ ما يَبهَرُ قارئَها بغزارةِ العلم وحُسْنِ التحقيق، ودقّةِ التحرير وبراعةِ الاستدلال، وإمعان الملاحظة وسَعةِ الاطلاع، وجزالةِ التعبير وبراعةِ البيان، كما كانت له عناية بنشر الكتب وتحقيقها، فنشر ما يزيد على عشرين كتاباً بتحقيقه أو تعليقه، وله ما يزيد على سبع وخمسين مقدّمةً صدَّر بها كتباً نُشِرَت بتحقيقه أو بتحقيق غيره، جُمِعَت في كتاب «مقدّمات الإمام الكوثريّ»، وما يزيد على مئة مقالة جُمِعَت في كتاب «مقالات الكوثريّ».

وإذا أُريدَ تلخيصُ شخصيّته في كلماتٍ فهي ما قاله في مناسبةٍ اقتَضَت ذلك: «المِنّةُ لله الذي صانَ وجهيَ أن أطرُقَ غير بابه، وشغَلَني بالسُّنّة ومُنزِّلِ كتابه، وجعل الكتبَ في خزائن العالَم ريحانةَ قلبي، أُزامِلُها وأُسامِرُها في إقامتي

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣١-٤٣٢.

وتَرْحالـي، وصِحّتـي واعتِلالـي، منذُ عرفتُ يميني من شـمالي ...، وفيها تراثُ الأولـين، ونُخبـةُ أعمار البارعين، فيا لها من لذّةٍ عظمى بعد تحصيل المشـاركة في العلوم من أهلها! بها تتجلّى ثمراتُ أعمال الأولين والآخرين، وبها تنكشفُ الحُجُب عن الآراء المُزوَّقة بيقين»(١)، وما قاله عن نفسه كذلك في مناسبةٍ أخرى استَدعَت ذلك: «أما الكوثريُّ فهو ـ ولله الحمدُ ـ ناصِعُ الجبين جبانٌ رِعديدٌ لا يجترئُ على تخطّي حدود ما أنزل الله تعالى في ذاته وصفاته وأحكام شـريعته، لكنَّـه بطلٌ كرّارٌ حنيفيٌّ حنفيّ، يَهُدُّ الأصنام كبيرها وصغيرها، ويَسـحَقُ رؤوسَ عُبّادها بمقامع الحُجَج من الكتاب والسُّنّة والمعقول، ما دام له عِرقٌ يَنبِضُ»(٢).

١ . ٢ . شِعر الكوثريّ

كان الكوثريُّ بارعاً في نَثْرِه غايةَ البراعة، ولا أظنُّ مُنصِفاً يقرأ له إلا ويُقرُّ بعلوِّ كعبه في فصاحة التعبير وبلاغة النظم، وسـطوع نَجْمِه وإبداعه في سَبْك الجمـل وصياغة التركيبـات، مع وجازة الألفاظ واختـزان المعاني، فانظر إلى عنـوان كتابه فـي الرَّدِّ على محبِّ الدين الخطيب الكاتب المشـهور «صَفَعات البُرهـان علـى صَفَحات العُدوان»، ففيه السَّـجْعُ المُسـتَعذَب مـن غير تكلُّف، والجناسُ اللطيف في موضعين، وإشـارةٌ إلى فكرة الكتاب وملابسـات تأليفه والغايـة منـه، وانظـر كذلـك إلى سـائر عناوين كتبـه ـ بل إلى عدد مـن عناوين مقالاته أيضاً ـ تجد نحوَ ذلك في أكثرها.

وانظر إلى تعبيره في كتابه «نظرة عابرة» في الرَّدِّ على الشيخ محمود شلتوت

(١) «صفعات البرهان» للكوثري ص٣٨.

(٢) «مقالات الكوثري» ص٢٥٣.

في إنكاره نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، حيث عقَدَ فصلاً من الكتاب بعنوان «أما سَئِموا من النزول؟»(١)، وفيه تورية بالمسألة المذكورة عن تدنّي مستوى البحث العلمي، سواء في المنهجية والمحتوى أو في اختيار المسائل وإثارة الخلاف فيها في المجتمع، على ما أوضَحَه بإيجاز فيما كتبه هناك.

وتفصيلُ الكلام في أسلوبه الأدبي في كلامه المنثور يطولُ جداً، وقد نقل نماذجَ منه تلميذُه السَّيِّد أحمد خيري(٢)، والاستطرادُ فيه يُخرِجُنا عما نحن بصَدَدِه، فأكتفي بما أشرتُ إليه.

أما الشِّعرُ فلا يُنقَل عن الكوثريّ كثير منه، وذلك لانصِرافِه في جميع أدوار حياته إلى تحصيل العلوم الإسلامية وتعليمها والمباحثة فيها في مختلِف المجالات، وانقطاعِه إلى مطالعة الكتب والتفتيش عنها في الخزائن والمكتبات، واشتغالِه بتصنيف عدد من الكتب والرسائل فضلاً عن المقالات، واهتمامِه بالتراث الإسلاميّ نشراً للكتب وتقديماً أو تحقيقاً للمخطوطات.

فلم يكن الكوثري (شاعراً) بالمعنى الاصطلاحيّ لهذه الكلمة المُتعارَف عليه بين الشُّعراء والأُدباء، وإنما كان يقولُ الشِّعر أحياناً، على تنوُّع شِعرِه ما بين قصيدة ومنظومة علمية، وتفاوتٍ ما بين بضعةِ أبيات إلى ما يزيد على الخمسين.

والناظر في شِعره يراه ممّا يُسمّى بـ«شِعر الفقهاء» أو «شِعر العلماء»، وهو ما يجري على بحور الشعر وأوزانه، مع فصاحة الكلام وبلاغته، لكنْ من غير اعتناءٍ زائد بتحبيرِ الكلام بأساليب البيان، وتَزديدِه بين أنواع المجاز وأصناف الاستعارة،

---

(١) «نظرة عابرة» للكوثري ص٦٣.

(٢) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٦٩-٤٧٠.

CamScanner

وتَنْميقِه بالمُحسِّنات البديعية، وتكميلِه بالجماليّات الفنية، ومع ذلك فشِعرُ الكوثريّ - ولا سيَّما قصيدته هذه: «حنين المتفجِّع» - لا يخلو من هذه الأمور، على ما سيأتي بيانه تحت عنوان (قصيدة «حنين المتفجِّع»: قراءة تحليلية).

ولذا لا أرى كلام السَّيِّد أحمد خيري صواباً حيثُ وصَفَه بقوله: «وشِعرُه دون المتوسِّط»[١]، ولعلَّ الصوابَ أن يُقال فيه: إنه متوسِّط، لأنَّ ما كان من شِعر الكوثريّ منظومةً علمية - وهو «النظمُ العتيد»[٢] - فإنه جَزْلُ الألفاظِ سَلِسُ العبارات، مع براعة استهلاله وحُسن اختتامه، وما كان أبياتاً معدودة أو قصيدةً فتتفاوتُ جودتُه تبعاً لمقاصده، وفيه - على قِلّتِه - أبياتٌ رائقة، وعباراتٌ فائقة.

ومن الجيِّد قبل جَمْع ما وقفنا عليه من شِعر الكوثريّ الإشارةُ إلى أنه قد أُوكِلَ إلى الكوثريّ تدريسُ علوم البلاغة والعروض أيام تدريسه في مدارس جامع الفاتح[٣]، فكتب في تلك الآونة رسالةً موجزةً بعنوان «الكافية في عِلمَي العروض والقافية».

---

(١) «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٦٩.

(٢) سيأتي ذِكرُها بتمامها قريباً.

(٣) ذكر السَّيِّد أحمد خيري في كتابه «الإمام الكوثري» ص٤٣٠ أن الكوثري كان يُدرِّس علوم البلاغة والوضع والعروض قُبيل الحرب العالمية الأولى. وبالمقارنة بقانون إصلاح المدارس الصادر سنة ١٩١٤م بعنوان «دار الخلافة العلية مدرسه سي: نظامنامه، درس جدولي، صورت تدريس وكتابلر، تعليماتنامه»، وجدتُ في ص٢١ أن درس العروض كان مُلحَقاً بدرس البلاغة، وأن الكتاب المُقرَّر في درس البلاغة هو «مختصر المعاني» للتفتازاني، والمقرَّر في درس العروض هو «الكافي في علمي العروض والقوافي». قلت: وهو كتابُ الكوثري المطبوع دون اسم مُصنِّفه، لكن بعنوان «الكافية في عِلمَي العروض والقافية».

في إنكاره نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، حيث عقَدَ فصلاً من الكتاب بعنوان «أما سَئِموا من النزول؟»(١)، وفيه تورية بالمسألة المذكورة عن تدنّي مستوى البحث العلمي، سواء في المنهجية والمحتوى أو في اختيار المسائل وإثارة الخلاف فيها في المجتمع، على ما أوضَحه بإيجاز فيما كتبه هناك.

وتفصيلُ الكلام في أسلوبه الأدبي في كلامه المنثور يطولُ جدّاً، وقد نقل نماذجَ منه تلميذُه السَّيِّد أحمد خيري(٢)، والاستطرادُ فيه يُخرِجُنا عما نحن بصَدَدِه، فأكتفي بما أشرتُ إليه.

أما الشِّعرُ فلا يُنقَل عن الكوثريّ كثير منه، وذلك لانصِرافِه في جميع أدوار حياته إلى تحصيل العلوم الإسلامية وتعليمها والمباحثة فيها في مختلِف المجالات، وانقطاعِه إلى مطالعة الكتب والتفتيش عنها في الخزائن والمكتبات، واشتغالِه بتصنيف عدد من الكتب والرسائل فضلاً عن المقالات، واهتمامِه بالتراث الإسلاميّ نشراً للكتب وتقديماً أو تحقيقاً للمخطوطات.

فلم يكن الكوثري (شاعراً) بالمعنى الاصطلاحيّ لهذه الكلمة المُتعارَف عليه بين الشُّعراء والأُدباء، وإنما كان يقولُ الشِّعر أحياناً، على تنوُّع شِعرِه ما بين قصيدة ومنظومة علمية، وتفاوتِ ما بين بضعةِ أبيات إلى ما يزيد على الخمسين.

والناظر في شِعره يراه ممّا يُسمّى بـ«شِعر الفقهاء» أو «شِعر العلماء»، وهو ما يجري على بحور الشعر وأوزانه، مع فصاحة الكلام وبلاغته، لكنْ من غير اعتناءٍ زائد بتحبيرِ الكلام بأساليب البيان، وتَرْديدِه بين أنواع المجاز وأصناف الاستعارة،

---

(١) «نظرة عابرة» للكوثري ص٦٣.

(٢) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٦٩-٤٧٠.

CamScanner

وتَنْميقِه بالمُحسِّنات البديعية، وتكميلِه بالجماليّات الفنية، ومع ذلك فشِعرُ الكوثريّ - ولا سيَّما قصيدته هذه: «حنين المتفجِّع» - لا يخلو من هذه الأمور، على ما سيأتي بيانه تحت عنوان (قصيدة «حنين المتفجِّع»: قراءة تحليلية).

ولذا لا أرى كلام السَّيِّد أحمد خيري صواباً حيثُ وصَفَه بقوله: «وشِعرُه دون المتوسِّط»[1]، ولعلَّ الصوابَ أن يُقال فيهَ: إنه متوسِّط، لأنّ ما كان من شِعر الكوثريّ منظومةً علمية - وهو «النظمُ العتيد»[2] - فإنه جَزْلُ الألفاظُ سَلِسُ العبارات، مع براعة استهلاله وحُسن اختتامه، وما كان أبياتاً معدودة أو قصيدةً فتتفاوتُ جودتُه تبعاً لمقاصده، وفيه - على قِلّتِه - أبياتٌ رائقة، وعباراتٌ فائقة.

ومن الجيِّد قبل جَمْع ما وقفنا عليه من شِعر الكوثريّ الإشارةُ إلى أنه قد أُوكِلَ إلى الكوثريّ تدريسُ علوم البلاغة والعروض أيام تدريسه في مدارس جامع الفاتح[3]، فكتب في تلك الآونة رسالةً موجزةً بعنوان «الكافية في عِلمَي العروض والقافية».

---

(١) «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٦٩.

(٢) سيأتي ذِكرُها بتمامها قريباً.

(٣) ذكر السَّيِّد أحمد خيري في كتابه «الإمام الكوثري» ص٤٣٠ أن الكوثري كان يُدرِّس علوم البلاغة والوضع والعروض قُبيل الحرب العالمية الأولى. وبالمقارنة بقانون إصلاح المدارس الصادر سنة ١٩١٤م بعنوان «دار الخلافة العلية مدرسه سي: نظامنامه، درس جدولي، صورت تدريس وكتابلر، تعليماتنامه»، وجدتُ في ص٢١ أن درس العروض كان مُلحَقاً بدرس البلاغة، وأن الكتاب المُقرَّر في درس البلاغة هو «مختصر المعاني» للتفتازاني، والمقرَّر في درس العروض هو «الكافي في علمي العروض والقوافي». قلت: وهو كتابُ الكوثري المطبوع دون اسم مُصنِّفه، لكن بعنوان «الكافية في عِلمَي العروض والقافية».

والـذي وقفـتُ عليه من شـعر الكوثـري: خمسُ منظوماتٍ منسـوبةٌ إليه جزماً، وسادسـةٌ تُنسَـب إليه احتمالاً، وهذا بيانها مُرتَّبـةً على زمان نَظْمِها، مع تأخير المنسوبة إليه احتمالاً.

أولاً: النظم العتيد لتوسُّل المريد.

وهي منظومة علمية من أربعة وثلاثين بيتاً على البحر البسيط، تشتملُ على ذكر شيوخ إسناد الطريقة النقشبندية، بدءاً من شيخه الحسـن القسطموني(١) إلى مُنتَهاه، وقد نظمه سـنة ١٣١٨هـ ـ وعمرُه ٢٢ عاماً ـ بمناسـبة خَتْمه قراءة كتاب «راموز الأحاديث» للكُمُشـخانوي (ت ١٣١١هـ) على شيخه المذكور، ثم شرحه في كتاب سمّاه «إرغام المَريد شرح النَّظْم العتيد لتوسُّل المريد»، فرغ منه في رجب سنة ١٣٢٠هـ، وعمره ٢٤ عاماً، وكان ما يزالُ في مرحلة الطلب، وقد ترجَمَ في آخره لنفسه باختصار، إلا أنه تأخَّرَت طباعتُه إلى سنة ١٣٢٨هـ.

وهذا نصُّ هذه المنظومة مُستَلّاً من شرحها المذكور:

حَـمْداً لِـمَنْ أبدَعَ الأكوانَ من عَدَمِ ... هُـوَ الغَـفُـورُ لِـعَبْـدٍ عـادَ بالـنَّـدَمِ

ثمَّ الصـلاةُ على مُبْـدي طَـرائقِـنـا ... مُحمَّدٍ شمسُ(٢) رُشْدٍ ضاء في الظُّلَمِ

كـذا على الآلِ والأصـحابِ قاطبةً ... هُمُ النُّجـومُ فنَسـتَهدي بـهَـدْيِـهِمِ

يا ربِّ سَـهِّل صَعابيبَ السُّلوكِ لنا ... وجُـدْ بفَيْـضٍ ووَصْلٍ غيرِ مُنفَصِمِ

بجاهِ أحـمَدِنا الـهادي الشفيعِ غداً ... وذا وَسِـيلَتُنـا في الـحِـلِّ والـحَـرَمِ

---

(١) تُنظر ترجمته في «التحرير الوجيز» ص٦٠.

(٢) خبر مبتدأ محذوف، أي: هو شمسُ رشد. انظر: «إرغام المريد» ص١٥.

كـذا بـجـاهِ أبـي بـكـرٍ ، رَفـاقَـتُـه ... في الغار قد ثبتَتْ قطعاً لدى الفَهِمِ
وسَـيِّـدِ الفُرْسِ سَلْمـانٍ له شَـرَفٌ ... إذ عُدَّ من أهل بيتٍ وَهْوَ من عَجَمِ
كـذا بحُرْمـةِ زَيْـنِ الـجَمْعِ قاسِمِنا ... وجعفرٍ نـالَ عِـلـمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ
ثـمَّ بـطَـيْـفُورِنـا ثـمَّ أبـي حَـسَـنٍ ... حـازا كمـالاً وعِشْـقاً غيرَ مُنصَـرِمِ
ثمَّ بجـاهِ أبـي عَـلِـيْ ويُـوسُـفِـنـا ... مُرْوِي العِطـاشِ بكأسٍ سائغٍ شَبِمِ
والغُجْدَواني رئيسِ الخواجِكانِ مَلا ... ذِ السالكينَ رفيعِ القَدْرِ ذي الشَّمَمِ
ثـمَّ بـعـارفٍ الـرِّيْـوَكِـري، وكـذا ... بفَـغْـنَويٍّ كريمِ الـخُـلْقِ والشِّـيَمِ
كـذا بـرامِيتَني ، ثـم بـجـاهِ سِـمَـا ... سِـيٍّ ، كـذا بكُلَالٍ صـاحِبِ العَلَمِ
ثمَّ بجـاهِ غِـيـاثِ الـخَلْقِ قُـدْوتِنا ... قُطبِ الطرائق شاهي نَقْشَبَنْدِهِمِ
بَحْـرُ العُلوم خِزانـةُ المعارفِ حـا ... زَ رُتْـبـةً لـم تَـنَـلْها كُـمَّـلُ الأُمَـمِ
كذا بمَـنْ أَرِجَـتْ مِن عِندِه نَفَحا ... تُ القُدْسِ حتّى غدا عَطّارَ طِيبِهِمِ
كذا بقُدوتِنـا الـجَرْخي وعُمدَتِنا ... وبـالـعُـبـيـدِ سِـراجِ الـقـوم كُلِّهِمِ
وزاهِـدٍ مَفخَـرِ الأشـياخِ مَلجَـئِنا ... كذا بدرويشَ جَـمِّ الفَضْلِ والكَرَمِ
ثمَّ بأمكَنِكي شـيخِ الشيوخِ وبالـ ... ـباقي المُغيث مُفيضِ الفَيْضِ ذي العِظَمِ
ثمَّ بأحـمَـدِ سَـهْـرَنـدٍ أتى خَـدَماً ... له الشـيـوخُ وأحيا الكُلَّ بالـحِكَمِ
وبابنِـهِ عُـروةِ الوُثْـقـى مُحمَّـدٍ الـ ... ـقُطبِ الـذي وَرِثَ العِـلمَ بوُدِّهِمِ
كذا بحُـرْمةِ سَيفِ الدِّين، ثمَّ ببَـدْ ... وانـي، ومَـظـهَـرِ نُورِ الله في القِدَمِ
ودِهْـلَـويٍّ له قد سـاحَ خـالـدُنـا ... حتّى البقاءُ بأقصى الـهِندِ بالضَّـرَمِ

كـذا بجـاهِ أبـي البهـاءِ خـالـدِنـا ... هادي المُريدِين نَحْـوَ الحِبِّ بالهِمَمِ
كذا بأحـمَدَ أرواديِّنا الـسَّـنَـدِ الـ ... ـغَوْثِ النَّسِيبِ مُفيضِ الفَيْضِ كالدِّيَمِ
وبالكُمُشْخانَوِي فَحْلِ الرِّجالِ إما ... مِ القَـوْمِ عُمْـدَتِـنا حامي ذِمـارِهِمِ
شَيْخُ الشُّيوخ مَـلاذُ العارفين وغَوْ ... ثُ الأولياءِ ضياءُ الدِّينِ ذو الـخَدَمِ
كذا بذا الـحَسَـنِ الحِلْمِيِّ قُدْوتِـنا ... مُحيي القلوبِ وكم داوى ذَوِي السَّقَمِ
اسـلُكْ بمَسْلَكِه فاثبُـتْ بخِـدمَـتِهِ ... متى ظَـفِـرتَ به يا طـالبُ اغـتَـنِـمِ
يا صاحِ سـادتُنا قـد عَنْعَنُوا بكـذا ... كـسُـبْحـةٍ نُظِـمَت نَـقْـفُـو بإثْـرِهِمِ
بُشـرى لنا مَعشَـرَ السُّـلّاكِ إنَّ لـنا ... لَـسـادةً نَـصِـلُ الـحِبَّ بحُـبِّـهِـمِ
إلـهَـنا قـد أتـيـتُ البابَ مُـعتَـذِراً ... فـجُـدْ بعَـفْـوِ خَطـايـانـا بجاهِهِمِ
يـا مَـنْ تَوسَّـلَ بالساداتِ فادعُ لِزا ... هِـدٍ بـخـيرٍ ، سِـواهُ مـنـكَ لـم أرمِ
أتممتُ نَظْـمي بحَمْدٍ للحَميدِ كمـا ... بدأتُ بالـحَمْدِ، هذا حُسْنُ مُـخـتَـتَمِ

ثانياً: أرجوزةٌ ختَمَ بها كتابه «إرغام المَريد»[1] المذكور آنفاً، ونصُّها:

يا ساريَ اللَّيـــلِ البَهِيـمِ دونـكـا ... سِـفْراً يلـوحُ الـحـقُّ في ما دَلَـكـا
حَيُّـوا على ما فيه يـا أهـلَ الحِجـا ... مَن يَـقْـفُ آثـارَ الـهُـداةِ قـد نجـا
ترجمتُ فيه السـادةَ الماضي الزَّمَـنْ ... مِن سيِّدِ الرُّسْلِ إلى الشيخ الـحَسَنْ
صَـوْناً عن التدليس تاريخَ السَّنَدْ ... حتّى غَـدَا ذا الشـرحُ ثَـبْـتاً يُعتمَـدْ
لـم آلُ جُـهْـداً في الـذي نَـقَـلـتُـه ... مـا مِـن خَـفَـا إلا وقـد أقَـلْـتُـهُ

(١) «إرغام المريد» للكوثري ص١١٣.

يـا ربِّ بالقَبــولِ فامـنَـحْـهُ كمـا مَنَحْـتَ بالـجَمْعِ الـمُميطِ للعَمـا
لعـلَّ مجبـولاً على الإنـصـافِ أنْ يَدْعو بدَفْـعِ الـهَمِّ عنِّي والـحَـزَن

ثالثاً: بيتان أثبتهما على غلاف كتابه «إرغام المَريد»، ونصُّهما:

رجوتُ بــذاكَ أن يُـعـفَى أثـامي ولا أُنســى إذا رُمَّـتْ عِـظـامي
سيَبقى الدَّهْــرَ «إرغامُ الـمَـريدِ» وصـاحـبُه ثَــوَى تـحت الرَّغـامِ

رابعـاً: قصيدتُـه «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع»، نظمها سـنة ١٣٣٧هـ، وسيأتي الكلام عليها تفصيلاً.

خامساً: ثلاثة أبيات من البحر الكامل، قالها جواباً عن بيتين لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الطرابلسي (ت٧٧٤)، حينما رماه الناسُ بمتابعة آراء ابن تيمية في صفات الله، وهما:

إن كان إثباتُ الصِّـفاتِ جميعهـا مِن غير كيــفٍ مُـوجِبـاً لَـوْمي
وأَصِـيرُ تَـيْمــيّاً بذلـك عـنـدكم فالـمُسلِمـون جميعُـهم تَـيْـمي

فقال بإثرها في تعليقاته على «ذيول تذكرة الحفاظ» بقوله: «فيُقالُ في معارضته»[1]، وذكـر الأبيـات الآتيـة، وهذا يدلُّ على أنها له؛ إذ لـو كانت لغيره لقال: «فقيل في معارضته». وكان تحقيقُه للكتاب المذكور سنة ١٣٥٧هـ، وهي:

إن كـانَ تـنـزيــهُ الإلـهِ تَـجَـهُّـماً فـالـمُؤمـنونَ جميعُـهم جَـهْمي
جلَّ الإلهُ عن الحوادِثِ أن تَـحُلْـ ـلَ بــه وعـن جِـهــةٍ وعـن كَـمِّ
بخِلافِ زَعْمِ زعيمِكُم سَـفَهاً فإنْ تـابَعْـتُــمُوهُ فـكُـلُّـكُـم تَـيْـمـي

---

(١) انظر: التعليق على «ذيول تذكرة الحفاظ» ص٢٥٢.

سادساً: ثلاثة أبيات من البحر البسيط، نظمها في أواخر حياته سنة ١٣٧١ هـ، وأملاها على غير واحدٍ من تلامذته(١)، وأوصى أن تُكتَب على قبره:

يـا واقـفـاً بشَـفِيرِ اللَّحْـدِ مُعتَـبِراً   قد صار زائرُ أمـسِ اليومَ قد قُبِرا
فالموتُ حَتْمٌ فلا تَغفُل وكُن حَذِراً   مِنَ الفُجـاءةِ وادْعُ للذي عَـبَـرا
فـالزاهِـدُ الكوثـري ثـاوٍ بمَرقَـدِهِ   مُسـتَرحِمـاً ضارعاً للعَفْوِ مُنتَظِرا

سابعاً (على سبيل الاحتمال): ثمانية أبيات من البحر الخفيف وُجِدَت بخطِّه، قدَّرَ الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة نسبتَها إلى شيخ الإسلام مصطفى صبري، وأبدى احتمالاً في نسبتها إلى الكوثريّ، وهي:

صام شيخُ الهِندِ الحديثـةِ غَنْدِي   صَـوْمةَ الـمُستَميتِ والـمُتحدِّي
وأَرانـي علـى شَفَـا الموتِ أُدعى   شَـيخَ الاسلام بَلْهَ هِـنـدٍ وسِـنـدِ
غيرَ أنَّ الـصَّـومَـينِ بينَـهمـا فَرْ   قٌ عجيـبٌ أُبـديـهِ مِـن غير ردِّ
صـام مَعْ وَجْدِهِ وصُـمْتُ لِعُـدْمٍ   دامَ مُذ ضِفتُ مِصرَ كالضيفِ عندي
وغَـدَا صـومُه حـديثَ جميع الـنـ   ـناسِ، أمَّا صَوْمي فأدريهِ وَحْدي
فـي سـبيـلِ الإسـلام مـا أنـا لاقٍ   ولَئِنْ مِـتُّ فلـيَـعِشْ هو بَـعْـدي
فليَعِشْ رَغْمَ مُسلِمي العَصْرِ دِينٌ   ضَـيَّـعُـوهُ ولـم يَـفُـوهُ بـعَـهْـدِ
كان مِثْلي يموتُ جُوعاً ولا يُعْـ   ـرَفُ لو كان شيخَهم شيخُ هِندِ

قال الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: «هذه الأبياتُ وقفتُ عليها وِجادةً

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٣-٤٣٤.

مكتوبةً في ورقة بخطِّ شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى، بين أوراقه ودفاتره التي آلَتْ إليَّ، غيرَ منسوبة لقائل، فقدَّرتُ أنها من نَظْم شيخنا الإمام مصطفى صبري شيخ الإسلام، يُوازِنُ فيها بين حاله وحال غاندي، وكتبها صديقُه شيخُنا الإمام الكوثريُّ بخطِّه في بعض أوراقه استحساناً لها، فعَزَوتُها إلى شيخنا مصطفى صبري كما ترى، ثم التقيتُ في بيروت سنة ١٣٩٤ بالأستاذ الفاضل إبراهيم نَجْل شيخنا مصطفى صبري، فذكرتُها له وحدَّثتُه بها، فلم يعرفها عن والده واستغربَ ذلك، فإن رجَحَ استغرابُه فتكون هي من نَظْم شيخنا الكوثريِّ وكيل شيخ الإسلام، يحكي فيها حالَ نفسِه وحالَ غاندي كما ترى، والله أعلم»[1].

قلت: مُستَنَدُه في نسبتها إلى شيخ الإسلام مصطفى صبري قوله في البيت الثاني: «وأراني اليوم أُدعى شيخ الإسلام»، ومما يُستأنس به في تأييده: أن وصول الشيخ مصطفى صبري إلى مصر في رحلته الأخيرة إليها ليستقرَّ بها كان في ٢٠ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٢م[2]، وكان صوم غاندي في أيار (مايو) سنة ١٩٣٣م، وهو يناسبُ قولَه: «دام مُذ ضِفتُ مصرَ»، بخلاف الكوثريّ الذي كان بَدْءُ استقراره الأخير في مصر سنة ١٩٢٩م، فالضيافةُ أقربُ إلى الأول لقُربِ الوصول وقِصَرِ المدة من الثاني. وللشيخ مصطفى صبري ثلاثُ قصائد بالعربية (٧ أبيات، ٧٣ بيتاً، ٩ أبيات)[3]، فلا يُستَبعَدُ أن تكون هذه الأبيات له.

---

(١) «صفحات من صبر العلماء» لعبد الفتاح أبو غدة ص٢٢٧.

(٢) انظر: «مصطفى صبري» للقوسي ص١٤٨.

(٣) ذكرها كاملة الدكتور مفرح القوسي في كتابه «مصطفى صبري» ص٣٦٤-٣٧٧.

أما احتمال نسبتها إلى الكوثري فمستندُه كونُها بخطِّه من غير إشارة منه إلى نسبتها إلى غيره، مع سهولة التجوُّز في قوله: «أُدعى شيخ الإسلام»، إما باعتبار كونه وكيلَ شيخ الإسلام في مدّة من حياته، وإما باعتبار المعنى الذي تفيده الإضافة اللغوية لهذا التركيب.

وختاماً، يظهر في غالب أشعار الكوثري طلبُه فيها الدعاء ممَّن يقرؤها أو يسمعها، كما في قوله في القصيدة الأولى:

إلهَنا قد أتيتُ البابَ مُعتَذِراً ... فجُدْ بعَفْوِ خَطايانا بجاهِهِمِ

وقوله في الثانية:

يا ربِّ بالقَبولِ فامنَحْهُ كما ... مَنَحْتَ بالجَمْعِ المُميطِ للعَمى

لعلَّ مجبولاً على الإنصافِ أنْ ... يَدْعو بدَفْعِ الهَمِّ عنِّي والحَزَنْ

وقوله في الثالثة:

رجوتُ بذاكَ أن يُعفَى أثامي ... ولا أُنسى إذا رُمَّتْ عِظامي

وقوله في السادسة:

يا واقفاً بشَفِيرِ اللَّحْدِ مُعتَبِراً ... قد صار زائرُ أمسِ اليومَ قد قُبِرا

فالموتُ حَتْمٌ فلا تَغفُل وكُن حَذِراً ... مِنَ الفُجاءةِ وادْعُ للذي عَبَرا

فالزاهِدُ الكوثري ثاوٍ بمَرقَدِهِ ... مُستَرحِماً ضارعاً للعَفْوِ مُنتَظِرا

فنسأل الله له أن يُبلِّغَه ما سأله ورجاه، وأن يتغمَّده بواسع رحمته ورضاه، ويتقبَّلَه في الصالحين، ويرفعَ درجاته في عِلِّيِّين.

(٢)

قصيدة «حنين المتفجع»

دراسة تاريخية

CamScanner

CamScanner

٢ . ١ . تمهيد

أرَّخَ الكوثريُّ نظمَه هذه القصيدة بصبيحة يوم الجمعة ٢٥ من محرَّم سنة ١٣٣٧هـ، وهذا التاريخ يوافق اليوم الحادي والثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م، ولكن هذا التاريخ بحسب التقويم الميلادي يوم الخميس، ولا مجال للخطأ في التأريخ بيوم الجمعة، فتعيَّن أن يكون حسابُهم القمريّ في تلك السنة متأخِّراً يوماً عن الحساب الفلكيّ المعمول به الآن، فيكون تاريخُ نَظْم هذه القصيدة هو يوم الجمعة الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م، وطُبعت بعد نحو أسبوعين في قسطموني في ١٢ من صفر ١٣٣٧هـ.

وكانت الدولة العثمانية قد دخلت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، بعَقْدِ اتفاقية «الحلف العثماني الألماني» في ٢ آب (أغسطس) سنة ١٩١٤م، بتوقيع الصدر الأعظم سعيد حليم باشا (١٨٦٣-١٩٢١م) -ولم يكن راضياً عنها- ووزير الحربية أنور باشا (١٨٨١-١٩٢٢م) ووزير الداخلية طلعت باشا (١٨٧٤-١٩٢١م) ودَعْم جمال باشا (١٨٧٣-١٩٢٢م) من مجلس الوزراء، وكان هؤلاء الباشاوات الثلاثة من زعماء جمعية الاتحاد والترقّي هم أصحابَ السُّلطة الحقيقية[1]، وبعد نحو ثلاثة أشهر دخلت الدولةُ العثمانيةُ فعليّاً الحربَ العالمية في صَفِّ قُوى المركز التي تضمُّ ألمانيا القيصرية والإمبراطورية

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٣.

CamScanner

النمساوية المَجَرِيّة ومملكة بُلغاريا، في مقابل دول الحلفاء التي تضمُّ بريطانيا وفرنسا وروسيا، بل نصَّت المادة الثالثة من الاتفاقية المذكورة على «أن تُوضَع القوات العثمانية في حال الحرب تحت إمرة الهيئة العسكرية الألمانية»[١].

واستمرَّ سعيد حليم باشا في منصب الصدر الأعظم إلى ٤ من شباط (فبراير) سنة ١٩١٧م، ليَخلُفَه طلعت باشا إلى ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م، حيث اضطُرَّت حكومتُه إلى تقديم استقالتها نظراً إلى الخسائر المتوالية التي مُنيَ بها الجيش العثماني على عدد من الجبهات، وتبعاً لسقوط مساحات شاسعة من أراضي الدولة، كالحجاز والعراق وبلاد الشام، ومنها القدس الشريف، وكانت هذه الاستقالة خطوة في تمهيد عَقْدِ اتفاق هُدنة مُودْرُوس (مُونْدْرُوس) التي جرى توقيعها في ٣٠ من تشرين الأول (أكتوبر) بين الدولة العثمانية وبريطانيا مُمثِّلةً لدول الحلفاء، أي: قبل يومين فقط من نَظْم هذه القصيدة.

ولم يَلبَث طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا سوى يومين، حتى استَقَلُّوا غوّاصةً ألمانيةً ليلة السبت الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، هرباً من إسطنبول إلى برلين، وهو اليوم التالي لنظم هذه القصيدة.

وبعد أقلَّ من أسبوعين من هُدنة مُودْرُوس (مُونْدْرُوس) المذكورة، جرى توقيعُ الهُدنة على الجبهة الغربية من الحرب بين دول الحلفاء وألمانيا القيصرية يوم الاثنين ١١ من تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو ما عُرِفَ بيوم الهدنة، ليتوقَّفَ

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٥.

القتـالُ بعدها بسـاعات، وبها انتَهَت الحـرب العالمية الأولـى، وكان هذا بعد عشرة أيام فقط من نَظْم هذه القصيدة.

وفـي هـذا الوقـت كان الأسـطولُ البحـريُّ لقـوات التحالف يتحـرَّك من مضيـق جَناق قلعـة باتجاه مضيـق البوسـفور، وحينها وقعت حكومـةُ الصدر الأعظـم أحمد عـزت باشـا (١٢٨٠-١٣٥٦هـ=١٨٦٤-١٩٣٧م) في حَرَج شـديد، حيـث كان الأسـطولُ المذكور يتحـرَّك نحو العاصمة إسـطنبول، وقد تلقَّـت منه إجاباتٍ بأنه سـيتمُّ تطبيقُ بنـود هُدنة مُـودْرُوس (موندروس) فقط، ومنها السماحُ بمرور مثل هذا الأسطول في مضيق البوسفور وتحكُّمِها بمواقع التحصينات، ونظراً إلى أن هذه الإجابات لم تكن في موضع الثقة، فضلاً عن مُشـكِلات داخليـة، فقد قدَّمـت هذه الحكومة اسـتقالتَها في يوم الهدنة نفسـه (١١ من تشرين الثاني)، ولـم يمضِ عليها شهر، وحينها عُيِّن أحمد توفيق باشا (١٢٦١-١٣٥٥هـ = ١٨٤٥-١٩٣٦م) فـي منصـب الصـدر الأعظم وكُلِّف بتشـكيل حكومة جديدة، وفي الوقت نفسـه - ١٣ من تشرين الثاني (نوفمبر) - تفرَّقـت قواتُ الحلفاء المُكوَّنةُ غالباً من الإنجليز والفرنسـيِّين مع أعداد قليلة مـن الإيطاليِّيـن واليونانيِّيـن في مواقـع متفرِّقة من إسـطنبول، ووقعت المدينة تحـت الاحتلال فعـلاً. وكان هذا الاحتـلالُ الأليم بعد أقل من أسـبوعين من نَظْم هذه القصيدة.

فـي هـذه الأحـداث الأليمة نُظِمـت هـذه القصيـدة، وكان عنوانها «حنين المُتفجِّـع وأنين المتوجِّع» مُعبِّراً أحسـنَ تعبير عمـا كان يُكابِدُه الناظم - كغيره من العلماء الصادقين ورجال الدولة المُخلِصين - من آلام وأوجاع.

فالمُتفجِّع: المُتوجِّع للمصيبة[١]، والفاجعةُ والفَجِيعةُ: المُصيبة المؤلمة التي تُوجِعُ الإنسانَ بما يَعِزُّ عليه من مال أو حميم[٢]. والحنينُ يَرِدُ على معانٍ تدور حول «الإشفاق والرِّقَّة، وقد يكون ذلك بتوجُّع»[٣]، ومنها: شِدَّةُ البكاء، وصوت البكاء عن حُزنٍ أو صوتٌ يخرج عند الحزن لا بكاء معه ولا دَمْع[٤]. والمتوجِّع: المُتألِّم، والأنين: صوتُ التأوُّه، يُقال: أنَّ يَئِنُّ أنّاً وأنيناً وأُناناً: تأوَّه[٥]، أي: شكا من الوَجَع.

٢. ٢. سؤال التحديث (التغيير) في الدولة العثمانية

لَئِنْ كان السياقُ التاريخيُّ القريبُ لهذه القصيدة هو الحرب العالمية الأولى، فإن سياقَها التاريخيَّ البعيد يعود إلى قرنَيْن سالِفَين، حيث كان دخولُ الحرب العالمية الأولى أحد نتائج خَلْع (عَزْل) السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨-١٣٣٦هـ=١٨٤٢-١٩١٨م) عن عرش السَّلطَنة سنة ١٩٠٩م، وهو ـ أعني: الخلعَ المذكور ـ الموجة الأخيرة من صراع سياسيّ مديد نتَجَ عن مناقشاتٍ طويلة حول (التحديث) في مؤسسات الدولة العثمانية، وإجراءاتٍ عديدة بقَصْدِ (التغيير) في نظامها.

ومن هنا، فلا بدَّ من الكلام عن سؤال التحديث (التغيير) تاريخيّاً بالقَدْر الذي يكفي للتوطئة إلى فَهْم هذه القصيدة في سياقها التاريخي؛ إذ لا يمكن

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، مادة (فجع).
(٢) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٢١: ٤٧٧، مادة (فجع).
(٣) «مقاييس اللغة» لابن فارس ٢: ٢٤، مادة (حن).
(٤) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٣٤: ٤٥٥، مادة (حنن).
(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، مادة (أنن).

CamScanner

الإلمامُ بتفاصيل الكلام عن هذا الموضوع في هذه الصفحات المعدودة، فضلاً عن كونه خارجَ نطاق بحثنا.

شهد القرنُ الميلادي السابع عشر كلاماً نظرياً عن التحديث في بعض المُدوَّنات، غير أنه كان على نطاق ضيّق محدود، ولم تقابله تجاربُ تطبيقيةٌ على أرض الواقع، ومع ذلك فقد كانت هذه الأبحاثُ النظرية ـ على محدوديَّتها ـ إرهاصاً لِمَا سيتلوها على مدى قرنَين لاحِقَين من مناقشات علمية عديدة، وصراعات سياسية شديدة.

ومن هنا يمكن القول: إن البداياتِ الأُولى للتحديث كانت في مطلع القرن الثامن عشر، حيث اشتَدَّ الجدلُ حول قضية التحديث (التجديد، الإصلاح)، وتوجَّهت أنظارُ عدد من المُثقَّفين والساسة العثمانيين إلى أوروبا عموماً، وفرنسا خصوصاً، وفقَدَ كثير منهم الثقةَ في إمكانية إنتاج مشروع إصلاحيّ قائم على الأُسُس العثمانية وحدها[١]، وتطلَّعوا إلى أسلوب الحياة الغربي، وانبهروا بثقافة الغرب وحضارته، وصاروا يقترحون إقامةَ (نظام جديد) بدلاً من العودة إلى (القانون القديم)[٢]. وقد حاول خمسةُ سلاطين في هذا القرن القيام ببعض الإصلاحات، خصوصاً في الميدان العسكري، غير أن هذه المحاولات لم تُؤدِّ إلا إلى نتائجَ محدودة وهزيلة[٣].

وفي أواخر هذا القرن تولّى السُّلطان سليم الثالث (١١٧٥-١٢٢٢هـ

(١) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص١٣.
(٢) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٢٤١.
(٣) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٧٠.

CamScanner

= ١٧٦١-١٨٠٨م) الحكم عام ١٢٠٣هـ = ١٧٨٩م، وبعد ثلاث سنوات من تولّيه مَنصِبَه قام بإصلاح عسكريّ عُرف باسم «نظام جديد» مدعوم بإصلاح اقتصادي عُرف باسم «إيراد جديد»، واستقرَّ عنده أنْ لا غِنى عن إقامة علاقات ثابتة مع العواصم الأوروبية، ولهذا أوفَدَ لأوّلِ مرّة في تاريخ الدولة العثمانية بعثاتٍ دبلوماسيّةً دائمة إلى أبرز تلك العواصم: لندن وباريس وبرلين وفيينا وبُطرُسْبورغ[1].

وكانت هذه التجربةُ مُعبِّرةً عن التناقضات والصِّراعات كلِّها التي ستُسايِرُ محاولاتِ التحديث في الدولة العثمانية[2]، وأسفَرَت لاحقاً عن قَتْلِه على يد قوات الإنكشارية. وكانت المئةُ سنةٍ ما بين قَتْل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٨م والانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨م وما أعقَبَه من عَزْل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش سنة ١٩٠٩م، حافلةً بتأثير الفكر الأوروبي الذي كان يتأكّد بشكل ثابت في فِكرِ كثير من رجال الدولة والسياسة[3].

ومن الممكن تلخيصُ هذه التناقضات والصِّراعات في اتجاهين بارزين، أوّلُهما: الاتجاه الدينيُّ المُحافِظ الذي كان يُشكِّلُ قوّةً وتياراً فاعلاً في الحياة اليومية، ويدور نشاطُه حول (المدرسة) التي تُشكِّلُ حجَرَ الزاوية في المؤسَّسة الدينية، وقد اجتمعت في هذا الاتجاه القُوى المحافظةُ والفئاتُ المعارضةُ للتحديث. وثانيهما: اتجاهٌ نامٍ شيئاً فشيئاً مُناصِرٌ للتحديث، ويدور نشاطُه حول

---

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٨٣، ٣١٩.

(٢) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٢٠ باختصار.

(٣) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٢٥.

المـدارس الحديثة التي عمل السـلطان سـليم الثالث على تأسيسـها لتدريس العلوم الكونية كالهندسة والرياضيات، خارجَ سلطة المدرسة التقليدية[١].

ثم حلَّ القرنُ التاسـع عشـر فكان مَسـرَحاً عريضاً لسـؤال التحديث الذي تحـوَّل إلـى صـراع، وميدانـاً واسـعاً للخلافـات الاجتماعيـة والسياسـية بيـن الاتجاهيـن المذكوريـن، وكان افتتـاحُ ذلـك بما أقـدَمَ عليه السـلطان محمود الثانـي (١١٩٩-١٢٥٥هـ = ١٧٨٥-١٨٣٩م) مـن إلغـاء جيش الإنكشـارية ـ وهو الجيشُ التقليديُّ في الدولة العثمانية ـ فيما يُسمّى بـ«الواقعة الخيرية» سنة ١٨٢٦م وتأسـيس جيش جديد تنظيماً وزيّـاً وتدريباً، ولم يقتصر هذا الإجراء على كونه الخطوةَ الأولى في طريق التغيُّرات القانونية الحقيقية والبعيدة الأثر، بل كان نقطةَ انعطافٍ مُهمّةً في عملية التحديث أيضاً[٢].

كانـت الإنكشـاريةُ تُمثِّل الارتباط بيـن الدين والدولة فـي الفِكر العثماني، وبإلغائهـا حقّـقَ السـلطانُ فـكَّ الارتباط بين المؤسَّسـة العسـكرية والمؤسَّسـة الدينيـة[٣]، ووُجِّهَـت الضربـة الكبيرة الأُولى إلـى الطبقة الشـرعية التقليدية[٤]، وتَقَلّصَ دَورُ العلماء في إدارة الدولة، وتجرَّدوا هم خصوصاً والمجتمعُ المُحافِظُ عموماً من القوة التي كانوا يَستَنِدون إليها في التصدِّي لأيِّ محاولة للانحراف عن الأُسُس التي قامت عليها الدولة العثمانية من وَحْدة الدين والدولة، والانحراف

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٢٣ بتصرُّف.
(٢) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٦٩٩.
(٣) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص١٧.
(٤) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠٨.

= ١٧٦١-١٨٠٨م) الحكم عام ١٢٠٣هـ = ١٧٨٩م، وبعد ثلاث سنوات من تولّيه مَنصِبَه قام بإصلاح عسكريّ عُرف باسم «نظام جديد» مدعوم بإصلاح اقتصادي عُرف باسم «إيراد جديد»، واستقرَّ عنده أنْ لا غِنى عن إقامة علاقات ثابتة مع العواصم الأوروبية، ولهذا أوفَدَ لأوّلِ مرّة في تاريخ الدولة العثمانية بعثاتٍ دبلوماسيّةً دائمة إلى أبرز تلك العواصم: لندن وباريس وبرلين وفيينا وبُطرُسبورغ(١).

وكانت هذه التجربةُ مُعبِّرةً عن التناقضات والصِّراعات كلِّها التي ستُسايِرُ محاولاتِ التحديث في الدولة العثمانية(٢)، وأسفَرَت لاحقاً عن قَتْلِه على يد قوات الإنكشارية. وكانت المئةُ سنةٍ ما بين قَتْل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٨م والانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨م وما أعقَبَه من عَزْل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش سنة ١٩٠٩م، حافلةً بتأثير الفكر الأوروبي الذي كان يتأكّد بشكل ثابت في فِكرِ كثير من رجال الدولة والسياسة(٣).

ومن الممكن تلخيصُ هذه التناقضات والصِّراعات في اتجاهين بارزين، أوَّلُهما: الاتجاه الدينيُّ المُحافِظ الذي كان يُشكِّلُ قوّةً وتياراً فاعلاً في الحياة اليومية، ويدور نشاطُه حول (المدرسة) التي تُشكِّلُ حجَرَ الزاوية في المؤسَّسة الدينية، وقد اجتمعت في هذا الاتجاه القُوى المحافظةُ والفئاتُ المعارضةُ للتحديث. وثانيهما: اتجاهٌ نامٍ شيئاً فشيئاً مُناصِرٌ للتحديث، ويدور نشاطُه حول

---

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٨٣، ٣١٩.
(٢) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٢٠ باختصار.
(٣) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٢٥.

المدارس الحديثة التي عمل السلطان سليم الثالث على تأسيسها لتدريس العلوم الكونية كالهندسة والرياضيات، خارجَ سلطة المدرسة التقليدية[١].

ثم حلَّ القرنُ التاسع عشر فكان مَسرَحاً عريضاً لسؤال التحديث الذي تحوَّل إلى صراع، وميداناً واسعاً للخلافات الاجتماعية والسياسية بين الاتجاهين المذكورين، وكان افتتاحُ ذلك بما أقدَمَ عليه السلطان محمود الثاني (١١٩٩-١٢٥٥هـ = ١٧٨٥-١٨٣٩م) من إلغاء جيش الإنكشارية -وهو الجيشُ التقليديُّ في الدولة العثمانية- فيما يُسمّى بـ«الواقعة الخيرية» سنة ١٨٢٦م وتأسيس جيش جديد تنظيماً وزيّاً وتدريباً، ولم يقتصر هذا الإجراء على كونه الخطوةَ الأولى في طريق التغيُّرات القانونية الحقيقية والبعيدة الأثر، بل كان نقطةَ انعطافٍ مُهمّةً في عملية التحديث أيضاً[٢].

كانت الإنكشاريةُ تُمثِّل الارتباط بين الدين والدولة في الفِكر العثماني، وبإلغائها حقّقَ السلطانُ فكَّ الارتباط بين المؤسَّسة العسكرية والمؤسَّسة الدينية[٣]، ووُجِّهَت الضربة الكبيرة الأُولى إلى الطبقة الشرعية التقليدية[٤]، وتَقَلّصَ دَورُ العلماء في إدارة الدولة، وتجرَّدوا هم خصوصاً والمجتمعُ المُحافِظُ عموماً من القوة التي كانوا يَستَنِدون إليها في التصدِّي لأيِّ محاولة للانحراف عن الأُسُس التي قامت عليها الدولة العثمانية من وَحْدة الدين والدولة، والانحراف

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص١٢٣ بتصرُّف.
(٢) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٦٩٩.
(٣) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص١٧.
(٤) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠٨.

CamScanner

بها إلى مُعطَيات القِيَم الأوروبية[١]. وفي تلك الآونة استَشعَر العلماءُ الخطر، وسَرَتْ شائعاتٌ بأن الخطوة التالية هي القضاء عليهم[٢]. وهو ما أضعَفَ نفوذ الاتجاه المُحافظ المعارض لعملية (التحديث) إلى حدٍّ كبير.

ولم يقتصر تأثير هذه الحادثة على المؤسسة الدينية، بل كان لها أثرُها السلبيُّ البالغ على الحالة الاقتصادية في الدولة العثمانية، وذلك لأن جنود الإنكشارية كانوا من أصحاب الحِرَف والصِّناعات[٣].

وفي عهد السلطان المذكور اكتسَبَ التحديثُ معنًى أكثرَ اتساعاً، فشَمِلَ جوانبَ التعليم والثقافة وأنماط الحياة الأوروبية، وتغيَّر السلوك الاجتماعيّ على مستوى رجال الدولة، وصار تعلُّم اللغة الفرنسية مظهراً من المظاهر الثقافية[٤]. وفي هذه الأثناء أوفَدَ السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٣هـ = ١٨٢٧م أول مجموعة من الطلاب إلى فرنسا لتلقّي العلوم الحديثة، وقد أحدَثَت هذه الخطوةُ تغييراً جذريّاً في مفهوم العلم والثقافة عند العثمانيّين[٥]، حيث تعرَّفَ هؤلاء الشباب على الأفكار السائدة في أوروبا بعد الثورة الفرنسية وعايشوها وأُعجِبَ كثير منهم بها، فكانوا النموذجَ الأول للمُثقَّف العثماني المتجه إلى الغرب[٦]. وهو ما زاد من قوّة الاتجاه الداعي إلى (التحديث) إلى حدٍّ كبير.

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص١٧، ٢٠٦.

(٢) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٢٤.

(٣) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق، ص٦٩٩-٧٠٠.

(٤) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص١٧.

(٥) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص٢٤٤.

(6) Aslan, Taner, «Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma», s. 3.

CamScanner

كذلك زاد من قوة هذا الاتجاه إنشاءُ نظارة (وزارة) الأوقاف السُّلطانية، وهو ما جعل الأوقاف الكبرى تخضع لإشراف الحكومة مُمثَّلةً بهذه النظارة، وجعل الحكومةَ تُطالِبُ بعائدات الأوقاف المالية، لصَرْفِ مُرتَّبات العاملين فيها بما يكفُل أدنى حِفظٍ وتشغيل للمؤسَّسات الوقفية، في حين كانت سائر الأموال تُصرَفُ في المشاريع العسكرية وغيرها، وهو ما تَسبَّبَ في الانهيار التدريجي للأوقاف التعليمية، وأضعَفَ العلماء وطلاب المدارس الدينية الذين أظهروا بعض المقاومة للتحديثات(١)، وكان إنشاء هذه النظارة أكبر

(١) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠٥-٧٠٧ باختصار، و«الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٣١٠-٣١١.

ويُنبِّه الكوثري في مرحلة لاحقة من حياته ـ وهي ما بعد هجرته إلى مصر ـ خطورةَ المساس بالأوقاف، مستحضراً التجربة التي خاضَتْها الدولة العثمانية في هذا السياق، وقد أفرد لها ثلاث مقالات، وهي «محادثة قديمة حول الوقف الأهلي» و«خطورة المساس بالأوقاف الإسلامية» و«كليمة أخرى في الوقف»، كما في «مقالات الكوثري» ص١٥٦-١٦٦، فيقول في المقالة الأولى المذكورة ص١٥٩: «وقد مُثِّلَت أمامنا عِبَرٌ في التاريخ الحديث، وأحقُّ الناس ألا تفوتَهم عِبَرُ التاريخ بدون اعتبار بها هم العلماء ورجال الدِّين، لأن سَوْقَ العِبَر التاريخية من طريق هداية القرآن الكريم، وفي مطاوي تاريخ الدولة العثمانية عِبَرٌ أيُّ عِبَرٍ في هذا الصدد، وصِلةُ هذا القطر العزيز ـ أي: مصر ـ بالدولة العلية صِلةٌ أخوية قديمة مستغنية عن الشرح ...، وقد ألَّفَ بعضُ سفراء فرنسا لدى الدولة العثمانية ـ وهو أنكه لهارد Engelhardt (١٨٢٨-١٩١٦م) على ما سمّاه في المقالة الثانية ص١٦٢ ـ كتاباً في تاريخ الإصلاحات العثمانية يحتوي على وثائق رسمية لا يمكن للجمهور أن يَطَّلِعوا عليها إلا من مِثل ذلك المصدر، وقد ترجم بعضُ أهل الأدب من العثمانيِّين ذلك الكتاب في أوائل إعلان الدستور في البلاد العثمانية، فاطّلَعنا بذلك على وجوه الأخذ والرَّدِّ بين دول أوروبا والدولة العلية في صَدَدِ الإصلاحات في القرن المُنصَرِم والقرن الحاضر، فكنا إذا رأينا بين مقترحات دول أوروبا ما يتعلّقُ بترفيه الرُّوم والأرمن والبلغار مثلاً لا نستغرب ذلك كثيراً. لأن بين هؤلاء وهؤلاء من الصِّلات المذهبية والمنافع السياسية ما يدفع الدول =

ضربة وُجِّهَت إلى العلماء في هذا العهد(١).

وفي السنوات التالية انخرَطَ طلبةُ المدارس الدينية والعلماءُ، كما انخرَطَ طلبةُ المعاهد العلمية والمُثقَّفون والأُدباء في العمل السياسيّ، وصار التحديثُ منوطاً بالفئتين جميعاً، مع تبايُن مُنطَلق كلِّ فئة، فبينما كان طلبةُ المدارس الدينية والعلماء يعملون على مقاومة الهيمنة الأوروبية في عملية التحديث حفاظاً على مُكوِّنات الهوية الإسلامية، كانت الفئةُ الأخرى تقود التغيير السياسيَّ والاجتماعيَّ لتحقيق فكرة الدولة الحديثة(٢).

وفي الأشهر الأولى من تولّيه الحكم أصدر السلطان عبد المجيد الأول (١٢٣٨-١٢٧٧هـ = ١٨٢٣-١٨٦١م) الذي تولّى الحكم سنة ١٢٥٥هـ =

= المذكورة إلى مثل ذلك الاقتراح، ولكنْ إذا وجدناهم يقترحون على الدولة العلية تحت الخفاء إلغاءَ الأوقاف وجَعْلَ الأعيان والأراضي الموقوفة في عِدادِ أملاك الأمة، فهناك نقفُ وقفةً نتساءل عن الغاية التي يرمون إليها بهذا الاقتراح، ونستجلي مصلحة هؤلاء في هذا الطلب في أمر إسلاميّ بَحْت. ونحن نعلم جيداً أنه لم يكن في دار الخلافة العثمانية موضعُ شِبرٍ غير موقوف منذ افتتحها المسلمون، فإذا أُلغِيَ الوقفُ يَسهُل على الغريب تملُّكُ ما يشاء وبناءُ ما يشاء في العاصمة وغيرها. ثم إن الوقف ميزانية الإسلام في غالب البلدان الإسلامية، فإذا أُلغي وقُطِعَ مَدَدُه فسرعان ما يختلُّ نظام الجوامع والمساجد والمدارس والمعاهد والملاجئ والمستشفيات ومساعدة المُعوِزين وسائر وجوه الخير، فإذ ذاك تبقى البلاد الإسلامية مُفتَّحةَ الأبواب لتسرُّب صنوفٍ من الكيد المسلمين، وأنواع من المكر بهم في دينهم ودنياهم». وقد ذكر نحوه بإيجاز في المقالة الثانية ص١٦٢. والكتاب المذكور صُنِّفَ سنة ١٨٨٢م، وتُرجِمَ في مطلع القرن العشرين إلى العثمانية، ثم تُرجِمَ سنة ٢٠١٧م من العثمانية إلى العربية بعنوان «تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية».

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ص٣١٠.

(٢) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص٢٠٨.

١٨٣٩م وهو في السابعة عشرة من عُمُره، مرسوماً باسم «فَرَمان كُلْخانه»، وهو المرسوم الذي يُعدُّ الأساسَ القانوني لمرحلة فارقة في تاريخ الدولة العثمانية، والنُّقلةَ الكبيرة في عملية التحديث التي عُرِفَت باسم (التنظيمات العثمانية).

وفي الواقع، كان الفَرَمانُ المذكور هو الثمنَ الذي دفَعه العثمانيُّون للقُوى الأوروبية الكبرى: بريطانيا وفرنسا وروسيا، في مقابل إعانتهم الدولةَ العثمانية في مواجهة والي مصر محمد علي باشا (١١٨٤-١٢٦٥هـ = ١٧٦٩-١٨٤٩م)[١] في محاولته ضمَّ بلاد الشام إلى سلطته في السنوات (١٨٣١-١٨٤٠م).

وفي أواخر عهد السلطان المذكور أُسِّسَ «مجلسُ التنظيمات العالي» سنة ١٨٥٤م، وصدر «فَرَمان الإصلاحات» ـ وهو المرسوم الثاني في (التنظيمات) ـ سنة ١٨٥٦م، ونصَّ هذا الفرمان على مَنْح غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية حقوقاً مساويةً للمسلمين، والسماح لهم بتأسيس مدارسهم الدينية الخاصة.

وإذا كان انهيار الاقتصاد العثماني من العوامل الرئيسة الداعية إلى الإصلاحات المزعومة، فإن هذه الإصلاحاتِ نفسَها قد أسهَمَت في إضعاف هذا الاقتصاد، وتدمير البِنى الاجتماعية والاقتصادية القديمة تبعاً لذلك، وأدَّت إلى فَتْح أبواب الأسواق العثمانية للرأسمالية الأوروبية[٢].

تضمَّن المرسومان المذكوران نَقْلَ مركز الثِّقَل السياسيّ والإداريّ في الدولة من السُّلطان إلى الجهاز البيروقراطيّ، وعلى رأسه الصدر الأعظم،

---

(١) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠١.

(٢) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠١، ٧٠٣ باختصار.

أي: رئيس الوزراء[١]. ولذا تضاءل في عصر التنظيمات نفوذُ العلماء وطلبة المدارس الدينية، وتَقَدَّم الإداريُّون إلى الواجهة واستَحوَذوا على النفوذ في شؤون الدولة[٢].

وكان التحوُّلُ الأبرز في مرحلة (التنظيمات) هو التحوُّلَ من سيادةِ التشريعات الإسلامية والسَّعْيِ في مَلْءِ الفراغ في التطبيقات بالقوانين العُرفية في الإطار الكُلّي للشريعة، إلى حركة (تغريب) باسم التحديث والإصلاح، نتيجةً لإعجاب رجال الدولة بالنُّظُم القانونية وحركة التقنين في أوروبا، وكان الغربُ هو النموذجَ الذي يُحتَذى به في هذه الإصلاحات[٣].

اشتملت التنظيمات على سلسلة من التحديثات في مجالات مختلفة، وهي تُعزى إلى مجموعة من الإداريِّين الذين أدَّى كلٌّ واحد منهم قِسطاً من إعداد البرامج وإنشاء المؤسَّسات وتحديث القضاء والتعليم والإدارة، إلا أن أهمَّ ما يُميِّزُ عصر التنظيمات هو بروزُ المفاهيم والأفكار الحديثة التي كانت تُناقَشُ في الصُّحُف ـ كمفهوم (الوطن) في مقابل (الأُمة)، وأفكار (الحرية) و(المساواة) و(التمدُّن) و(التقدُّم) ـ واكتسابُ المُدُن طابعاً عمرانيّاً أوروبيّاً ينعكسُ على العادات والحياة اليومية[٤].

وفي هذه الأثناء صدر قانونُ التجارة العثماني سنة ١٨٥٠م، وقانونُ الجزاء (العقوبات) العثماني سنة ١٨٥٨م، وقانون التجارة البحرية سنة ١٨٦١م،

(١) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص٢١٨.
(٢) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٢٤.
(٣) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٥١١.
(٤) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٣٦.

CamScanner

وقانون أصول المحاكمات التجارية سنة ١٨٦٤م، وكانت هذه القوانين مُستَمَدّةً من نظائرها من القوانين الفرنسية، وأُنشئ «ديوان الحقّانية» سنة ١٨٦٣م ـ وهو بمثابة وزارة العَدْل ـ الذي يُصدِرُ التعليمات الدورية باسم «تعليمات الحقّانية»، وكانت هذه التعليمات تُستَقى من القوانين الفرنسية ونُظُمِها[١].

وكانت المدارسُ الحديثة (العَلْمانيةُ) تجتذبُ الجيل الجديد الذي وجد فيها فرصةً أكبر ـ وربما أجراً أعلى ـ من الفرصة التي تُقدِّمها المدارسُ والمؤسَّساتُ التي كانت تُستَنفَدُ يوماً بعد يوم، وهكذا أخذت الأُسَرُ العلمية التي كانت في مواقع السُّلطة غالباً تُوجِّهُ أبناءها إلى الدراسة في المدارس الجديدة، استعداداً لمُزاولة المِهَنِ التي تحتاج إليها المحاكمُ النِّظامية (العَلْمانية) المُستَحدَثة والجهازُ البيروقراطيّ[٢].

(١) انظر: «الشريعة والتحديث» لمحمد وفيق زين العابدين ص٢٤-٢٥. وانظر أيضاً حول هذه القوانين وما صاحبها من تغيير نظام القضاء وإنشاء المحاكم النظامية: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٥١٧، و«الشريعة» لوائل حلاق ص٧٠٩-٧١٨.

(٢) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٣٢ بتصرُّف يسير.
وينقل الكوثريّ في مرحلة لاحقة منَ حياته عن الشيخ محمد عبده نصّاً يفيدُ في بيان «اتجاه تفكير الشيخ محمد عبده في دَوْرٍ من أدوار حياته» كما يقول الكوثري، وهو قولُ الشيخ محمد عبده الذي افتتحه بأن «المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله»، ثم ذكر فيه أن «الأجانب قد بثُّوا دعاتهم في أطراف البلاد الإسلامية، حتى العثمانية، لتضليل المسلمين ...، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعُها في معيشتهم أو تحصيلهم بعضَ اللغات الأوروبية التي يحسبونها ضروريةً لسعادتهم في مستقبل حياتهم. ولم يختصَّ هذا التساهلُ المُحزِن بالعامة والجهّال، بل تعدّى إلى المعروفين بالتعصُّب في دينهم، بل إلى بعض ذوي المناصب الدينية الإسلامية، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون =

وكان كثير من البيروقراطيّين يَنحَدِرُ من أُسَرٍ ثرية، وكانت لهم صِلاتٌ بالسُّفراء الأجانب، وكانوا يرون أنهم الأكثر كفاءةً في إدارة الدولة، فبدؤوا بانتزاع صلاحيات السُّلطان، وتحوَّلوا شيئاً فشيئاً إلى جماعة مُغلَقةٍ لا تقبلُ المشاركة من الآخرين، وتحلَّلوا إلى حَدٍّ ما من كثير من المعايير والمبادئ الإسلامية، وعملوا على تحويل الفِكر العَلْماني الذي يُستَمدُّ من الحضارة الغربية إلى مُؤسَّسات قانونية[1].

وفي هذه الأثناء كانت الدول الأوروبية تستمرُّ عن طريق قُنصُليّاتها في التدخُّل في شؤون الدولة العثمانية[2]، تبعاً لضعفها الاقتصادي الذي اضطَرَّها إلى استدانة الأموال منها، وكان مدخلُها الرئيس هو الحفاظ على حقوق رعايا تلك الدول في علاقاتهم التجارية بالدولة العثمانية، والمطالبة بحقوق مثلها لرعايا الدولة العثمانية من أهل الذمة، وكانت الاستجابةُ إلى هذه الضغوط والمطالب تقتضي من الدولة مزيداً من التحديث في التعليم والقضاء وغيرهما.

وفي هذه الأثناء، توسَّع النقاش شيئاً فشيئاً من إصلاح مؤسَّسات الدولة

= إلى تلك المدارس الأجنبية في سِنّ السذاجة و غرارة الصِّبا والحداثة، ولا يسمعون إلا ما يخالفُ أحكام الشرع المُحمَّديّ، بل لا يَطرُقُ أسماعهم إلا ما يُزري على دينهم وعقائد آبائهم، فلا تنقضي سِنُو تعليمهم إلا وقد خَوَتْ قلوبهم من كل عَقْدٍ إسلاميّ ...، وتنعقدُ قلوبهم على محبة الأجانب، وتنجذبُ أهواؤهم إلى مجاراتهم، ويكونون طوعاً لهم فيما يريدونه منهم، ثم يَنفُثون ما تَدنَّسَت به نفوسُهم بين العامة بالقول والعمل، فيصيرون بذلك ويلاً على الأمة، ورزيّةً على الدولة». وهذا الكلامُ يجري نسبيّاً على المدارس الحديثة المذكورة، وإن لم تكن مدارس أجنبية.

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٦١٠.

(٢) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٥١٢.

وأنظمتها إلى إصلاح المجتمع نفسِه، فكَثُر النقاشُ حول صلاحيات السلطان، وحقوق الأفراد، وحُرِّية الفِكر والصحافة، ومساواة جميع رعايا الدولة أمام القانون، وبدأت المطالبةُ بالإصلاح والتحديث تَتَحوَّلُ من الإصلاح الإداري إلى إصلاح النظام السياسي والنظام الاجتماعي(١).

ومن جهة أخرى، كان العمل جارياً على تقنين أحكام الشريعة الإسلامية في «مجلّة الأحكام العَدْلية» لتكون قانوناً مدنيّاً للدولة العثمانية، وقد استمرَّ العمل فيها نحوَ ثماني سنوات (١٢٨٥-١٢٩٣هـ = ١٨٦٨-١٨٧٦م)، وكان العالم الكبير أحمد جودت باشا (١٢٣٩-١٣١٢هـ=١٨٢٢-١٨٩٥م) رئيساً للجنة المسؤولة عن إصدارها، وبدأ العملُ بالمجلة في عصر السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦م، مع إجراء تعديلات وإضافات عليها لاحقاً، واستمرَّ العملُ بها إلى سقوط الدولة العثمانية، حيثُ حلَّ محلَّها القانونُ المدني التركي المُستَمَدّ من القانون السويسري سنة ١٩٢٦م(٢).

---

(1) Aslan, Taner, ‹Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma›, s. 3.

(٢) لكن استمرَّ العمل بها في عدد من البلدان التي كانت تحت الحكم العثماني سابقاً، فاستمرَّ العمل بها في سوريا إلى سنة ١٩٤٩م، وفي العراق إلى سنة ١٩٥٢م، وفي الأردن إلى سنة ١٩٧٦م، وفي الكويت إلى سنة ١٩٨٠م. انظر: «الشريعة والتحديث» لمحمد وفيق زين العابدين ص١٥٩.

هذا، ولم يكن السببُ الحقيقيُّ وراء إقصاء المجلة عن الحياة التشريعية والقضائية متعلّقاً بقصورها عن تغطية النوازل والمسائل المُستَحدَثة في الخصومات، بقَدْرِ ما كان متعلّقاً بانهيار الخلافة العثمانية والتوجُّه العلماني لبعض الدول التي خَلَفَتْها، حيث سَعَتْ جاهدةً نحو إقصاء المجلة واستبعاد تطبيق الشريعة بصفة عامة. انظر: «الشريعة والتحديث» لمحمد وفيق زين العابدين ص١٦٠.

CS CamScanner

وكان واضحاً للمُصلِحين، بل لخصومهم كذلك، أن مشروع «المجلّة» كان هو المحاولةَ الأخيرة لإنقاذ الشريعة بوصفها قانوناً ساري المفعول، بَيْدَ أنه كان كذلك محاولةً للعلاج طُـبِّقَت على مشكلة نشأت بوصفها علاجاً[١].

وسواء قلنا: إن المجلة كانت خطوةً إجرائيةً اقتَضَتْها عمليةُ التحديث المذكورة أو نتيجةً طبيعيةً لتطوُّر التدوين في الفقه الإسلامي تَستَنِدُ إلى سياقه التاريخي[٢]، فإنه من غير المُمكِن فَصْلُها عن عملية التحديث باعتبارها ظرفاً زمانياً ودافعاً مُحفِّزاً على أقلّ تقدير. وعلى الرغم من هذا، فقد انحصَرَ تأثُّر «المجلّة» بالقوانين الغربية في الجوانب الشكلية[٣].

وفي هذه الأثناء تأسَّست حركة «الشباب العثمانيون» أو «العثمانيون الجدد» (Genç Osmanlılar/ Yeni Osmanlılar) وبرزت فيها أسماءُ بعض كبار الشخصيات من أنصار التحديث، مثل: نامق كمال (١٢٥٦-١٣٠٦هـ=١٨٤٠-١٨٨٨م) وضياء باشا (١٢٤٤-١٢٩٧هـ= ١٨٢٩-١٨٨٠م) وعلي سُعاوي (١٢٥٥-١٢٩٥هـ=١٨٣٩-١٨٧٨م) ومِدْحَت باشا (١٢٣٨-١٣٠٢هـ=١٨٢٢-١٨٨٤م)، وقد سعى هؤلاء إلى ترسيخ الفِكر الأوروبي إلى الدولة العثمانية، وظهرت في مقالاتهم بعضُ الدعوات إلى فَصْل الدين عن إدارة الدولة وشؤون الحياة، مع اهتمام زائد بمفهوم الحرية وإذاعته وترسيخه[٤].

---

(١) انظر: «الشريعة» لوائل حلاق ص٧٢٢.

(٢) انظر تفصيل هذه القضية الجدلية في كتاب «الفقه والدولة والسلطان» لسامي أيوب ص٢٧٧-٢٩٠.

(٣) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٥١٧.

(4) Aslan, Taner, ‹Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma›, s. 6-8.

CS CamScanner

وفي خِضَمِّ عصر التنظيمات والنقاشات التي دارت فيه، آلَ الحكم إلى السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨-١٣٣٦هـ = ١٨٤٢-١٩١٨م)، وقد اعتلى العرش في آب (أغسطس) ١٨٧٦م = ١٢٩٣هـ، واضطُرَّ بعد أربعة أشهر فقط من تولِّيه الحكم، تجنُّباً لانقسام الجيش وتسكيناً للأوضاع الداخلية في الدولة، إلى إعلان أول دستور للدولة العثمانية، وذلك في ٢٣ من كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٦م، وأُجرِيَت انتخاباتٌ برلمانية خلال ثلاثة أشهر، وافتُتِحَ مجلس المبعوثان سنة ١٨٧٧م، وعُرِفَ هذا التغيير في نظام الحكم باسم «المشروطية» التي تُفيدُ معنى «الخلافة الدستورية والبرلمانية»، غير أنه قام - بناءً على السلطة الممنوحة له في ذاك الدُّستور نفسه - بحَلِّ البرلمان أو تعليقه أوائل سنة ١٨٧٨م حيث كانت الدولة قد دخلت الحربَ ضدَّ الإمبراطورية الروسية.

وكانت الشخصية الأبرز وراء إعلان هذا الدُّستور هي الصَّدْر الأعظم مِدْحَت باشا، وهو رجلٌ سياسيٌّ عاصَرَ خمسةً من السلاطين، ابتداءً من محمود الثاني وانتهاء بعبد الحميد الثاني، وكان ضالعاً في عَزْلِ السلطان عبد العزيز عن الحكم سنة ١٨٧٦م، وشَهِدَ مرحلةَ التنظيمات كلِّها من أوَّلِها إلى آخرها، وكان وثيقَ الصِّلة بأقطابها، وكان من المُتحمِّسين لتجديد نظام الحكم في الدولة العثمانية، ليكون على غِرارِ أنظمة الحكم الأوروبية[١].

وكانت الأحوالُ الداخلية العثمانية عند تولي السلطان عبد الحميد الثاني

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص٢٥٦-٢٥٨ باختصار.

تموجُ بتيارات فكرية متباينة، وانصرف اهتمام المُفكِّرين والساسة حينها عن إصلاح النُّظُم العثمانية إلى تحديث النظام السياسي، وزاد الاستقطاب بين الاتجاهين المذكورين سابقاً واشتَدَّ الصراعُ الفكريُّ والسياسيُّ بينهما، وهما: أنصار التحديث الذين انغَمَسوا في تقليد الغرب سياسيّاً واجتماعيّاً، ومُعارِضُوه من المُحافِظين الذين رأوا في الاتجاه الأول انحرافاً عن مسار الحضارة العثمانية وقِيَمِها وتفريطاً في الإسلام، وتمسَّكوا بالشريعة أساساً للدولة مع الاستفادة من العلوم الأوروبية[1]. وكان أنصارُ التحديث يَتَندَّرون بالمدرسة الدينية سخريةً واستهزاءً، في صفحات الجرائد التي يُصدِرُها المعارضون للسلطان عبد الحميد، ويصفون خِرِّيجيها بأنهم فئةٌ لا نَفْعَ فيها[2].

وفي هذه الأثناء أُسِّسَت حركة «تركيا الفتاة» (Jön Türkler) ـ تأثُّراً بأفكار العثمانيِّين الجدد عموماً، ومفهوم الحرية خصوصاً[3] ـ للمطالبة بعودة الدُّستور والحياة البرلمانية ومناهضة الاستبداد على حدِّ زعمهم، وهو ما أدَّى إلى ممارسة السياسة باعتبارها نشاطاً اجتماعيّاً في المحيط العثماني. وكانت نواةُ المُكوِّنات الحزبية السياسية الإداريِّين الذين أصبحوا خارج الخدمة في الدولة والذين يحملون فِكرَ التنظيمات التحديثيّ، ثم المُنحَدِرين من الطبقات الاجتماعية العليا، ومنهم بعضُ الأُمراء من السُّلالة الحاكمة، إلا أن النِّسبةَ

(١) انظر: «الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة» لماجدة مخلوف ص٢٨٠-٢٨١ باختصار.

(٢) انظر: «من مكتب إلى أوكول: التعليم والسلطة وجذور العلمانية في تركيا الحديثة»، خالد أبو هريرة، ص٢٢.

(3) Aslan, Taner, «Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma», s. 8.

CamScanner

الكبرى كانت من المُتعلّمين وخرّيجي المعاهد العلمية التي افتُتِحَت في مرحلة التنظيمات، إضافةً إلى أعداد من الضُّبّاط في المؤسَّسة العسكرية[١].

وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨م تمكّن المعارضون بعد تكثيف الضغوط على السلطان عبد الحميد الثاني، إلى اضطراره إلى إعلان «المشروطية الثانية»، وإعادة الحياة الدستورية وتفعيل مجلس المبعوثان، وكان انتصارُ هؤلاء «الدستوريّين» يعني فوزهم على الاتجاه الإسلاميّ المُحافِظ، والتطوُّرات اللاحقة تُؤكِّدُ ذلك[٢]. وعلى إثر هذا التغيير الذي سُمِّيَ بـ«الانقلاب الدُّستوريّ» أُطلِقَت الحياةُ السياسية في كافة أرجاء الولايات العثمانية، وسُمِحَ بإنشاء الأحزاب وإصدار الصُّحُف والمَجَلّات، ولكنَّ هذا الانقلاب شرَّعَ من جهة أخرى دَوْرَ العسكر في الحياة السياسية[٣].

وشاعت على إثر هذا التغيير بعضُ المفاهيم التي كانت تُتداوَلُ في عهد (التنظيمات) وأمثالها، ومن أبرزها مفهوم (الحرية) الذي أصبح شِعاراً سياسيّاً في هذه المرحلة[٤]، وكذا مفاهيم (المساواة) و(العدالة) و(الحقوق) و(المجلس)[٥] أي: البرلمان، ووجدت الأفكار المادّيةُ والوضعيّةُ مناخاً رَحْباً[٦]، ونَشِطَ عددٌ من الكُتّاب في بثِّ كثير من الأفكار ذات المصادر

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٦٨ باختصار.

(٢) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٢١٨.

(٣) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٧١.

(٤) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ٢: ٢٧٢.

(5) Aslan, Taner, ‹Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma›, s. 12.

(٦) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ٢: ٢٨٨.

CS CamScanner

الغربيـة، مـع ملاحظـة أنهم كانـوا يَنزِعون إلـى العبارات الضخمـة في الظاهر المُبهَمـة فـي الباطن، مـع الجدل العنيـف والمواقف الفَظّة تُجاه الآخرين[١]، ومن أبرزهم: عبد الله جودت (١٢٨٦-١٣٥١هـ=١٨٦٩-١٩٣٢م) وحسين حِلمـي (١٢٧٧-١٣٤٠هـ = ١٨٥٥-١٩٢٢م) وحسين جاهِـد (١٨٧٥-١٩٥٧م) وقِليـج زادَهْ حَقّـي (١٢٨٩-١٣٧٩هـ=١٨٧٢-١٩٦٠م)[٢]. واستمرَّ النقاش حول أشكال الحكم: المُطلَق أو المشروط (الدستوري) أو الجمهوري، وتوسَّع بحيث شَمِلَ أو كاد يَشمَلُ جميعَ الفئات، بمَنْ فيهم عديدٌ من المُحافِظين[٣].

وفـي المقابـل كان هنـاك نِضالٌ واسـع ضـدَّ هـذه الأفـكار، وردودٌ فِكريةٌ على عدد من الكتابات المذكورة[٤]، وأُسِّسَـت الجمعية العلمية الإسلامية في شـهر آب (أغسـطس) سـنة ١٩٠٨م، وتولّى رئاسـتَها الشـيخ مصطفى صبري (١٢٨٦-١٣٧٣هـ=١٨٦٩-١٩٥٤م)، وأصـدرت مجلّـةً بعنـوان «بيـان الحـق»[٥]. وأكَّـد كثيـر مـن المُحافِظيـن على قبـول عملية التحديـث إجمالاً، لكـن مـع ضـرورة المحافظـة علـى الهويـة العثمانية، والاسـتفادة مـن التراث الإسـلامي، والحـذر مـن معارضـة مبـادئ الأمـة الإسـلامية، ومـن هـؤلاء: بابـان زادَهْ أحمـد نعيـم (١٢٨٩-١٣٥٣هـ=١٨٧٢-١٩٣٤م)، ومحمـد

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ٢: ٢٩٠.

(2) Aslan, Taner, ‹Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma›, s. 10-11, 21-22.

(3) Aslan, Taner, ‹Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma›, s. 10-12.

(٤) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ٢: ٢٩١-٢٩٢.

(٥) انظر: «مصطفى صبري» للقوسي ص٨٧-٨٨.

CamScanner

عاكف (١٢٩٠-١٣٥٥هـ=١٨٧٣-١٩٣٦م)، وجلال نوري (١٣٠١-١٣٥٥=١٨٨٢-١٩٣٦م)، ومصطفى صبري، على تفاوتٍ بينهم في ذلك[1].

وكانت جمعيةُ الاتحاد والترقي مسيطرةً على غالبية أعضاء مجلس المبعوثان[2]، وتمَّ تشكيل حكومة حسين حِلمي باشا المعروف بصِلَتِه بالاتحاديِّين في ١٤ من شباط (فبراير) ١٩٠٩م، وحينها اشتَدَّ الصراع السياسي بين الاتحاديِّين ومعارضيهم في المجلس، وازداد سَخَطُ الناس عليهم وانفجَرَ غضبُ المُتديِّنين المحافظين، وطالبوا بتطبيق الشريعة كاملةً واستقالة الحكومة، فاستقالت حكومةُ حسين حلمي باشا بعد شهرين، وتولّى أحمد توفيق باشا (١٢٦١-١٣٥٥هـ = ١٨٤٥-١٩٣٦م) الصدارةَ العظمى في ١٣ من نيسان (إبريل) ١٩٠٩م مُعلِناً الالتزام بالشريعة والدستور جميعاً، وحينها تحرَّكَ ضُبّاط جيش الرُّومَلي المرابط في سلانيك، وجرى إعداد قوة خاصة باسم «جيش الحركة» لإخماد الثورة في إسطنبول، وتحرَّكَ هذا الجيش باتجاهها، ولـمّا وصل إلى مشارفها في ٢٢ من نيسان (إبريل) ١٩٠٩م أيَّدَ أعضاء المجلس من الاتحاديِّين التَّدخُّلَ العسكري، وبعد سيطرة جيش الحركة على الموقف عقَدَ هؤلاء الأعضاء اجتماعاً أطلقوا عليه «مجلسَ العموم الوطني»، وقرَّروا فيه عَزْلَ السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم ونفيَه وعائلتَه إلى سلانيك، وذلك في ٢٧ نيسان (إبريل) ١٩٠٩م[3]،

---

(1) Aslan, Taner, «Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma», s. 15-17.

(٢) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٢٨.

(٣) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٢٨-١٣٠.

وذلك كلُّه خلال عدّة أشهر من إعلان المشروطية الثانية.

كان مُناصِرو الانقلابِ الدُّستوري ثم عَزْلِ السلطان ينتمون إلى قوميّات وتيّارات متباينة، ولم تَطُلِ المدّة حتى ظهرت الاختلافات بينهم، وخصوصاً أن الحوادث المتسارعة في عاصمة الدولة أفضَتْ إلى وقوع السُّلطة في أيدي أصحاب النَّزْعة الطورانية التركية الذين أدَّتْ سياساتُهم إلى بروز النَّزَعاتِ القومية الأخرى: العربية والأرمنية والكُردية[1].

وفي السنوات التالية وقعت اضطرابات عديدة، ودخلت الدولةُ العثمانية الحربَ العالمية الأُولى، وخرجت منها بخسارة مريرة، ويُلخِّصُ شيخ الإسلام مصطفى صبري أحداث هذه السنوات التي سيطر فيها الاتحاديُّون على الحكم بقوله: «إنهم لم يقبلوا نصيحةً ولا شركةَ رأيٍ من أُمّةٍ أو خليفة، وأساؤوا المُعاشَرةَ مع أبناء الوطن، فأوقَدُوا نار الحرب في داخل المملكة وبين عناصرها من ألبانِها وشَرْكَسِها وعَرَبِها بل وأتراكِها، ثم إنهم كما أساؤوا وأفسدوا المُعاشَرةَ في الداخل أفسَدُوها أيضاً في الخارج، فبدَّلوا في عشر سنين أكثرَ من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول، حتى دخلوا الحرب الكبرى من غير ضرورة وغُلبوا فيها، إلى أن سَلَّموا الآستانة - وهي عاصمة الإمبراطورية - إلى عساكر الأعداء»[2].

وفي هذه الآونة نُظِمَت هذه القصيدة، ومِحوَرُها أحداث هذه السنوات من حكم الاتحاديِّين.

---

(١) انظر: «المسلمون والحداثة الأوروبية» لخالد زيادة ص٣٧١.

(٢) «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبري ص١٦٩.

٢. ٣. موقع قصيدة «حنين المتفجِّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية

كان سؤالُ التحديث في القرن الثامن عشر قد تحوَّل إلى صراع في القرن التاسع عشر، وانتهى إلى انتصار سياسيّ في مطلع القرن العشرين بما يُسمّى بـ«الانقلاب الدستوري» سنة ١٩٠٨م، وكانت السنواتُ القليلة التالية مليئةً سياسيّاً وعسكريّاً بالاضطرابات من جهة، وبالإخفاقات من جهة أخرى، وكان نظمُ هذه القصيدة أواخر سنة ١٩١٨م بعد خسارة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وقُبيل احتلال إسطنبول من قوات الحلفاء، على ما سبق تفصيله[1].

وتجولُ القصيدة في هذه السنوات العشر الأخيرة (١٩٠٨-١٩١٨م)، حيث افتُتِحَت في البيتَيْن الأوَّلَيْن بالكلام عن سقوط بعض البلاد من حكم الدولة (١٩١٧-١٩١٨م)، وفي البيت الثالث بالشكوى من بعض الاضطرابات الداخلية، ولا سيَّما الثورات القومية (١٩١٦-١٩١٧م)، ثم انتقلت في الأبيات (٤-٢٧) إلى الكلام عن المرحلة المذكورة بطولها، وهي استبدادُ الاتحاديِّين بحكم البلاد وتوغُّلُهم في ظلم العباد (١٩٠٩-١٩١٨م)، لتُخصِّصَ الأبياتُ الثلاثة بعدها (٢٩-٣٠) للكلام عن إدخالهم الدولةَ في الحرب العالمية الأولى تحالفاً مع الألمان (١٩١٤-١٩١٨م)، وتُخصِّصَ الثلاثةُ إثرَها (٣١-٣٣) لِـمَا فعلوه من التهوُّر بالجيش في معركة صاري قاميش (١٩١٤-١٩١٥م)، ثم عادت القصيدةُ في الأبيات (٣٤-٤١) إلى الكلام عن

---

(١) انظر: (٢. ١. تمهيد).

المرحلة بطولها (١٩٠٩-١٩١٨م)، وجاء الدعاء للسلطان وحيد الدين في البيت (٤٢) مُشعِراً بإعلان الولاء له وبيان أن ما اشتمَلَت عليه القصيدةُ من النقد اللاذع مُوجَّهٌ للاتحاديِّين المُتولِّين للحكومة، لا لنظام الدولة من أساسه، وخُصِّصَ البيت التالي (٤٣) إلى الكلام عن «حادثة ٣١ مارس» التي أسفَرَت عن خلع السلطان عبد الحميد (١٩٠٩م)، ثم عادت القصيدة في الأبيات (٤٤-٤٧) إلى الكلام عن المرحلة بطولها (١٩٠٩-١٩١٨م)، ثم رجعت أخيراً في الأبيات (٤٨-٥٢) إلى ما افتُتِحت به من سقوط بعض البلاد من حكم الدولة (١٩١٧-١٩١٨م)، متبوعةً بثلاثة أبيات ختامية (٥٣-٥٥).

وليس بخافٍ على مَنْ يُطالِعُ القصيدة موقفُ الكوثريّ من هؤلاء الاتحاديِّين، ذمّاً لأشخاصهم، وتقبيحاً لأفعالهم، وردّاً لآرائهم، وبياناً لفساد قراراتهم، وإعلاناً لرفض مشروعاتهم.

ومن المناسب أن نُبيِّنَ هنا مواقفَ أخرى من الخصومة والصِّدام بين الكوثريّ والاتحاديِّين، سواء ما كان سابقاً على نَظْم هذه القصيدة أو لاحقاً لها، فإن الوقوف على هذه الصورة يُعين على فَهْم القصيدة في سياقها التاريخيّ.

كان الكوثريُّ قد باشَرَ التدريس في معاهد الفاتح سنة ١٣٢٦هـ=١٩٠٨م في السنة التالية لتخرُّجه منها، كما سبق[١]، واستمرَّ عملُه فيها لسنوات، وفي تلك الأثناء كانت تقعُ بينه وبينهم خِلافات، تجلّى أولُ مظاهرها حول أحد التغييرات (الإصلاحات) في نظام التعليم في المدارس العثمانية، حيث أراد

---

(١) انظر: (١.١. تعريف موجز بالكوثري).

أصحابُ النظام الجديد إدخالَ العلوم الحديثة وتقصيرَ مُدّة الدراسة إلى ثماني سنوات، وعُقِدَ لترتيب ذلك وإقراره مَجمَعٌ (لجنة)، وكان الكوثريُّ أحدَ أعضائه، فرأى في هذا المشروع قضاءً على العلوم الدِّينية لِقِصَرِ مدّة الدراسة وكثرة العلوم، فما زال يحتالُ عليهم حتى جعل مدّةَ الدراسة اثنتَيْ عشرةَ سنةً، مسبوقةً بسنتين تحضيريَّـتَين، ومتبوعةً بثلاث سنوات للتخصُّص، فأصبح مجموعُ المدّة سبعَ عشرةَ سنةً على ضدِّ ما أراد الاتحاديُّون، وعاوَنَه في ذلك بعضُ الصُّلحاء من أعضاء اللجنة، فثارت حفيظةُ الاتحاديِّين من أعضاء اللجنة، وسَعَوا في عَزْلِ شيخ الإسلام في ذلك العهد محمد أسعد بن النُّعمان الأَخِسْخَويّ (١٨٤٧-١٩١٨م) وتعيين مصطفى خيري أفندي الأُرْكُوبي (١٨٦٧-١٩٢١م)، ومع ذلك فلم يَنَلِ الاتحاديُّون مُرادَهم، وصدر قانون الإصلاح مُحقِّقاً لرغبات المَجمَع، وبعدها بأشهر دخلت الدولةُ العثمانية في الحرب العالمية، واشتَدَّ استبدادُ الاتحاديِّين، فأشار عليه بعضُ أصدقائه منهم بأن وجوده في العاصمة أثناء الحرب قد يجعله عُرضةً للاضطهاد، فأخبره الكوثريُّ بأنه يودُّ القيام بافتتاح المعهد الفرعي الذي أنشأته الحكومةُ في مدينة قسطموني وسَطَ الأناضول، فصدر الأمر بنَقْلِه، وبقي هناك ثلاثَ سنوات، استقالَ عَقِبَها وعاد إلى إسطنبول(١).

والظاهر أن هذه القصة قد وقعت سنة ١٩١٤م، فقد كان عَزْلُ محمد أسعد أفندي عن مشيخة الإسلام في ١٥ من آذار سنة ١٩١٤م، وكان صدور قانون

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠.

إصلاح المدارس المذكور في أيلول سنة ١٩١٤م[١]، أما استقالةُ الكوثري من وظيفته في قسطموني وعودته إلى إسطنبول فقد كانت بعد الهدنة في الحرب العالميـة الأولـى أواخرَ سـنة ١٩١٨م[٢]، فيكون انتقالُه إلى قسـطموني أواخر سنة ١٩١٥م، وهو يوافق تقديرَنا وقوعَ القصّة المذكورة سنة ١٩١٤م.

وكان الصِّدامُ الثاني بينه وبينهم في قصّة ذكرها تلميذُه السَّيِّدُ أحمد خيري نقـلاً عنه، وحاصلهـا: أن الجامعة ـ والظاهر أن المقصـود دار الفنون ـ أرادت تعييـنَ أسـتاذ لتدريس الفقه وتاريخـه، وعقَدَت لذلك امتحانـاً، ووصل الخبر إليه متأخِّراً، فقدَّم طلب الدخول في الامتحان آخِرَ يوم، وأدّاه في اليوم التالي، وكان الأولَ في النجاح، ولكنَّ الاتحاديّين غاظهم هذا الأمر، فقام أحدُ نُوّابهم ـ وهو عارف فاضل أفندي[٣]، وكان زميلاً للشيخ في التدريس بمعاهد الفاتح ـ وطلـب مـن وزير المعارف حينها أحمد شـكري[٤] أن يُوقِفَ تعيينه، فلما علم

---

(١) وهـو مطبـوع باللغـة العثمانيـة بعنـوان «دار الخلافـة العلية مدرسـه سـي: نظامنامـه، درس جدولي، صورت تدريس وكتابلر، تعليماتنامه»، وورد تأريخه في آخره بـ(١٠ من ذي القعدة ١٣٣٢، ١٨ من أيلول ١٣٣٠)، والتاريخ الأول بالتقويم الهجري، والثاني بالتقويم الرُّوميّ، ويُقابِلُهما ٢ من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤م.

(٢) ويؤيِّده قول الكوثري في «مقالاته» ص٤٦٩: «كنتُ ذهبتُ إلى قسطموني في أثناء الحرب العامة لافتتاح مَعهَدٍ هناك».

(٣) وعنـد أحمـد خيري: فاضل عارف، وأرَّخ وفاته سـنة ١٣٤١هـ، وأظـن الصواب ما أثبتُّ، فإنـه المذكور في قوائم أسـماء النُّواب أعضاء مجلس المبعوثان فـي دوراته الثالثة والرابعة والخامسة، ابتداءً من أواخر سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨م.

(٤) وعند أحمد خيري: محمد شكري، والصواب ما أثبتُّ، وهو المعروف لاحقاً بأحمد شكري بايِنْدِر (١٨٧٥-١٩٢٦م)، وكان تولِّيه نظارةَ المعارف ابتداءً من ٢٣ من كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ إلى ١١ من كانون الأول (ديسمير) ١٩١٧م.

CamScanner

الكوثـريُّ بالأمر زار النائبَ المذكور وقال له: علمتُ من الصُّحُف نبأ تعييني، ولمّـا كنـتَ زميلـي في التدريس ومـن ذوي الجـاه الآن، فلا بـدَّ أن ذلك كان بمسـاعدتك، فاضطُرَّ عارف حينها إلى مجاراة الكوثري وقبول شـكره وإلغاء طلـب إيقاف تعيينه، ولمّـا رأى الاتحاديُّون أنْ لا منـاصَ من تعيين خَصْمِهم، اكتَفَـوا بانتـداب أحـد الأسـاتذة لهذه الوظيفة، ولـم يُعيِّنوا فيها أحـداً، حتى لا يتعرَّضـوا للنقد بتعييـن أحد أعوانهم وتخطّـي الناجح الأول، ويَتَفـادَوْا تعيينَ عدوِّهم فيها(١).

ونُرجِّـحُ أن هـذه القصة وقعت مـا بين سـنتَيْ (١٩١٤-١٩١٥م)، وذلك لأن الوزير أحمد شـكري تولّى المعارف فيما بين (١٩١٤-١٩١٧م)، ولأنها وقعت قبل إقامة الكوثري في قسطموني ـ كما صرَّح به أحمد خيري(٢) ـ التي كانت أواخر سنة ١٩١٥م كما سيأتي قريباً.

كان هـذان الموقفان أبـرزَ مواقفِ الصِّدام بينه وبيـن الاتحاديِّين قبل نَظْم هـذه القصيـدة سـنة ١٩١٨م، أما أبرزُهـا بعد ذلك فقـد كان صدامَه معهم أيام تولِّيه منصبَ وكيل شيخ الإسلام (وكيل الدرس)(٣)، وذلك أواخر شهر أيلول

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠-٤٣١.

(٢) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠.

(٣) لـمّا رجع الكوثري من قسطموني عُيِّن مُدرِّساً في دار الشفقة الإسلامية في إسطنبول أواخرَ سنة ١٩١٨م، وبعـد نحو شـهر عُيِّنَ مدرِّسـاً في معهـد التخصُّص، كما ذكـره أحمد خيري في «الإمام الكوثري» ص٤٣١، ومعهدُ التخصُّص هو المدرسـة السـليمانية الواقعة بجوار جامع السـلطان سليم، وقد بُنيت سنة ١٣٣٥هـ=١٩١٧م، وصدر قانون تأسيسها وتنظيمها بعنوان «دار الخلافة العلية مدرسه سي، مدرسة القضاة نظامنامه سي: درس بروغراملريله =

إصلاح المدارس المذكور في أيلول سنة ١٩١٤م[١]، أما استقالةُ الكوثري من وظيفته في قسطموني وعودته إلى إسطنبول فقد كانت بعد الهدنة في الحرب العالمية الأولى أواخرَ سنة ١٩١٨م[٢]، فيكون انتقالُه إلى قسطموني أواخر سنة ١٩١٥م، وهو يوافق تقديرَنا وقوعَ القصّة المذكورة سنة ١٩١٤م.

وكان الصِّدامُ الثاني بينه وبينهم في قصّة ذكرها تلميذُه السَّيِّدُ أحمد خيري نقلاً عنه، وحاصلها: أن الجامعة ـ والظاهر أن المقصود دار الفنون ـ أرادت تعيينَ أستاذ لتدريس الفقه وتاريخه، وعقَدَت لذلك امتحاناً، ووصل الخبر إليه متأخِّراً، فقدَّم طلب الدخول في الامتحان آخِرَ يوم، وأدّاه في اليوم التالي، وكان الأولَ في النجاح، ولكنَّ الاتحاديِّين غاظهم هذا الأمر، فقام أحدُ نُوّابهم ـ وهو عارف فاضل أفندي[٣]، وكان زميلاً للشيخ في التدريس بمعاهد الفاتح ـ وطلب من وزير المعارف حينها أحمد شكري[٤] أن يُوقِفَ تعيينه، فلما علم

---

(١) وهو مطبوع باللغة العثمانية بعنوان «دار الخلافة العلية مدرسه سي: نظامنامه، درس جدولي، صورت تدريس وكتابلر، تعليماتنامه»، وورد تأريخه في آخره بـ(١٠ من ذي القعدة ١٣٣٢، ١٨ من أيلول ١٣٣٠)، والتاريخ الأول بالتقويم الهجري، والثاني بالتقويم الرُّوميّ، ويُقابِلُهما ٢ من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤م.

(٢) ويؤيّده قول الكوثري في «مقالاته» ص٤٦٩: «كنتُ ذهبتُ إلى قسطموني في أثناء الحرب العامة لافتتاح مَعهَدٍ هناك».

(٣) وعند أحمد خيري: فاضل عارف، وأرَّخ وفاته سنة ١٣٤١هـ، وأظن الصواب ما أثبتُّ، فإنه المذكور في قوائم أسماء النُّواب أعضاء مجلس المبعوثان في دوراته الثالثة والرابعة والخامسة، ابتداءً من أواخر سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨م.

(٤) وعند أحمد خيري: محمد شكري، والصواب ما أثبتُّ، وهو المعروف لاحقاً بأحمد شكري بايِنْدِر (١٨٧٥–١٩٢٦م)، وكان تولّيه نظارةَ المعارف ابتداءً من ٢٣ من كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ إلى ١١ من كانون الأول (ديسمير) ١٩١٧م.

CamScanner

الكوثـريُّ بالأمر زار النائبَ المذكور وقال له: علمتُ من الصُّحُف نبأ تعييني، ولمّـا كنـتَ زميلـي في التدريس ومـن ذوي الجـاه الآن، فلا بـدَّ أن ذلك كان بمسـاعدتك، فاضطُرَّ عارف حينها إلى مجاراة الكوثري وقبول شـكره وإلغاء طلـب إيقاف تعيينه، ولمّـا رأى الاتحاديُّون أنْ لا منـاصَ من تعيين خَصْمِهم، اكتَفَـوا بانتـداب أحـد الأسـاتذة لهذه الوظيفة، ولـم يُعيِّنوا فيها أحـداً، حتى لا يتعرَّضـوا للنقد بتعييـن أحد أعوانهم وتخطِّـي الناجح الأول، ويَتَفـادَوْا تعيينَ عدوِّهم فيها[١].

ونُرجِّـحُ أن هـذه القصة وقعت مـا بين سـنتَيْ (١٩١٤-١٩١٥م)، وذلك لأن الوزير أحمد شـكري تولّى المعارف فيما بين (١٩١٤-١٩١٧م)، ولأنها وقعت قبل إقامة الكوثري في قسطموني ـ كما صرَّح به أحمد خيري[٢] ـ التي كانت أواخر سنة ١٩١٥م كما سيأتي قريباً.

كان هـذان الموقفان أبـرزَ مواقفِ الصِّدام بينه وبيـن الاتحاديِّين قبل نَظْم هـذه القصيـدة سـنة ١٩١٨م، أما أبرزُهـا بعد ذلك فقـد كان صدامَه معهم أيام تولِّيه منصبَ وكيل شيخ الإسلام (وكيل الدرس)[٣]، وذلك أواخر شهر أيلول

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠-٤٣١.
(٢) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٠.
(٣) لـمّا رجع الكوثري من قسطموني عُيِّن مُدرِّساً في دار الشفقة الإسلامية في إسطنبول أواخرَ سنة ١٩١٨م، وبعـد نحو شـهر عُيِّنَ مدرِّساً في معهـد التخصُّص، كما ذكـره أحمد خيري في «الإمام الكوثري» ص٤٣١، ومعهدُ التخصُّص هو المدرسـة السـليمانية الواقعة بجوار جامع السـلطان سليم، وقد بُنيت سنة ١٣٣٥هـ=١٩١٧م، وصدر قانون تأسيسها وتنظيمها بعنوان «دار الخلافة العلية مدرسه سي، مدرسة القضاة نظامنامه سي: درس بروغراملريله =

(سبتمبر) أو أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٠م[1]، حيثُ أرادت لجنةُ مساعدة منكوبي الحرائق هدمَ المدرسة التي أنشأها السلطان مصطفى الثالث (١١٢٩-١١٨٧هـ=١٧١٧-١٧٧٤م) المشهور باسم «لالَهْ لي»، لتبنيَ عليها داراً لإسعاف المنكوبين تكون مأوى لهم، وكانت اللجنة برئاسة السلطان محمد وحيد الدين شرفيّاً (فخريّاً)، ورئاسة أحمد توفيق باشا فعليّاً، فعارضهم الأستاذُ في هدمها، وطلب من شيخ الإسلام آنذاك محمد نوري أفندي أن يعارض، فلم يفعل، فبادَرَ الكوثريُّ إلى رَفْع دعوى لدى المحكمة لمنع هَدْم المدرسة، لأنها مستكملةٌ شرائطها ولا يجوز هدمُها إلا بحُكم، ووكَّل عنه مُحامِيَين، ورفعها أمام أحد القضاة المُطَربَشين (لابسي الطربوش)، لعدم ثقته بالمُعمَّمين حينها، وفي أثناء سَيْر الدعوة ولي أحمد توفيق باشا منصب الصدر الأعظم، وحاولت اللجنةُ ثنيَ الكوثريّ عما يريد، فلم يوافقهم، فاحتَجُّوا بأن صاحب الحق في رَفْع الدعوة هو شيخ الإسلام، فأخرج لهم نصّاً

= قادروسي ومدارس قانوني ونظامنامه سي»، وورد اسم الكوثري فيه ص١٠: دوزجه لي محمد زاهد، وبجانبه اسمُ درسه: طبقات قراء ومفسِّرين - وبناء هذه المدرسة يُستَعمَلُ اليوم لـ«ثانوية ياووز سليم المهنية للبنات» - وإبّان عمله هذا انتُخِبَ عضواً في مجلس وكالة الدرس ممثِّلاً عن معهد التخصُّص، ثم اختاره شيخ الإسلام مصطفى صبري رئيساً لمجلس وكالة الدرس، أي: وكيل شيخ الإسلام (وكيل الدرس)، وقد تولّى مصطفى صبري أفندي مشيخة الإسلام مرتين: الأولى بين (٤/٣/١٩١٩-١/١٠/١٩١٩م)، والثانية بين (٣١/٧/١٩٢٠-٢٥/٩/١٩٢٠م)، ثم تولّاها محمد نوري أفندي إلى سنة ١٩٢٢م، وفي أيامه وقع له الصّدام المذكور.

(١) وقدّرتُ هذا التاريخ نظراً إلى أن الواقعة المذكورة - كما سيأتي في تفاصيلها - كانت في عهد تولي محمد نور أفندي المشيخة، وذلك بعد ٢٥/ ٩/ ١٩٢٠، وقبل تولي أحمد توفيق باشا الصدارة العظمى، وقد تولّاها في ٢١/ ١٠/ ١٩٢٠م.

CamScanner

بأن المدرسة تابعة لوكيل الدرس، فلم يروا بُدّاً من عَزْلِه وتعيين سواه، غير أنه بقي عضواً في مجلس وكالة الدرس الذي كان رئيسه، فذهب إلى مَنْ خلَفَه وقال له: إن سكتَّ فبها ونعمَت، وإن لم تسكت وتنازلتَ عن الدعوة بعَزْلِ المُحامِيِين، فثِقْ بأني مُهاجِمُك، فقال له: أنا أسكتُ، والدعوى تأخذُ سَيْرَها. ثم انقلبت الأمور، وغادر الكوثريُّ إسطنبول إلى مصر، وهُدِمَت المدرسةُ بعد ذلك فعلاً، وبُني مكانها بناءٌ لإدارة الهلال الأحمر[١].

وكانت مغادرةُ الكوثريّ إسطنبول مهاجراً إلى القاهرة هي الصفحةَ الأخيرة من الصّدام بين الفريقين، حيث أخبره بعض المُخلِصين أواخر سنة ١٩٢٢م[٢] أن هناك مؤامرةً لاعتقاله، فخرج من السُّوق إلى الميناء، واستَقَلَّ باخرةً إلى الإسكندرية[٣].

---

(١) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٧.

(٢) وكان وصوله الإسكندرية في ٣ من كانون الأول (ديسمبر)، فيكون خروجه قبلها بأيام، وهذا يعني أن خروجه كان بعد نحو شهر من إلغاء السلطنة العثمانية في ١ من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢م على يد حكومة أنقرة ـ وهو ما يُسمّى في التاريخ التركي المعاصر بـ«الانقلاب»، ويُسمِّيه الكوثري في كتابه «الاستبصار» ص٣ بـ«الانقلاب العنيف» ـ وبعد أيام قليلة نُفي السلطان وحيد الدين في ٢٣ من تشرين الثاني (نوفمبر) من إسطنبول إلى مالطا، وعُيِّن أخوه عبد المجيد أفندي خليفةً لا سلطاناً، حيث كان الحكم السياسي بيد حكومة أنقرة، لتُلغى الخلافة نفسها في ٣ من آذار (مارس) سنة ١٩٢٤م ويُطرَد عبد المجيد أفندي والعائلة العثمانية خارج البلاد. وفي أواخر تلك السنة نفسها ـ أعني: سنة ١٩٢٢م ـ غادر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي إسطنبول إلى القاهرة أيضاً.

(٣) انظر: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٣٨.

CamScanner

(٣)

قصيدة «حنين المتفجع»

قراءة تحليلية

CamScanner

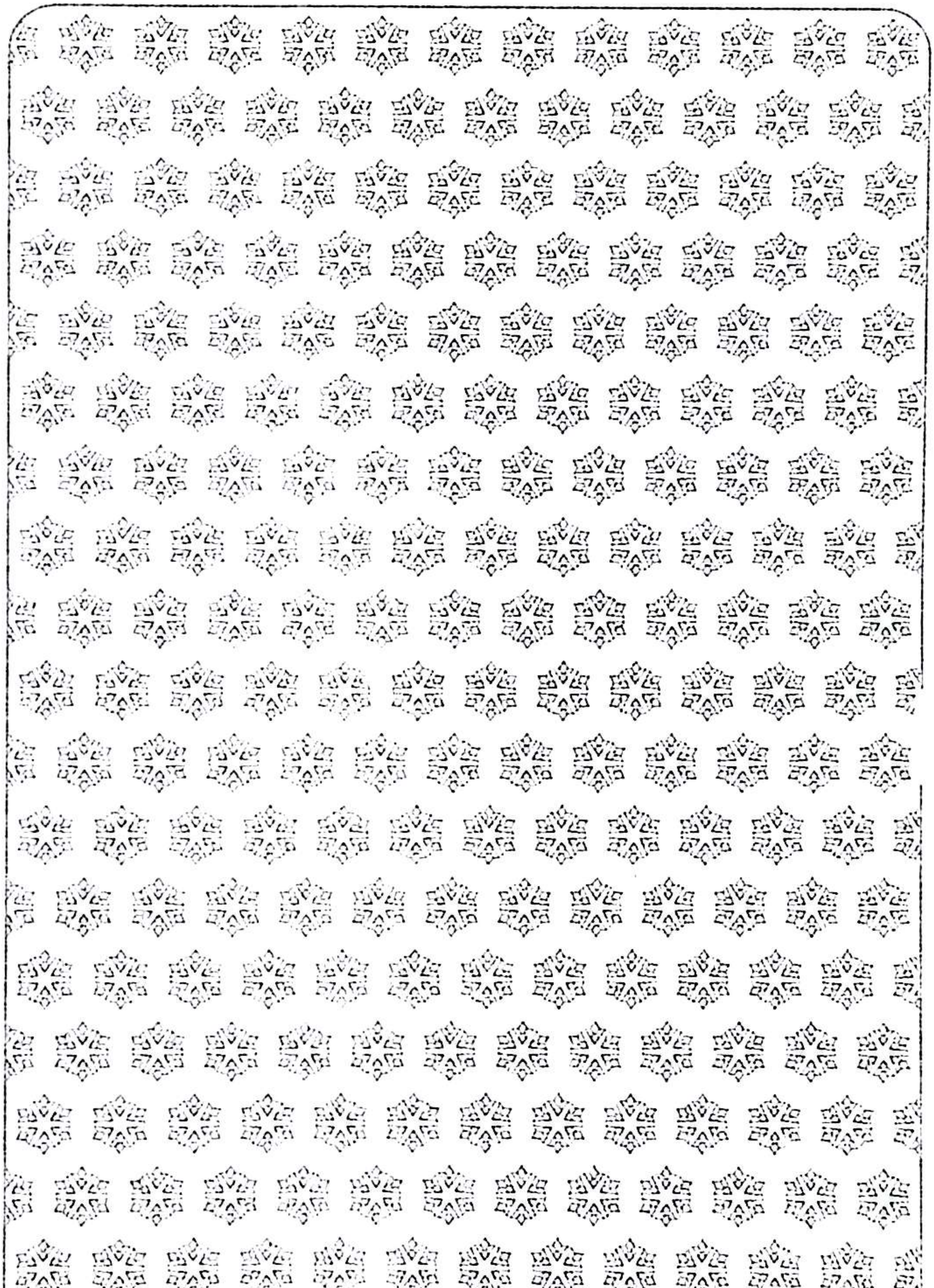

«حنينُ المتفجِّع» قصيدةٌ لامية القافية من البحر البسيط، عددُ أبياتها خمسةٌ وخمسون بيتاً، افتتَحَها بقوله: «ضاعت بلادٌ لنا والجيشُ مفلولُ»، وختمها بما يُعيدُ السامع إلى مطلعها بقوله:

فمـا اعتَدى زاهِدٌ في القَولِ يُنشِدُهُم ... ضـاعَتْ بلادٌ لنا والجيـشُ مَفلُـولُ

ولم يفتتحها ـ بعد البسـملة ـ بحمد الله والصلاة والسـلام على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، خلافاً لصنيعه في منظومته «النظم العتيد لتوسُّل المُريد»، حيث افتتحها بقوله:

حَـمْداً لِـمَن أبدَعَ الأكوانَ من عَدَمِ ... هـو الغَـفُـورُ لعَـبْـدٍ عـادَ بالـنَّـدَمِ

ثم الصَّلاةُ على مُـبْـدي طـرائـقِنـا ... محمَّدٍ شمسُ رُشْـدٍ ضاء في الظُّـلَمِ

كذا على الآلِ والأصحـابِ قاطِبـةً ... همُ النُّجومُ فنَستَهدي بـهَدْيِـهِمِ(١)

والفـرقُ أن «النظـم العتيد» منظومة علمية تُعدُّ من باب الرسـائل والكتب والمُصنَّفات، والابتداءُ فيها بالحمد والصلاة مَسلَكٌ مُتوارَث، بخلاف ما نحن فيه؛ إذ لم تجرِ العادةُ بافتتاح القصائد بهما، ولو كانت ذاتَ جوانبَ علمية، كما فـي «البـردة» للبوصيريّ رحمه الله تعالى مثلاً، على أن عدمَ ذكرهما في أبيات القصيدة صريحاً لا يُنافي تلفُّظَ الناظم بهما حين الابتداء.

والمِحوَرُ الرئيس للقصيدة هو معارضتُه الاتحاديِّين مع ذمِّه لهم وتقبيحه

(١) انظر: «إرغام المريد» للكوثري ص٧، ١٣، ١٦.

لأفعالهم، وقد شغل هذا المِحوَرُ ٣٦ بيتاً منها، وهي الأبيات (٤-٢٧، ٣٤-٤١، ٤٤-٤٧)، وجاء دعاؤه للسلطان وحيد الدين في هذا السياق في بيت واحد منها، وهو البيت (٤٢)، وكان مَدخَلُه إلى هذا المِحوَر ومخرجُه منه هو الحديثَ عن وقوع بعض البلاد الإسلامية تحت الاحتلال وخروجها من سلطة الدولة العثمانية، فمدخلُه في ثلاثة أبيات في أول القصيدة، وهي الأبيات (١-٣)، ومخرجُه في خمسة أبيات في أواخر القصيدة، وهي الأبيات (٤٨-٥٢)، وخصَّ في هذا السِّياق ثلاثَ حوادثَ تاريخية كبرى بالذِّكر، لتكون كالشاهد على ما ذكره في المِحوَر الرئيس، وهي: الحرب العالمية الأولى الواقعة ما بين سنتَيْ ١٩١٤-١٩١٨م، حيث ذكرها في البيتين (٢٩-٣٠)، ومعركة صاري قاميش الواقعة أواخرَ سنة ١٩١٤م وأوائل سنة ١٩١٥م، حيث أشار إليها في البيتين (٣١-٣٣)، وحادثة (٣١ مارس) الواقعة سنة ١٩٠٩م التي أسفَرَت عن خَلْع السلطان عبد الحميد، حيث أشار إليها في البيت (٤٣). وكانت الأبيات الثلاثة الأخيرة (٥٣-٥٥) ختاماً للقصيدة.

والقصيدةُ جاريةٌ على قواعد النحو والصرف من غير ارتكاب مخالفةٍ لضرورة الوزن، إلا في مواضع يسيرة جرى فيها الكوثريّ على إحدى لغات العرب أو على رأي نحويٍّ مخالف للمشهور أو نحو ذلك، لضرورةٍ في بعضها ولغير ضرورة في أخرى، وهي:

- قولُه في البيت السابع: «ما اليوم أنت عن المنجاة مكتولُ»، فعَدَلَ عن «ما» الحجازية العاملة عمَلَ «ليس» إلى «ما» التميمية، ليستقيم له رفعُ «مكتولُ» ليناسب القافية.

ـ وقولُـه فـي البيت الخمسـين: «وما الصلاح لنا في الكـون مأمولُ»، وهو كسابقه.

ـ وقولـه فـي البيت الثاني والثلاثين: «وإنْ رأوا مِن حشـيشٍ فهو مأكولُ»، وزيادةُ «من» في سياق الشرط يجوزُ عند بعض النُّحاة.

ـ وقولُـه فـي البيت التاسـع والثلاثين: «فكلٌّ عن جنايته يوماً لَـمَسؤولُ»، فاللام زائدة للتأكيد، وليست لام الابتداء المؤكِّدة، لأنها لا تدخل على الخبر، واحتاج إليها ليستقيم الوزن.

ـ وقولُـه فـي البيت الرابـع والأربعين: «كـم بُندُقاً أطلقوا علـى جوامعنا»، ونصـبُ تمييـز «كم» الخبرية لغـةٌ قليلة لبعض العرب، ولا ضـرورةَ في ذلك، فالوزنُ يسـتقيمُ على الجرِّ أيضاً، ويحتمل أن تكون «كم» اسـتفهامية، كما بيَّنتُه في موضعه، فلا يكون فيه إشكال أصلاً.

ـ وقولـه في البيت التاسـع: «بالدِّين والعِرض والأوطـان كم لعبوا»، وفي البيت الرابع والثلاثين: «في الخدر كم هتكوا ...»، وتقديمُ «بالدِّين ...» و«في الخدر» على «كم» التي لها الصَّدارةُ لضرورة الوزن.

أما **الجانبُ البلاغيُّ** في القصيدة المذكورة فواسعٌ مستفيض، ونذكر أمثلةً بارزةً منه تكون نماذجَ لأمثالها:

فممَّـا يتعلَّقُ بعلم المعاني: استعمالُه الاستفهام لمعانٍ غير معناه الأصلي، كالتعجُّب في قوله في البيت الثالث: «فما لسيفهم بالبغي مسلولُ؟»، والتعجُّب والتوبيخ في قوله في البيت الثاني والخمسين: «هل رأى قوم ضرائبهم شـؤماً

ولؤماً؟»، والتحسُّر في قوله في البيت الحادي والخمسين: «أين العراق ويثرب ...؟»، والتقرير في قوله في البيت الثلاثين: «هل لإعلاء دين الله حالَفَنا الألمانُ أم لهم في البغي تطفيلُ؟»، والإنكار في قوله في البيت الثاني: «فمَنْ مِثلُنا بالرُّزء مشمولُ؟»، وفي قوله في البيت الرابع والخمسين: «أذاك اليوم مجهولُ؟».

ومنه: تقديمُه ما حقُّه التأخير؛ إما للاهتمام كتقديم «اليوم» في البيت السابع وتقديم «بِرَدَى الأقوام» في البيت السادس والعشرين، وإما للحَصْر كتقديم «بقول العِلج» في البيت الخامس عشر، وإما للتفظيع والإنكار كتقديم «بالدِّين والعِرض والأوطان» في البيت التاسع وتقديم «في الخِدر» في البيت الرابع والثلاثين وتقديم «للمسلمات» في البيت الخامس والثلاثين، أو للتفظيع وبيان محلّ التهديد كتقديم «عن جنايته» في البيت التاسع والثلاثين، على ما بُيِّن ذلك كلُّه في مواضعه من الشرح.

ومنه: استعمالُ الجملة الفعلية في الكلام عن أفعال الاتحاديِّين للدلالة على تجدُّدها وحدوثها مرّةً بعد أخرى، واستعمالُ الجملة الاسمية في الكلام عمّا يقابلُها من أحوالِ الناس أو انفعالِهم بتلك الأفعال للدلالة على دوام هذه الانفعالات وثبوت تلك الأحوال، وقد تكرَّر منه هذا الاستعمال في مواضع عديدة من القصيدة، في الأبيات: الأول، والتاسع، والثالث عشر، والتاسع والعشرين، والثالث والأربعين، والثامن والأربعين. وقد نبَّهتُ عليه في الشرح في موضعين، وهما: البيت التاسع والبيت الثالث عشر، ويُعرَفُ سائرها بالقياس عليهما مع هذا التنبيه عليها هنا.

CamScanner

ومنه: تأكيدُه أسلوبَ الذمّ؛ بحَذْفِه المبتدأ (المُسنَد إليه) كما في البيت العاشر، وبسلوكِهِ ما يُشبِهُ المدح كما في البيت الثالث والعشرين، واستعمالِهِ جمعَ القلّة والتصغير في حقّ مَنْ يذمُّهم، والتكثير في حقّ مَنْ يُقابِلُهم، كما في البيت الثامن. ويَقرُب منه: تأكيدُه الأسى بتعبيره في الطرف المذموم باسم الجمع للتكثير، وفي مقابله بالمُفرَد للتقليل، كما في البيت الثاني عشر.

ومنه: سلوكُه طريقَ الإطناب في مواضع، كعطف الخاصّ على العام في البيت الثاني عشر ـ على أحد الوجهين في شرحه ـ، وطريقَ الإيجاز في مواضع، كاستعماله الاحتباك في البيت السابع عشر.

ومما يتعلَّق بعلم البيان: استعمالُه أسلوبَ التشبيه البليغ في قوله في البيت الثالث: «المسلمون بنو العَلّات»، وأصله: المسلمون كبني العَلّات، وأسلوبَ الاستعارة التصريحية في قوله في البيت الثامن: «قضى أُغيلمة على البلاد وأهليها» وقوله في البيت الثاني عشر: «لكلِّ ناهقِ زيغٍ بيننا تَبَعٌ»، وقوله في البيت الأربعين: «بل كلُّ حَلْيِ رسول الله مسلولُ»، والاستعارة المَكْنية في قوله في البيت الرابع عشر: «الشرع الأغرّ» وقوله في البيت الحادي والخمسين: «وكم بلدٍ زاهٍ إلى حَلَبٍ منا مناسيلُ»، وأسلوبَ المجاز المُرسَل في قوله في البيت السابع والثلاثين: «وحَبْلُهم لخِناقِ الخلق مفتولُ» ـ وكذا في قوله في البيت الخامس والأربعين: «أين العمائم؟ أم أين اللِّحى؟» على أحد الوجهين اللذين ذكرتُهما في شرحه ـ وأسلوبَ الكناية أو المجاز المُرسَل في قوله في البيت الرابع عشر: «فلا جرحٌ ولا تعديلُ»، على ما بُيِّن ذلك كلُّه في مواضعه من الشرح.

ومما يتعلَّقُ بعلم البديع: استعمالُه عدّةَ محسّنات لفظية ومعنوية، فاللفظيةُ كالجناس في البيت الثامن والعشرين، والتلميح في البيت السابع والأربعين. والمعنويةُ كالتورية في البيت الثاني والأربعين وفي البيت الخمسين، والتوجيه في البيت الثامن والعشرين.

ومنه: حُسْن التخلُّص من موضوع إلى آخرَ كما في البيت الرابع والثلاثين والبيت السابع والأربعين، وحُسْن الخِتام كما في البيت الخامس والخمسين، وهو آخر أبيات القصيدة.

CamScanner

(٤)

إضاءة على
شخصية الكوثري الفكرية
وحضورها في قضايا الأمة الإسلامية

CamScanner

CamScanner

جعل الكوثريُّ حياتَه وَقْفاً على العلم، فلم يُـرَ إلا في حلقات العلم والتعليم خاصّةً[١] كانت أو عامةً[٢]، أو مجالس التوجيه والمَشُورة رسميّةً[٣] كانت أو شخصيّةً[٤]، أو دور الكتب وخزائن المخطوطات[٥] ....

(١) كمجلسه في قراءة «الموطأ» على الشيخ يوسف الدِّجوي، المذكور في «مقالات الكوثري» ص٣٧٢، و«النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين» للدكتور محمد رجب البيومي ٢: ٤٩٩. وكانت له مجالسُ خاصّةٌ مع تلامذته، كمجالسِه مع تلميذه السَّيِّد أحمد خيري المذكورِ طرفٌ من أخبارها في «الإمام الكوثري» ص٤٦٠-٤٦١، ومجالسِه مع تلميذه الأستاذ عبد الفتاح أبو غدّة ـ وقد ذكرها في بعض دروسه ـ وغيرها.

(٢) كمجلسِه العلميّ بعد صلاة الجمعة بمسجد محمد أبي الذهب المقابل للأزهر الشريف. انظر: «النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين» للدكتور محمد رجب البيومي ٢: ٤٩٤.

(٣) انظر: «يوميات عالم، يوميات العلامة أحمد شاكر» ص١٣٥-١٣٦، حيثُ ذكر اجتماعاً علميّاً شارك فيه في إدارة الأزهر، وذكر من بين المشاركين فيه: شيخ الأزهر حينها الشيخ مأمونًا الشِّنّاوي، ووكيله الشيخ عبد الرحمن حسن، والكوثري.

(٤) يذكر الأستاذ علي عُلوي قوروجو في «ذكرياته» زيارات الكوثري للطلبة الوافدين من تركيا إلى مصر للدراسة في الأزهر، وما كان يجري في هذه المجالس من توجيهات علمية وإرشادات سلوكية ونحوهما. انظر:

M. Ertuğrul Düzdağ, Üsatd Ali Ulvi Kurucu Hatıralar, 2: 165-166.

وقد ترجَمَ الأخ الفاضل الدكتور إياد عمار القسمَ الخاصَّ بالشيخين مصطفى صبري وزاهد الكوثري من هذه الذكريات واعتنى بها، وطُبعت بعنوان «في صحبة الشيخين»، ويُنظَر منه: ص٢٨٦، ٢٩٩-٣٠٠.

(٥) وهذا كثير، وحياة الكوثري مليئة به.

CamScanner

وأسواق المطبوعات[١]، وبرزت شخصيّتُه في مُختَلِفِ بقاع العالم الإسلاميّ في الجوانب العلمية، ومع ذلك فلم يُغفِل الكوثريُّ أن يكون لشخصيته حضورٌ في قضايا الأمة الفِكرية وشعورٌ بهُمومها وغُمومها، اتباعاً منه لِمَا يُوجِبُه الشرعُ على أهل العلم من إرشادِ الناس ونُصحِهم في مثل هذه القضايا، فهو جانبٌ فِكريّ ليس بمَعزِلٍ عن الجوانب العلمية بالكُلّية.

٤ . ١ . موقفه من الخلافة الإسلامية

لم يُغادِر الكوثريّ قصيدتَه «حنين المتفجِّع» التي نقَدَ فيها حكومةَ الاتحاد والترقّي نَقْداً لاذعاً من غير إعلان ولائه للسُّلطان وحيد الدين في قوله في البيت الثاني والأربعين منها: «والله أيّدَ مولانا الوحيد»، ليُبيِّنَ أنه منقادٌ للخلافة الإسلامية المُمثَّلة حينها في الدولة العثمانية، ويوضح أنه إنما يُوجِّهُ نَقْدَه لهؤلاء المُتسوِّرين على هذه الدولة بأفكارهم الحديثة ومشاريعهم الحداثية.

وصرَّح الكوثريّ في مقالته التي سمّاها «حكم محاولة فَصْل الدين عن الدولة» بموقفه الرافض لإسقاط الخلافة بقوله: «استمرَّت الخلافةُ قائمةً مدى الدُّهور إلى أن أزالَتها من الوجود يدٌ أثيمةٌ استَخَفَّت الأقوام فأطاعوها، إلى أن أصبحت الدُّويلاتُ الإسلامية تتسابق في خَطْبِ وُدِّ جياع المُستَعمِرين، مُترشِّمين لخطاهم في الحكم من غير تعزُّز ولا تقزُّز، غيرَ حاسبين حساب العِزّة الإسلامية، فشَمِلَ الذُّلُّ والإلحاد». ثم نبَّه على لَفْتة فقهية لطيفة تنطوي

(١) انظر مثلاً: «الإمام الكوثري» لأحمد خيري ص٤٤٣، ويمكن الوقوف على جوانب من علاقاته بالكُتُبيِّين من مواضع من «مقالاته» كمقالته عن السَّيِّد محمد أمين الخانجي ص٣٧٤-٣٧٦، ومن مواضع من «مقدّماته».

على أُفُقٍ واسع، وبُعدِ نَظَرٍ شاسع، فقال: «واشتراطُ أبي حنيفة إذنَ أمير المؤمنين في صِحّةِ صلاة الجمعة ـ على تَوارُثِ العمل بذلك ـ مُستَنِدٌ إلى سياسة شرعية عالية، وهي تأثيمُ الأمة إذا مَضَت عليهم مُدّةُ جمعة من غير بَيْعة لخليفة يتولّى الأمرَ بعد وفاة خليفة، حذراً من سيادة الفوضى واستفحال الفتن عندما يخلو مقام الخلافة عمَّن يتولّى بجدارةٍ تُنقِذُ الموقف، فإذا لم يُبادروا إلى ذلك يجدُ كلُّ ناعق مَنْ يُتابِعُه، فيَنخَرِمُ النظام ويَعُمُّ الخلل ويشمل الذُّلّ، فيهلك الحرثُ والنَّسْل»(١).

وفي إحدى مقالاته عن الهجرة النبوية وجد الكوثريُّ الفرصةَ سانحةً والمقامَ مواتياً للتذكير بالخلافة وأهميتها ووجوبها، فقال: «وأجلى ما يتراءى للناظر من المعاني السامية في الهجرة هو تعزيز الحقِّ بالقوة، لأن الحقَّ كثيراً ما يكون عُرضةً للضياع إزاءَ اعتداء المُعتَدِين إذا لم تكن هناك قوّةٌ تحميه وتَذُبُّ عنه، ولهذا المعنى شُرِعَت الخلافة في الشرع الإسلاميّ، حتى تُنفِذَ أحكام الشرع في الأبواب كلِّها بمَنَعةٍ تقوم بكَبْح جِماح الطُّغاة الغُواة. بل رأى الصحابةُ رضوان الله عليهم أجمعين الفراغَ من بَيْعةِ الخلافة مُقدَّماً على تجهيزِ النبيِّ صلواتُ الله عليه ودَفْنِه عند لحوقه بالرفيق الأعلى، ليتولّى خليفتُه الإشرافَ على شؤون الأُمة عَقِبَ وفاته عليه السلام، حذراً من حدوث أمر يُحوِجُ إلى القوة أثناء الفترة، بل عَدُّوا الساعين في تفريق شؤون الدِّين من شؤون الدنيا بمنع الزكاة في سبيل المُرتَدِّين بسَعْيِهم في تجريد الخلافة من

(١) «مقالات الكوثري» ص٢٨٠.

القوة، بل الخلافة هي أوّلُ تشريع عرَفَه البشرُ المدنيُّ بالطبع في تاريخه ...»[١] إلى آخر كلامه.

وسيأتي في المطلب التالي مزيدُ بيانٍ في هذه القضية، كما سيأتي في بيان موقفه من جامعة الدول العربية[٢] أنه كان يَعقِدُ آمالاً عليها في إحياء الخلافة الإسلامية.

٤. ٢. موقفه من العَلْمانية

نشر الكوثريُّ مقالاً بعنوان «حكم محاولة فَصْل الدين عن الدولة»، وهو في أصله جوابٌ عن استفتاء ورد إليه من بعض العلماء في حلب عمَّن يُطالِبُ بإبعاد النَّصِّ على أن «دين الدولة الرسميّ هو الإسلام» عن دستور بعض البلاد الإسلامية، إحلالاً للأحكام الوضعية اللادينية محلَّ أحكام شرع الله، فذكر الكوثري في جوابه: أن «الساكت من أهل الشأن عن تأييد الحق في مثل تلك الكارثة فإنما هو شيطان أخرس»[٣]، مبيِّناً أن «مبدأ هذا الفساد المُتسرِّب إلى الجماعة زوالُ الخلافة من الوجود، من غير اهتمام بإحيائها من جديد»[٤].

وأفرد الكوثريُّ عدّةَ مقالات للتنويه بوجوب تحكيم الشريعة والتحذير من الانسياق ـ بعِلم أو دون عِلم ـ في مُخطَّطات إبعادها عن ميادين الحياة وأروقة الحكم، منها مقالتُه «شرع الله في نظر المسلمين»[٥] و«هل لغير الله حقٌّ

---

(١) انظر: «مقالات الكوثري» ص٣٢٠-٣٢١.

(٢) انظر: (٤. ٥. موقفه من جامعة الدول العربية).

(٣) «مقالات الكوثري» ص٢٧٩. (٤) «مقالات الكوثري» ص٢٧٩-٢٨٠.

(٥) انظر: «مقالات الكوثري» ص٧٩-٨٣.

CS CamScanner

فـي الإيجاب والتحريم؟»[١] و«نظر المرء إلى شـرع الله معيـار لدينه»[٢] و«أثر العُرف والمصلحة في الأحكام»[٣]، وهذه المقالاتُ تُجلّي موقفه بوضوح في هذه القضية، ولسنا بحاجة إلى سَوْق نصوص تفصيلية من كلامه فيها؛ لأن رأيه جليٌّ بيّـن فيها، فـإن كان ولا بُدَّ فنقتصر على نَقْل قوله: «الدول الإسـلامية لم تَسعَد دولةٌ منها إلا بمقدار تمسُّكها بأهداب الشرع، ولا شَقِيَت إلا بنسبة ابتعادها عن أحكام الشرع، ولنا ألفُ دليل ودليل على ذلك من التاريخ الإسلامي»[٤]، وقوله: «ليس من شكٍّ أن شرع الله نافذُ الأحكام عند كلِّ مسلم، بدون أن يحتاج إلى تصديق أيِّ مجلس، وإنما المحتاج إلى تصديق مجالس الشورى في نَفَاذِ أحكامـه هو القوانين الوَضْعية، فبمُجرَّد تصديق البرلمانات على الاقتراحات الوضعية تكون نافذةَ الأحكام لا تَسُـوغُ مخالفتُها في نَظَرِ دسـاتير الدول، لكن التصديق المذكور لا يجعل ما ليس من شـرع الله: من شـرع الله، ولا ما هو من شرع الله: ليس من شرع الله، فيبقى الشرعُ شرعاً والقانونُ قانوناً، بعد استكمال أدوار التقنين»[٥].

لكنّ الذي ينبغي إبرازُه من كلام الكوثريّ هو إدراكُه العميق لأمور أخذت حيِّـزاً واسـعاً مـن النقـاش في الشـطر الأول من القرن العشـرين ـ ومـا زالت ـ وتداوَلَتْهـا النُّخَـب الاجتماعية من العلماء والمُثقَّفين والساسـة بحثاً ونقاشـاً، سـواء فـي المحاضرات والنـدوات أو في الصُّحُف والمَجَـلّات، أو في بعض

(١) انظر: «مقالات الكوثري» ص٩٠-٩٢.
(٢) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٩١-١٩٦.
(٣) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٩٦-١٩٩.
(٤) «مقالات الكوثري» ص٨٠. (٥) «مقالات الكوثري» ص٣٩٢.

CamScanner

الرسائل والمُصنَّفات، فقد كان يُدرِك أن هذه الأبحاث والنقاشات التي تُطرَح بمُسمَّياتٍ علمية أو دَعَواتٍ إصلاحية أو مقاصدَ تجديدية ما هي إلا مُقدِّماتٌ في مشروع العَلْمنة، وإن خَفِيَ ذلك على كثير من الخائضين فيها، فتكلَّموا فيها بحُسنِ نيّة.

ومن أبرز هذه القضايا: التفريقُ بين الفقه والشريعة، تمهيداً إلى القول بأن الشريعة هي حكم الله الذي لا يجوز فَصْلُه عن الدولة، بخلاف الفقه الذي هو آراء بشرية اجتهادية يمكن تبديلُها بغيرها من القوانين، وقد تعرَّض الكوثريُّ لنَقْدِ هذا التفريق في غير موضع، وأفرد له مقالةً بعنوان «الدين والفقه»[(١)]، وممّا قاله فيها: «أيُّ صاحٍ يَستَسيغُ أن يَفُوهَ بأن الفقه غير الدين في كتاب الله، يغايرُه ويُبايِنُه مطلقاً[(٢)]؛ مفهوماً وصدقاً وتحقُّقاً، ليَستَبيحَ بذلك انتهاكَ حُرمة الفقه في الدين، مع أن الفقه ما هو إلا معرفةُ الدين، فلا تُتصوَّرُ مغايرةُ علم الدِّين للدِّين، ولا مخالفةُ العلم لمعلومه إلا عند مَنْ لا يُميِّزُ بين الأشخاص فضلاً عن المعاني ...، أم يمكنُ أن يرى عاقلٌ تنافيَ الشيء والعِلم به، ليُمكِنَه إنكارُ فقه الدِّين مطلقاً بدون إنكار الدِّين؟»[(٣)].

ومنها: تحكيمُ العُرف والمصلحة في الأحكام الشرعية، تمهيداً إلى القول بأن العُرف قد تغيَّر زمانياً ومكانياً، وأن المصلحة قد تبدَّلت سياسيّاً واجتماعيّاً،

---

(١) انظر: «مقالات الكوثري» ص٧٦-٧٨.

(٢) احترز بهذا عن المغايرة بالعموم والخصوص، فالدين أعمُّ؛ إذ يشمل الأحكام الاعتقادية والفقهية والأخلاقية.

(٣) «مقالات الكوثري» ص٧٦.

فينبغي تغيير الأحكام كذلك، وقد تعرَّض الكوثريُّ لنَقْدِ هذا التحكيم في غير موضع، وأفرد لهما مقالةً بعنوان «أثر العُرف والمصلحة في الأحكام»(١)، وفصَّل الكلام في العُرف في مقالة بعنوان «شرع الله في نظر المسلمين»(٢) وأخرى بعنوان «نظرُ المرء إلى شرع الله معيارُ دينه»(٣)، وفصَّل الكلام في المصلحة في مقالة بعنوان «رأي النجم الطوفي في المصلحة»(٤).

والكوثريُّ لا يُنكِر كونَ بعض الأحكام مبنيّةً على العرف أو المصلحة، ولكنه يُنكِرُ التوسُّع في ذلك من غير ضابط، كما يدلُّ عليه قولُه: «أما تخيُّلُ تغيُّر الأحكام باختلاف الزمن مطلقاً، بدون نظرٍ إلى ما قرَّره الفقهاء، فتنزيلٌ لشرع الله منزلةَ الأحكام الوضعية، وذلك مما يأباه أهل الدِّين»(٥)، وقال أيضاً: «يريدون أن يجعلوا شرع الله متقلِّباً مع الزمن ومع الظروف كأدمغتهم المُتميِّعة القابلة لكل شكل مع كل ظرف، غير مُكتَفين بتغيُّر الأحكام التي ناطها الشرعُ بالعُرف أو المصلحة، ويوجد بين فلاسفة الغربيِّين اللادينيِّين من يَبْغي ديناً يتقلَّبُ مع الزمن، ولكن بُغيتَه هذه ليست إلا شبكةً يريدُ أن يُوقِعَ فيها مُقلِّدتَهم من أبناء الشرق الأغرار المُتفَلسِفين ليقضي على الإسلام بأيدي أبنائه، لكنْ لا يحيقُ المكرُ السيِّئُ إلا بأهله»(٦)، كما يرى الكوثريُّ أن تغيُّر تلك الأحكام

---

(١) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٩٧-١٩٩.

(٢) انظر: «مقالات الكوثري» ص٧٩-٨٣.

(٣) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٩١-١٩٥.

(٤) انظر: «مقالات الكوثري» ص٢٠٠-٢٠٢.

(٥) «مقالات الكوثري» ص٧٧.

(٦) «مقالات الكوثري» ص١٩٧-١٩٨ باختصار يسير.

CamScanner

المرتبطة بالعُرف أو المصلحة بتغيُّرهما ليس من إتاحة تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها للناس، وإنما هو تفصيلٌ من الشرع نفسه في تلك الأحكام، كما يدلُّ عليه قولُه: «إن ما نِيطَ بالعُرف والمصلحة من أحكام الشرع إنما يختلف عند تغيُّر العُرف والمصلحة، ولكنَّ هذا ليس من التغيير والتبديل في شيء، وإنما هو تفصيلٌ من الشارع الحكيم للحكم بالنظر إلى حال وحال»(١).

ومنها: مَنْحُ الإمام (رئيس الدولة) حقَّ نَسْخ الأحكام الشرعية، وفي هذا السياق ينتقدُ الكوثريّ مقالةً نُشِرَت في إحدى المَجَلّات حاصلُها: أن ما يُطرَحُ من دعواتٍ في طريق تطويع الفقه الإسلامي وإخضاعه لمجاراة الزمن ومسايرة الظروف والأحوال لا يَفِي بذلك، وأن الدواء الناجع في أزمة التشريع هو الأخذُ برأي مَنْ ذهب إلى جَعْل النَّسْخ بيد الإمام، على رأي صاحب تلك المقالة، فيُبيِّنُ الكوثريُّ منشأ هذا الرأي، وهو النظرُ إلى الشرع الإسلاميّ بعين النظرة إلى القوانين الوضعية، يُبدَّلُ ويُغيَّر بين حينٍ وآخرَ على طبق آراء الحكام كتبديل الأنظمة الوضعية، ثم يقول: «وليس معنى أن شرع الإسلام صالح لكلِّ زمان ومكان ـ كما يَتَوهَّمُون ـ أنه قابلٌ للتغيير والتبديل في كلِّ حين على هوى كلِّ عصر، بل بمعنى أنه مُشتَمِلٌ على المصالح الحقيقية للبشر في دُنياهم وأُخراهم»(٢).

وهذا الذي ذكرناه ـ مِن أن الكوثريَّ كان ينظرُ إلى تلك المناقشات بنظرةٍ واسعة من أُفُقٍ فسيح، فيُدرِكُ أسبابَها ومآخِذَها، ويكشفُ غاياتِها ونتائجَها، مُعتَبِراً بالتجربة التي خاضها العثمانيون في القرن التاسع عشر ـ ليس تخرُّصاً

(١) «مقالات الكوثري» ص١٩١.
(٢) «مقالات الكوثري» ص٨٤-٨٥.

فـي فَهْـم كلامه أو مبالغةً في حَمْلِه على غير مَحْمله، وإنما هو من التفتيش في ثنايـا كلامـه وزواياه عن إشـاراتٍ تُلمِحُ إلـى مقصوده البعيد، وكلمـاتٍ تُوجِزُ مطلوبَه السديد، ومن ذلك قوله: «ليس شيءٌ أوجَبَ في باب إصلاح العلم من إيقاف دُعاة المُيوعة عن تنشئة النَّشْءِ على مبادئَ تُظهِرُ الشرع بمظهر هَيُولى[1] تقبـلُ كلَّ صـورة على هوى كلِّ عصر، تراهم يقولـون: «تتبدَّل الأحكام بتبدُّل الأزمان» إطلاقاً، و«السياسة الشرعية تُبنى على الاعتراف بحكمة الله سبحانه» و«بعـدم الاقتصـار علـى الأئمـة الأربعـة»، و«كان عليه السـلام يحـبُّ موافقة أهـل الكتـاب»، و«مُسـايرةُ الزمن حَتْـمٌ»، و«مَبْنى الأحـكام العُـرفُ»، و«مَدارُ المعامـلات علـى المصلحة»، إلى غير ذلك من دسـاتير مُعقَّدة مُجمَلة تمهيداً لِـمَا يجاهـرون به فـي بيانها حينما يحينُ حينُه، ولو تُرِكَت الفوضى تَسُـودُ في التنشـئة لبقي المسـتقبلُ في ظلام حالك، فلا بُدَّ من السَّهَر على مستقبل حَمَلةِ الدِّين لينشأَ تنشئةً صالحة تُرضي الله ورسوله والمسلمين»[2]، وفي هذا النَّصِّ إشارةٌ إلى رَبْطِ هذه الأفكار بمآخذها ومقاصدها.

وأصرَحُ منه قولُه: «إن الأعداء يحاولون إزالةَ ما نَحمِلُه في قرارة نفوسـنا من اعتقاد القداسة في الفقه الإسلاميّ بحَقٍّ، لنجعلَه في صَفِّ القوانين الوَضْعية التـي تتبدَّلُ وتتغيَّر بتغيُّر أهواء الحـكّام، فإذا تابعناهم في ذلك نكون قد قطعنا بأيدينـا هـذا الرِّبـاطَ القـويَّ الذي به كان تماسُـكُنا، فنقع في فوضى تشـريعية،

(١) الهيولـى: مصطلح فلسـفي، معنـاه: ما يقبلُ الصور مطلقـاً ولا يخلو عنها، فـإذا ظهرت فيه صورةٌ زالت صورةٌ أخرى، وهو المادة، فالجسم عندهم مُركَّبٌ من المادة والصورة.

(٢) «مقالات الكوثري» ص١٩٤.

وهذه الغاية لها قيمتها في نظر أعداء الإسلام، فيُثيرون بواسطة صنائعهم في الداخل بين حينٍ وآخرَ تحبيبَ المِساسِ بالفقه الإسلاميّ بشتّى المحاولات؛ من توحيدٍ وتقريبٍ ومقارنةٍ بينه وبين القوانين السابقة وتصفيةٍ لمسائله بمِصفاةِ الغرب باسم الإصلاح، وكلُّ ذلك مما رأينا بَوادِرَه الخَطِرةَ في الأزهر الحديث منذ سنوات، وتحدَّثنا عن كثير من ذلك في حينه، ولا يَتَّسِعُ المقام للإفاضة في دخائل هذه الاتجاهات»(١).

وقريبٌ منه قولُه: «إنَّ مَنْ يُحاوِلُ أن يجعل لنفسه شأناً في التشريع يُمهِّدُ السبيل لذلك بالطعن في الفقه والفقهاء، وتشكيك الناس في الحديث ونَقَلَتِه، وفي اعتقاد المسلمين وأئمته، واجترأ على تحكيم العُرف على نصوص الكتاب والسنة، وإباحة نَبْذِ الأحكام المنصوصة باسم المصلحة ...»، ثم أتبَعَه بقوله: «تَرى ـ أيها المؤمن الصادق ـ بنور إيمانك ما وراء الأَكَمة، وتبقى متمسِّكاً بدينك ولو كالقابض على الجَمْر، كما هو شأنُ المسلم عند فساد الزمان»(٢).

وهذا النَّصُّ الأخير يفيدنا ـ زيادةً على المطلوب السابق ـ أن هذا المعنى تَتحتَّمُ ملاحظتُه في مطالعة كلام الكوثريّ في كثير من أبحاثه الحديثية والفقهية والعَقَدية والفِكرية، حتى فيما لا تظهرُ صِلَتُه به لأول وَهْلة، كدفاعه الشديد عن مذهب أبي حنيفة خصوصاً، ودعوته إلى المذهبية الفقهية مع نَقْدٍ لاذع

(١) «من عبر التاريخ» للكوثري ص٥٩. ويُنظر كلامه في تفصيل ما سمّاه هنا «البوادر الخطرة في الأزهر الشريف» في مقالته «ذكر الهجرة النبوية والأزهر الشريف» من «مقالات الكوثري» ص٣٣٦-٣٣٨.

(٢) «مقالات الكوثري» ص١٩١-١٩٢.

لمسلك اللامذهبية عموماً، ورفضه القاطع بعضَ الأقوال ممّا فيه خروجٌ عن اتفاق المذاهب الأربعة، كما بيَّنتُه في مقدِّمة التحقيق لكتابه «الإشفاق على أحكام الطلاق»، وقد أوضحتُ هناك أن «هذا الموضوع في نظره أعمقُ من أن يكون نقاشاً في مسألةٍ أو مسائلَ في باب الطلاق، بل هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإبعاد الفقه شيئاً فشيئاً عن سِجالات المحاكم وسِجِلّات القضاء»[1]، وأن «القضيّةَ أبعدُ من أن تكون مناقشةً في فروع فقهية في نظره، وإنما هي مفارقةٌ بين قضاءٍ شرعيّ مُلتزم بأحكام الفقه الإسلاميّ المُتوارَث المُنضَبِط على مرِّ الأزمنة ومختلف الأنحاء، وأنظمةٍ وضعيّة تتجاذبُها الآراء في مَهَبِّ الأهواء»[2]، مُستَنِداً إلى عدد من أقواله في كتابه المذكور، منها قوله: «الحاضِرُ دليلُ الغابِر، وكم عندَنا مِن ذكرياتٍ أليمةٍ في هذا الصَّدَدِ لا يُفيدُ ذِكرُها هنا غيرَ تجديدِ الألم»[3]، يعني: ما عايَنَه في ديار الخلافة العثمانيّة من إصلاحات قانونيّة[4] انتهت في آخر الأمر إلى انقلابٍ إلى علمانيّة.

٤ . ٣. الأُخوّة الإيمانية في فِكر الكوثري : تألُّمُه لآلام المسلمين واستبشارُه باستقلال بلدانهم

يُنبِّه الكوثريّ إلى أن الأُخوّة الإيمانية هي الرابط الاجتماعيّ الوثيق الذي التَحَمَ به المسلمون عبر العصور، فكان سبب عِزِّهم وقُوَّتهم، فيقول بعدما

(١) انظر: مقدمة تحقيق «الإشفاق» ص٣٨.

(٢) انظر: مقدمة تحقيق «الإشفاق» ص٣٩.

(٣) «الإشفاق» ص١٣١.

(٤) وقد سبق ذِكرُ شيء منها عَرَضاً من غير تفصيل ولا استقصاء في (٢. ٢. سؤال التحديث في الدولة العثمانية).

CamScanner

ذكـر أن الأمـةَ كانت في غاية العِزّة وتمام السـعادة: «لم يكن مصدرُ عِزِّ هؤلاء غير قُوَّتهم، ولا كان مَبعَثُ قُوَّتهم سوى إخائهم الرُّوحيّ في سبيل إنفاذ أحكام الإسلام، وإنعاش القلوب بروح الإسلام»(١).

وهذه الأخوّة الإيمانية كانت تَسْري في عروق الكوثري، ولهذا كان يتألم لِمَا يُصيبُ المسلمين من آلام ومصائب، ويفرحُ لِمَا يمسُّهم من بشائر ومحاسن.

ونبدأ بأحوال الحرمين الشريفين، فقد نبَّه الكوثريّ على مشكلة الفقر الـذي كان يُعانيـه أهلُهما في ذلك الوقت وتألّم لتلك الظروف القاسـية التي كانوا يعيشونها، وذكَّر سائر المسلمين بواجبهم تُجاهَها، حيثُ قال في مقالته عن «حج بيت الله الحرام»: «من المناظر المُؤلِـمة في وديان الحرمين تلك القبائـلُ الفقيـرة الذين أضناهـمُ العَـدَمُ، ومئاتُ الملايين من المسـلمين في أقطـار العالم مسـؤولون عن ذلـك، ولو صدقت العزيمةُ لـكان في إمكانهم أن يجعلوا هذه الأراضي المقدَّسـة موضـعَ رخاء وهناء، بحيث لا يبقى بين جنباتهـا فقـراء، مثل هؤلاء التُّعسـاء، وقد بدأت بشـائرُ ذلك تبـدو للأنظار، باهتمام حكومة مصر الرشيدة بذلك، ببَعْثِ مُهَندِسين بارعين يُعِدُّون مشروعاً إصلاحيّاً وعمرانيّاً في هذا السبيل، فندعو الله أن يُكلِّلَ ذلك بالنجاح بالتآزر بيـن الحكومتين الرشـيدتين المصرية والحجازية، وبعد أن أصبح باكسـتانُ الهنـديُّ دولـةً مسـتقلّةً(٢)، والجمهوريـةُ الأندونيسـية في طريق الاسـتقلال التـامّ(٣) [نَعقِـدُ] آمـالاً كبيرةً على مستقبل الإسـلام وعلى عمـران الحجاز

(١) «مقدّمات الإمام الكوثري» ص٥٠٢.
(٢) وذلك سنة ١٩٤٧م.
(٣) وذلك ما بين سنة ١٩٥٤-١٩٤٩.

خاصّةً وترفيه سَكَنتِه مع السَّهَر على أحوالهم الدينيـة والخُلُقية والصّحّية، وما ذلك على الله بعزيز. والحاصل أنه يجب ألا ننسى أن بقاء تلك القبائل في حالة البُؤس البالغ في جوار حَرَم الله وحَرَم رسول الله عارٌ مُسجَّلٌ على جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فيجب أن نغسلَ هذا العار بالقيام بالواجب كما يجب»[١].

وفي إحدى مقالاته السنوية عن الهجرة النبوية يتألّم الكوثريُّ ـ بل يتوجَّع ـ لجملة من أحوال المسلمين، حيث قال: «وأمامنا أحداثٌ تذوبُ من هَوْلِها القلوبُ المُتحجِّرة، وتنخلعُ من آلامها الأفئدةُ المُتجبِّرة، فدونك مشكلةَ وادي النيل[٢]، ومسألةَ فلسطين والقدس الشريف ثالث الحرمين الشريفين المبذول في سبيل إنقاذها من براثن الصهيونية كلُّ مُرتَخَصٍ وغالٍ، وتلك الدماء الغزيرة المسفوكة ظلماً وعدواناً في الهند، وتلك الكارثة الدامية في أندونسيا[٣]، ......

(١) «مقالات الكوثري» ص١٥٤.

(٢) يعني ما حصل في انتفاضة (ثورة) ١٩٤٦م، حيث خرج كثير من الطلبة في شباط (فبراير) من السنة المذكورة، في مظاهرة ضخمة للمطالبة بالاستقلال الكامل عن بريطانيا، مُتَّجهين إلى قصر عابدين عن طريق (كوبري عباس)، فحاصرتهم الشرطةُ فوق الجسر (الكوبري)، ثم فُتح الجسر فسقط كثير منهم في النيل، وقُتل وجُرح عددٌ كبير، وهو ما أدّى لاحقاً إلى احتجاجات واسعة واصطدام مع القوات البريطانية التي أطلَقَت عليهم الرصاص.

(٣) أعلنت أندونيسيا استقلالَها عن هولاندا سنة ١٩٤٥م، فقامت القوّاتُ الهولندية بحملات اعتقالات جماعية وتعذيب وإعدام إلى سنة ١٩٤٩م، حيثُ اعترفت رسمياً بالاستقلال. وفي سنة ٢٠٢٠م قدَّم الملكُ الهولندي اعتذاراً رسمياً عمّا سمّاه «العُنف المُفرِط» الذي ارتكبَتْه بلادُه في أندونيسيا في تلك السنوات.

ومسائلُ ليبيا وبُرقة وما والاهما[١] وأرتيريا[٢]، وكلُّ ذلك مما يُبصِرُ العُميَ ويُسمِعُ الصُّمَّ أنه لا يُنتَظَرُ لنا خيرٌ إلا من الله جلَّ شأنُه»[٣].

ومن الجيِّد في هذا السياق أن نُبيِّن رفضَه للدعوات القومية والتعصُّبات العِرقية، ومن أقواله في هذا الأمر: «تلك النَّعْرةُ القومية ما هي إلا نَعْرةٌ جاهلية، داسَها خاتمُ رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وجعلها موضوعةً في ضمن ما وضعه من نَعَرات الجاهلية تحت قدميه»[٤]، وقوله: «وطَرْقُ أبواب القومياتِ الممقوتة فخٌّ نصَبَه الغربُ للشرق، فتردَّى في هذه الهُوّة السحيقة مَنْ أراد الله هلاكه من الشعوب، وليس من مصلحة الإسلام ولا من مصلحة العروبة ولا من مصلحة الشعوب في شيء طَرْقُ هذه الأبواب، ولا هذا مِن شأنِ مَنْ يعتقدُ انتهاء شعوب البشر إلى نَفْسٍ واحدة، أو يرى الإخاءَ الإسلاميَّ شيئاً يُذكَر»[٥].

ويُفرِّقُ الكوثريُّ في هذا السياق بين العصبيّة العِرقية والدعوة للقوميّة من

---

(١) وقعت ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي سنة ١٩١١م، وبسبب خسارة إيطاليا التي كانت ضِمنَ دول المِحوَر في الحرب العالمية الثانية دخلت القوات البريطانية إلى ليبيا سنة ١٩٤٢-١٩٤٣م، ثم عُقِدَت سنة ١٩٤٥م عدّةُ اجتماعات في لندن وباريس بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي لبحث مُعاهَدة الصُّلح مع إيطاليا، وهي ما أدّى إلى خروج القوات الإيطالية رسمياً سنة ١٩٤٧م، ثم إعلان استقلال بُرقة سنة ١٩٤٩م، أما استقلال ليبيا بجميع أقاليمها فقد كان سنة ١٩٥١م.

(٢) وفي السياق نفسِه المذكور آنفاً حول ليبيا، احتلَّت القواتُ البريطانية سنة ١٩٤١-١٩٤٣م أرتيريا التي كانت تحت الاحتلال الإيطالي، وتبعاً للاجتماعات المذكورة آنفاً كان خروج القوات الإيطالية رسمياً من أرتيريا سنة ١٩٤٧م.

(٣) «مقالات الكوثري» ص٣٣٥. (٤) «مقالات الكوثري» ص٢٢٧.

(٥) «صفعات البرهان على صفحات العدوان» للكوثري ص٢٩-٣٠.

CamScanner

جهـة، وهـي التي رفضها في كلامه المنقـول آنفاً مع وَصْفِهـا بالنَّعْرة الجاهلية والهُـوّة السـحيقة، واعتزاز الأقـوام بفضائلهم والشـعوب بمفاخرهم مع كون ولائهـم للإسـلام وتمسُّـكهم بأُخوّة الإيمـان، كما بيَّنه بقوله: «وما مِن شـعب إلا ولـه مناقـبُ ومثالـبُ، والرجـل المُخلِص لشـعبه وللإسـلام هو مَـنْ يذكر مناقبَ أسـلافهم ومفاخرَ آبائهم من غير بَخْسٍ لحقِّهم استنهاضاً لهِمَمِهم إلى المعالـي، ويُنبِّهُهم على مثالبهم من غير تحريـف ليَتَوقَّوْها، فيَخلُد لهم المَجْدُ علـى مِنَصّـةِ الدهر، وأما مَنْ يجعـلُ المناقبَ مثالبَ، والمثالـبَ مناقبَ، فيمَن يَشنَؤُه أو يَهْواه، ويسعى لإثارة الضغائن بين الشعوب، فهو عدوُّ الإسلام عدوُّ الشرق عدوُّ الشعوب رَذِلٌ سَفيلٌ مُوحِشٌ»(١).

ومـن كلامه الجامع لهذين المعنيين؛ رفضاً للأول وقبولاً للثاني: ما ذكره فـي كتابـه «نبراس المهتدي» ـ وقد نقله في تقديمه لكتاب «الروض الزاهر في سـيرة الملك الظاهر» ـ بمناسـبة حديثه عن الجركس الذين يَنحَدِرُ نسبُه منهم، وقد ابتدأه بقوله: «اتفقت كلمةُ علماء السُّـلالات البشرية في العصور الحديثة علـى أنهـم أصفى نموذج للجنس الأبيض القوقاسـيّ ...»، وهـذا مُتفرِّعٌ على النـوع الأول الـذي لا محذور فيـه، وختَمَه بقوله: «على أن الناس سواسـية لا تفاضُلَ بينهم إلا بالتقوى»(٢)، وهذا تنبيه منه على رَفْضِ النوع الأول وردِّه.

ومنه قوله في كتابه «إرغام المَريد في شرح النظم العتيد لتوسُّل المُريد»(٣):

«لله دَرُّ القائل:

---

(١) «صفعات البرهان على صفحات العدوان» للكوثري ص٣٠.

(٢) «نبراس المهتدي» للكوثري ص٨، و«مقدمات الإمام الكوثري» ص٥٣٢.

(٣) «إرغام المريد» للكوثري ص٣٣.

CamScanner

لَعَمْرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ دينِهِ فلا تترك التقوى اتكالاً على النَّسَبْ
فقد فازَ بالإسلام سلمانُ فارسٍ وقد حُطَّ بالجهلِ الشريفُ أبو لَهَبْ»

٤. ٤. موقفه من القضية الفلسطينية

البلادُ الإسلامية كلُّها عزيزةٌ على الكوثري، وأعزُّها لديه الديارُ المُقدَّسة: مكة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة - وتقدَّم في المطلب السابق شيء من كلامه فيهما - والقدس الشريف، ولـمّا كانت القدس الشريف وما جاورها من أرض فلسطين تحت الاحتلال الإنجليزي والهجمات الصهيونية في الشطر الثاني من حياته فقد حَظِيَتا من كلامه بنصيب زائد على غيرهما.

وكان أوَّلُ كلامه في القدس الشريف إبّان سقوطها بيد الإنجليز في قصيدته «حنين المتفجِّع»، حيث خصَّها بثلاثة أبيات (٤٨-٥١) هي قوله:

أرضٌ مُقَدَّسةٌ عَنَّا قَدِ انتُزِعَتْ آياتُها انتُبِذتْ، فالعَيشُ مَملُولُ
أعْلامُها انتَكَسَتْ، صُلْبانُها ارتَفَعَتْ تُتلَى بها اليَومَ تَوراةٌ وإنجيلُ
بلا صلاحٍ فهل تُرجَى استِعادَتُها وما الصَّلاحُ لنا في الكَونِ مأمُولُ

ثم اشتَدَّ البلاء بتسهيل الإنجليز هجرة اليهود إلى فلسطين، وتسليح جماعات منهم، والتغاضي عن مجازرهم وفظائع جرائمهم في أهل فلسطين، في الأربعينيات من القرن العشرين، وفي هذه الأثناء كان الكوثري يَستَحضِرُ قضية فلسطين في مقالاته السنوية حول الهجرة النبوية، ويُكرِّرُ التذكير بـ«مسألة فلسطين والقدس الشريف ثالث الحرمين الشريفين المبذول في سبيل إنقاذها من براثن الصهيونية

كلُّ مرتخص وغالٍ»[١]، ويُورِدُ فيها الثناءَ على الجهود الساعية لـ«استنقاذ فلسطين الشقيقة من براثن الصهيونية المفترسة»[٢] أو «من مخالب الصهيونية الغاشمة»[٣]، مُضمِّناً هذا الثناءَ بطريق الإشارة الدعوةَ إلى تكثيف هذه الجهود وإدامتها لتُؤتيَ ثمارها وتُحقِّق مقاصدها.

وسيأتي في المطلب التالي زيادةُ تفصيل في هذه القضية.

٤ . ٥ . موقفه من تأسيس جامعة الدول العربية

حينما أُسِّسَت جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥م فرحَ الكوثريُّ بها وعلَّق عليها آمالاً سياسيّةً وعِلميةً عديدة، وكان أبرزُ آمالِه السياسية القريبة: إنقاذَ فلسطين من الهجمات الصُّهيونية التي كانت تمارس أنواعاً من القتل والحرق والتهجير والتدمير في حقِّ الفلسطينين وأراضيهم إلى عهد تأسيس ذلك الكيان المُحتَلّ سنة ١٩٤٨م، وأبرزُ آماله السياسية البعيدة: قيامَ الخلافة الإسلامية مرّةً أخرى، وأما آمالُه العلمية فكانت تتعلَّقُ بنَشْر التراث الإسلامي والنهضة بالحياة العلمية.

يُبيِّن هذا قولُه في إحدى مقالاته السنوية عن الهجرة النبوية: «وقد ازدادت ذكرى الهجرة النبوية في هذه السنة المباركة أهميةً من جهة مصادفتها لأخذ جامعة الدول العربية المباركة في النشاط الفِعليّ[٤] المُثمِر لأول مرّة، فنراهم يَبذُلون أقصى وُسْعِهم في سبيل استِنقاذِ فلسطين الشقيقة من براثن الصهيونية

(١) «مقالات الكوثري» ص٣٣٥. (٢) «مقالات الكوثري» ص٣٣١.

(٣) «مقالات الكوثري» ص٣٣٣.

(٤) وذلك سنة ١٩٤٦م، حيث عُقِدَت أول قمّة عربية.

المُفتَرِسة[١]، ويُفكِّرون في افتتاح مَعهَد شرعيّ لدراسة الفقه الإسلاميّ[٢] دراسةً شاملة تُنقِذُ المجتمعات الإسلامية من القوانين الوضعية المخالفة لكتاب الله وسُنّة رسوله، وهذا من صِدقِ التمسُّك بشرع الله، رَغْمَ محاولة بعض المُتطرِّفين توجيهَهم توجيهاً غير سديد، والتفادي من ذلك سهلٌ ميسور إذا خَلَصَت النية، ويُوفِدون جماعةً من أهل الفضل والنُّبل للبحث عما يجب إحياؤه من تراث السلف في مكتبات العالم[٣]، وهذه ناحية مشكورة جدّاً كانت مُهمَلةً إلى اليوم، وقد استَبشَرَ العالم الإسلاميُّ من ذلك بكلِّ خير»[٤].

وأعاد الكوثريُّ هذا المعنى نفسَه في مقالة أخرى له عن الهجرة النبوية وزاد: «فيشملُ هذا الخيرُ العالم العربيَّ خاصّةً والعالم الإسلاميَّ عامّةً»، ثم قال: «لهذا نَعُدُّ ذكرى الهجرة النبوية في هذه السنة بالغةَ الأثر في النفوس الأبية المُعتَزّة بعِزِّ الإسلام المُستَشعِرة لذَّةَ المَجْد ومرارة الاستكانة، فتُنهِضُها إلى العُلى واستعادة مَجْد الأجداد واستنهاض هِمَم الأحفاد، ففي ذلك عِزُّ العرب حقّاً، وبعِزِّ العرب يَعِزُّ الإسلام، وبعِزِّ الإسلام يَعِزُّ

---

(١) كان موضوع القِمّة المذكورة الرئيس هو وَقْف العدوان الصهيوني على فلسطين، والدعوة لتحرير البلدان العربية من الاستعمار.

(٢) وبقيت هذه الفِكرةُ في طَوْرِ المشروع ولم تتحقَّق.

(٣) أُسِّسَ «معهدُ المخطوطات العربية» سنة ١٩٤٦م، ومازال يُمارِسُ نشاطَه العلميَّ إلى اليوم. وبهذه المناسبة نذكرُ أنَّ في أرشيف المعهد زيارةَ الكوثريّ له بتاريخ ١٦ من شباط (فبراير) ١٩٥٠م لتصوير مخطوط «الروض الزاهر» للبدر العيني الذي نشره الكوثريّ في تلك السنة عن تلك النسخة.

(٤) «مقالات الكوثري» ص٣٣٥.

المسلمون عامّةً في مشارق الأرض ومغاربها»[١].

وهذا نصٌّ مهمّ في كون آمالِه المُعلَّقة على جامعة الدول العربية آمالاً مرتبطةً بالعالم الإسلامي كلِّه، انطلاقاً من العالم العربي، ومن هنا كانت نظرتُه إلى هذه الجامعة على أنها خطوة في طريق الوَحْدة الإسلامية لقيام الخلافة الإسلامية من بعد ذلك، كما قال في تتمّة هذا النَّصِّ نفسه: «و قد قضى الله سبحانه ـ جَلَّت حكمتُه ـ بانتهاء أَمَدِ الدولة العلية العثمانية قبل ثُلُثِ قرن، بعد أن عاشت زُهاءَ سبعة قرون، وشَمِلَ حكمُها القارّاتِ الثلاثَ في رُقعةٍ واسعة الأرجاء، فانتقلت إلى ذِمّةِ التاريخ بمفاخرها وعِبَرها، وعُجرها وبُجرها، ولم تَخلُفها دولةٌ في غايتها وقوتها وسَعةِ رُقعتها بعد تقطيع أوصال تلك الدولة الإسلامية المترامية الجوانب، وكان الذين يغارون على الإسلام في غاية الاستياء من هذا الوَضْع المُخيف للإسلام، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر نشوءَ دولة إسلامية قوية فَتِيّة صادقة لمبادئ الإسلام تَحُلُّ محلَّها لتحميَ كلمة الإسلام، لكنْ طالَ أمدُ انتظارهم إلى أن مكَّنَ الله سبحانه ملوك الدول العربية وزعماءها من جَمْعِ كلمتهم وتأسيسِ جامعة عربية من الدول العربية، فاستَبشَـرَ المسلمون بكلِّ خير من هذا النبأ العظيم، علماً منهم بأن عِزَّ الإسلام بعِزِّ العرب، كما أن عِزَّ الشعوب الإسلامية بعِزِّ الإسلام، وقد حقَّقَ الله سبحانه بعض النواحي من هذا الأمل القُدسيّ، فندعو الله عزَّ وجلَّ أن يُحقِّقَ باقي الآمال ممّا يُعيدُ إلى الإسلام مَجْدَه»[٢].

وفي الحقيقة، يظهر بالتأمُّل في سيرة الكوثري وفِكره أن هذه الآمالَ التي بثَّها في هذه الكلمات كانت مُضمَّنةً دعواتٍ خفيّةً واستِحثاثاً مُبطَّناً

---

(١) «مقالات الكوثري» ص٣٣٤. (٢) «مقالات الكوثري» ص٣٣٤.

لهـؤلاء الملوك والزُّعماء بأن هـذه الأمور هي ما تَنتَظِرُه النُّخَبُ العلمية منهم، وهي ما ترجوه الشـعوبُ الإسـلامية من طرفهم فعـلاً، فالمأمولُ منهم قيامُهم بمسؤولياتهم لإصلاح أحوال المسلمين والنهوض بحال الأمة.

٤ . ٦ . موقفه من التغريب في الحياة الاجتماعية، والتجديد في الحالة العلمية

يُكثِرُ الكوثـريُّ من التحذير مـن التغريب فـي الحياة الاجتماعيـة ويُكرِّرُ التنبيـه على خطره، وتُعدُّ مقالتُه «منشـأ إلـزام أهل الذمة بلباس خاص، وحكم تلبُّس المسلم به عند الفقهاء»(١) ـ ونحوُها مقالتُه «حجاب المرأة»(٢) ـ مُلخَّصاً مُوجَزاً لموقفه في هذه القضية.

وممّـا قالـه في مقالته المذكـورة أولاً: «أَلفِتُ النظر إلـى أنه كلَّما قام عالم (مودرن) بدور الوسيط في المُروق نجد ذواتٍ لم يَرسَخ الإسلامُ في نفوسهم، ولا خالَطَت بشاشةُ الإيمان قلوبَهم، يرفعون رؤوسَهم في المَجَلّات المُصوَّرة وغيرها، فيُكاشِفون الجمهور بما في صدورهم ممّا فيه هلاكُ الحَرْث والنَّسْل، و(راسبوتين)(٣) ضاحك مستبشر، فنَصرُخُ قائلين: يا لَلإسلام من أدعياء العلم

---

(١) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٨٠-١٨٦.

(٢) انظر: «مقالات الكوثري» ص١٨٨-١٨٩.

(٣) هـو غريغوري راسـبوتين (١٨٦٩-١٩١٦م)، راهب روسـي، نشـأ فلاحاً أُمّيّاً، ثم اسـتطاع الدخول إلى القصر المَلَكيّ في سـانت بُطرُسـبورغ قِدِّيساً ومعالجاً روحيّاً، مع أنه لم يشغل منصباً رسميّاً في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، ونال مكانةً عند القيصر الروسي، ممّا أدى إلى خلافات بينه وبين النُّخَب الروسية، فضلاً عن سلوكه الأخلاقي الذي كان مثيراً للجَدَل، وانتهى الأمر إلى موته اغتيالاً.

الذيـن تَزعَّموا على العلماء»(١). وممّا قاله فـي مقالته المذكورة ثانياً: «والغيرةُ على الحريم رمزُ الإسلام الصحيح، ومَنْ فقَدَها من أبناء البلاد الإسلامية إنما فقَدَها بعد اندِماجه في أُمَم لا يغارون على نسائهم»(٢).

ويُبيِّـن الكوثـريُّ علاقةَ هـذا التغريب الاجتماعـي بالعَلْمانية التشـريعية، وأنهمـا سببٌ في استمرار تأخُّر أحـوال المسـلمين، ومانعٌ مـن معالجة آلام البلاد الإسلامية، فقال بعدما ذكر عدداً من الأحوال الحَرِجة التي يتعرَّض لها المسلمون في فلسطين والهند وأندونيسيا وليبيا وأرتيريا ـ وقد نقلنا نصَّ كلامه هـذا قريباً(٣) ـ : «فليَخجَـل هؤلاء الذين كانوا يظنُّون أنهم يكسبون شيئاً من عطف الأعداء إذا سايروهم في السَّهَرات الخليعة، وسائر المُوبِقات الفظيعة، ولا يَنتَظِـرُ النصرَ مـن الله مَنْ يكـون في حرب مـع الله بالخروج عـن تعاليم الإسـلام، والسكوتِ على استهانة مَنْ يستهين بكتاب الله وسنة رسـول الله والشـرع الأغرّ الإلهيّ المتوارث من صدر الإسـلام إلى اليوم، واستباحةِ إقامة القوانين الوضعية مقام الأحكام الشـرعية بين سَمْع الناس وبَصَـرِهم من غير خَجَل ولا وَجَل»(٤).

وكثيراً ما يصفُ الكوثريُّ دعاةَ هذا التغريب والمُمهِّدين له السُّبُلَ بـ«سماسِـرة المُروق»(٥) أو «سماسِرة الخنوع والاندماج»(٦)، ويُفصِّل أحياناً هذا الاندماج في سياق ذمِّه والتحذير منه إلى «اندماج تشريعيّ»(٧) واندماج

---

(١) «مقالات الكوثري» ص١٨٦.
(٢) «مقالات الكوثري» ص١٩٠.
(٣) انظر: (٤. ٣. الأخوّة الإيمانية).
(٤) «مقالات الكوثري» ص٣٣٥.
(٥) «مقالات الكوثري» ص٣٠٣.
(٦) «مقالات الكوثري» ص١٨٠.
(٧) «مقالات الكوثري» ص١٩٥.

CamScanner

فِكريّ واجتماعيّ سمّاه: «الاندماج روحاً ومَظهَراً»[١]، ويجعلُ الباعثَ على انسياق هؤلاء الدُّعاة وراء الغَرْب انهزامَهم الثقافي وسيطرةَ ما يُسمّى حديثاً بـ«عُقدة النقص» أو «الشعور بالدُّونية» على تفكيرهم، فيقول: «والواقع أن مرض مُسايرة الزمن قد يُوقِعُ العالِمَ المائع في النظر إلى الشرق بمِنظارٍ مُصغِّر، وإلى الغرب بمِنظارٍ مُكبِّر»[٢].

ويتعجَّبُ الكوثري من حال المُستَغربين في أنهم لا يُتابعون الغربَ فيما يتميَّز به الغربُ فعلاً في مجالات الدراسة والبحث في العلوم أو في التقدُّم الصناعيّ والاكتشافات الكونية، كما قال مشيراً إلى الأول: «لو كان مِثلُ هذا العالِم[٣] في الغَرْب لنَدَب أهلُ الشأن لتلك الدراسة وذلك البحث رجالاً خاصّةً، بل نراهم يعملون هذا في بعض رجال الشرق، لكنْ أصبحنا بُعَداء عن تقدير مقادير الرجال أغنياءَ بما نَستَقي من أدمغتنا فقط عن البحث والتنقيب. ولو زاحَمْناهم في البحث والتعب وراء اجتلاء معارفنا، وباعَدْناهم في المُوبِقات وصنوف السقوط، لكان لنا شأنٌ غير شأننا»[٤]، وقال مشيراً إلى الثاني: «هذا التجديد ـ يعني: في الأحكام الشرعية المتوارثة ـ ليس ممّا يُرقِّي الأُمّةَ إلى مستوى الأُمَم الراقية الرشيدة، ولا هو ممّا يجعلُ للأُمّةِ طيّاراتٍ ولا سيّاراتٍ ولا أساطيلَ ولا غوّاصاتٍ ولا متاجرَ ولا دُورَ صناعات. وإنّما التجديدُ النافعُ في إرقاءِ الأُمّةِ هو السِّباقُ مع الأُمَم الرشيدة في اكتشافِ أسرار هذا الكون، وتعرُّفِ القُوى الكامِنة التي أودَعَها الله سبحانه في المعادن

---

(١) «مقالات الكوثري» ص٢٤٩. (٢) «من عبر التاريخ» للكوثري ص٥٦.

(٣) أي: العلامة إسماعيل الكلنبوي (ت ١٢٠٥هـ).

(٤) «مقالات الكوثري» ص٣٥٢.

والنباتـات والحيوانـات وغيرها، ومعرفةِ طرق اسـتخدامها في إعلاء كلمة الله وفـي مصالـح الأُمّة، والـذَّوْدِ عن كيانِها ومـا إلى ذلك. ومثلُ هـذا التجديدِ لا يُعارِضُه أحدٌ أصلاً»[١].

فالتجديدُ المرضيُّ عنده هو التجديد في الأمور الدنيوية، بشرط ألا يكون فيه ما يُصادِمُ الشرع، كما قال: «جَرَت سُنّةُ الله على اصطدام العتيق بالجديد إلا أنّ مَنْ جمع اللهُ له الدِّينَ مع العقل لا يُعادي كلَّ قديم، ولا يُؤاخي كلَّ جديد، بل يأخذُ بالأصلح من الاثنين، وهو الذي لا يُصادِمُ الشرع»[٢].

أما التجديد في الأمور الدينية فيُصرِّح بأنه «لا يُستَساغُ التصرُّفُ في أحكام الدين بالتغيير والتبديل بعد إكماله بنصِّ الكتاب المبين»[٣]، وأنَّ «حُسْنَ الشيء المُبتَـكَر فرعُ دخوله تحت تشـريع عام يَستَحسِـنُه ...، وأما الشـيء المُبتَـكَر المُصـادِم لسُـنّةٍ ثابتـة فنحكم عليه فـي أول خطوة بأنه بدعة سيِّئة، وإن تصوَّر بعـضُ العقول في ذلك بعـضَ نَفْع»[٤]، ويُعيدُ بيان هذا المعنى بقوله: «حُسـنُ البدعة يكون باندراجها تحت تشـريع عام يَستَحسِـنُها، وقُبحُ البدعة بمُضادَّتِها لسُنّةٍ حسَّنها الشرعُ أو باندماجها تحت حكم قبَّحَه الشرع»[٥].

ويـرى التجديـدَ الحقيقـيَّ في الأمـور الدِّينية هو «التجديـد المعروف في تخاطُـب الصـدر الأول، بمعنـى: إعادة الجِدّةِ والقوة إلى الشـيء الذي كاد أن يُبليَـه الزمن، فيكون بمعنى تقوية التمسُّـك بأحكام الدين بعد حصول نوع من

(١) «الإشفاق على أحكام الطلاق» للكوثري ص٣١٨.
(٢) «مقالات الكوثري» ص١٢٢. (٣) «مقالات الكوثري» ص٩٤.
(٤) «مقالات الكوثري» ص٩٤. (٥) «مقالات الكوثري» ص٩٤.

الوَهْن في التمسُّك بها، لا استبدال أحكام بأحكام»[١].

٤ . ٧. نظرته إلى واجب العلماء ووظيفتهم

يرى الكوثريُّ أن النهوض بحال الأمة وإحياء مَجْدِها وإعادة عزِّها واسترداد شُموخها بين الأُمَم مسؤوليةٌ يتقاسَمُها بالدرجة الأولى صِنفانِ كبيران من الناس، هما: أهل الحكم والسياسة وأهل العلم، ويلتحقُ بكلِّ صنفٍ ما يُناسِبُه من سائر الناس اجتماعيّاً وإعلاميّاً وفِكريّاً وثقافيّاً ونحوها.

أما أهل الحكم والسياسة فقد كان بعيداً عنهم، خصوصاً في الشطر الثاني من حياته، ولذا كان يدعوهم إلى أداء واجبهم في هذه القضايا تلميحاً لا تصريحاً، إما ببيانِ ما يأمُلُه ويرجوه من جهتهم؛ إذ قد يقعُ هذا الأمل والرجاء موقعاً في نفوسهم، وإما بدعاء الله أن يُلهِمَهم ما فيه الصلاح والرشاد؛ إذ قد تُجابُ دعوةٌ من تلك الدعوات يكون فيها خيرُ البلاد والعباد، وقد سبقت الإشارةُ إلى الجانب الأول ـ وهو تلميحُه إليهم بصورة الأمل والرجاء ـ عند الكلام على موقفه من إنشاء جامعة الدول العربية[٢]، فننقل عنه هنا ما يتعلَّقُ بالجانب الثاني، فمنه قولُه بعدما اشتكى من سوء الأحوال العلمية وفساد الأحوال الاجتماعية: «وليس لنا إلا أن نَفزَعَ إلى الله جلَّ شأنُه في كشف هذا الضُّرّ، مُتضرّعين إليه أن يُلهِمَ أصحابَ الشأن إبعاد هؤلاء الذين يَنقُضون عُرى الفقه الإسلاميّ عُروةً عُروةً عن كراسي الزعامة في الدِّين، مع تصفية الجماعة تصفيةً شاملة، وأن يُوفِّقَهم في تخيُّر علماءَ أُمناءَ بَرَرةٍ أتقياءَ بدلَ

---

(١) «مقالات الكوثري» ص٩٤ بتصرُّف يسير.

(٢) انظر (٤ . ٥. موقفه من جامعة الدول العربية).

هؤلاء، فيعود إلى الدِّين صفاؤه، وإلى العلم بهاؤه»[١].

وأما أهل العلم فقد كان واحداً منهم وعلى صِلةٍ مباشرة بهم، ولذا كان خطابُه إليهم واضحاً، وكلامُه معهم صريحاً، وكان أحياناً يَسلُك معهم مَسلَك الترغيب في أداء واجباتهم ببيان فَضْلِهم وتلقيبِهم بما فيه فخرُهم، كما في قوله: «إن أحقَّ الطوائف بالأمانة وصِدقِ التمسُّك بالمبادئ القويمة هم طائفة العلماء حُرّاس شرع الله سبحانه وأُمناء الله في أرضه، لأن إصلاحَ الأُمّة مَنُوطٌ بصلاحهم، وفسادَها ناشئٌ من فسادهم، فإذن هم أجدرُ الناس بالابتعاد عن طرفَيْ قَصْدِ الأمور[٢] ليَبقَوا أُمّةً وَسَطاً عُدولاً شهداءَ على الناس بالحق، لا يميلون إلى الإفراط ولا إلى التفريط، يأبون التنطُّع البالغ والتساهل المُزري، فلا يكونُ من شأنهم الجمودُ على كلِّ قديم، ولا الجحودُ مسايرةً للمُلحِدين»[٣].

وكان أحياناً أخرى يذمُّ منهم مَنْ يرضى بالذُّلِّ والمَهانة، ويَستَروِحُ إلى الخضوع والاستكانة، تقبيحاً لصنيعهم، وتحذيراً من اتباعهم والاقتداء بهم، واصفاً إياهم بأنْ «لا همَّ لهم غيرُ مَلْءِ الكِرْش ولَمِّ القِرْش»[٤]، ويمدح مَنْ يسعى دائباً في سبيل إحقاق الحقِّ وإقامة العدل، كما في قوله: «الحرّاسُ من سادتنا العلماء نيامٌ أو مُستَسلِمون للتيار الجارف، فالكبارُ سكوتٌ قانعون بالقوت، والصِّغارُ في سبيل الحصول على أساليبَ تُرقِّيهم رُقيَّ الأشياخ مُتواكِلين في أمر الذَّبِّ عن الفضيلة والعقيدة المتوارثة والفقه المتوارث

---

(١) «مقالات الكوثري» ص١٨٦.

(٢) القَصْد: هو التوسُّط، وطرفاه: الإفراط والتفريط.

(٣) «مقالات الكوثري» ص٣٩١.

(٤) «مقالات الكوثري» ص٣٩١.

والخُلُق الإسلاميّ الرصين، فاقِدين حماسَ الشباب، غيرَ مُفكِّرين في رضا ربِّ الأرباب، فيزول شيئاً فشيئاً الاستمساكُ بالعقيدة المتوارثة المُنجية في الدُّنيا والآخرة، ويُذهَلُ[1] أملُ الاحتفاظ بالشرع الأغرِّ المُسعِد للمسلمين أيامَ عِزِّهم، تاركين مَوضِعَهما لنَزَغاتِ مروقٍ وأنظمةٍ وضعية مُلبَّسة تؤدِّي إلى انحلال كيان الإسلام. وإزاء هذا المنظر الرهيب يكاد اليأسُ يستولي على النفس قاطعاً الأمل من أن يجد بَصِيصاً من نور يخترقُ هذا الظلام الدامس خُطوةً فخطوة، لولا طائفةٌ من الطبقة الوسطى من علماء الأزهر الشريف، ولا سيَّما جماعة الوعاظ، ممَّن تَرفَّعوا عن استكانة الكبار وأطماع الصغار، فسلكوا طريقَ مناصرة الحقِّ حيثما كان، داعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومُجادِلين للشاطحين بالتي هي أحسن، ومُضَحِّين بكلِّ مُرتَخَصٍ وغالٍ في سبيل المحافظة على الحقِّ وعلى الفضيلة وعلى العِزّة، مُستيقنين أن القيام بالواجب هو أسنى المطالب»[2].

وفي مثل هذا السياق يذكر الكوثريُّ قصة شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين (ت ١٠٢٤هـ)[3] مع السلطان أحمد الأول (ت ١٠٢٦هـ)، حيث بعث إليه السلطان يسأله: ما هو الخللُ الطارئ على كيان الدولة وشؤون الرعية، مع النصر الموعود لهذه الأمة؟ فأخذ الشيخُ الخطَّ السُّلطانيَّ من يد كبير الحُجّاب، وكتب تحته بعد مَدِّ باء «الجواب»، على الوجه المُعتاد في الإفتاءات: «ما لي ولهذا الأمر، كتبه محمد بن سعد الدين»، وأعاد الورقة إلى

(١) أي: يُتناسى.
(٢) «مقالات الكوثري» ص٤١١.
(٣) تُنظر ترجمته في: «خلاصة الأثر» للمحبي ٤: ١٦٨-١٦٩.

السُّـدّة المَلَكية، فاحتَدَّ السلطان غضباً، واغتاظ جِدَّ الغَيْظ، حيث ظنَّ أن شيخَ الإسلام لم يلتفت إلى سؤاله، فطلبه للمُثول بين يديه في الحال، فحضر، وأخذ السُّـلطانُ يُعاتِبُه مُرَّ العِتاب، على خلاف ما هو المُعتادُ من التسـامح مع مشايخ الإسـلام، وقـال: كيف تقولُ: أنا ما لـي في أمرٍ يهمُّني جـدّاً وتُهمِلُ الجواب؟ فقـال شـيخُ الإسـلام: كلا، بل جاوبتُ على سـؤال مولانـا أدقَّ جواب، فمتى كانت عنايةُ رجال الدولة وأفراد الأُمّة بما يَـخُصُّهم أنفسَهم فقط دون التِفاتٍ إلى ما يَعُمُّ ضررُه الجميعَ أو يَشمُلُ نفعُه، قائلين: ما لي ولهذا الأمر، فقد طمَّتِ البليّـةُ وعمَّتِ المصيبـة، لانصرافهم إلى منافعهم الشـخصية دون النفع العام. ولـمّا شرح شيخُ الإسلام كلامَه هذا الشرحَ أُعجِبَ به السُّلطانُ جدّاً، وخَجِلَ من عتابه، وسعى في إرضائه سعياً بالغاً[1].

وقـال الكوثـري تعليقـاً علـى هـذه الحكايـة: «وكلمـةُ «أنا ما لـي» على وجازتهـا هـي عِلّـةُ العِلَل فـي طروء الخلل على شـؤون الأُمّة فـي كلِّ زمن، فـلا بـدَّ من وجود تشـكيلات مـن رجال مُخلِصيـن على درجـات متصاعدة تَسـهَرُ على شؤون المسلمين الاجتماعية، وتُقرِّر ما هو في صالحهم في دَرْءِ الأخطار، فإذ ذاك تدخلُ شؤونهم في طريق الإصلاح، لكنْ لا يتمُّ هذا برجالٍ رسميِّين ولا بشيوخ هَرِمين ولا بكُهولٍ شَمِلَهم الـخَوَرُ، بل بشبابٍ أقوياءَ في العَزْم يَسعَون في رضا الله سبحانه مُخلِصين لله جلَّ شأنه بعزائمَ على قَدْرِ قوة إيمانهم»[2].

---

(١) «مقـالات الكوثـري» ص٣٨٤. وكرَّرها بإيجاز في موضع آخر مـن «المقالات» ص٤٠٧، وفي «صفعات البرهان» ص٣٩.
(٢) «مقالات الكوثري» ص٤٠٧.

CS CamScanner

٤ . ٨. كلمة أخيرة

وأختِمُ الكلام عن شخصية الكوثري الفكرية بما قاله الكوثريُّ نفسُه ناصحاً بعض الطلبة الذين كانوا يترَدَّدون على زيارته في القاهرة، فيما نقله عنه الأستاذ علي عُلويِ قُورُوجو في «مُذكّراته»: «أولادي الأحِبّة، قد شَهِدَ جيلُنا غروبَ الشمس، لذلك سارع إلينا الانهيار، كانت قلوبنا تَتَفطَّرُ ونحن نرى شمسَ الإسلام تغيبُ شيئاً فشيئاً، فخارَتْ قُوانا واستَبدَّ بنا الإنهاك، ها أنا ذا أُعاني من مرض السُّكّر الذي يزداد شراسةً يوماً بعد يوم، والوَهْنُ يُطِلُّ برأسه في كلِّ عضو من أعضاء، وكم وكم لديَّ من آمالٍ ومشاريعَ أريدُ تدوينها وتحقيقها، ولكني للأسف الشديد لا أكاد أستجمعُ نفسي وأستعيدُ قُواي.

آمُلُ أن يُقِرَّ الله عيونكم برؤية شروق شمس الإسلام من جديد، فالشمس تغيبُ، ولكنَّها ـ لا محالةَ ـ ستُشرِقُ مرّةً أخرى، وها هي علاماتُ قُربِ بزوغ شمس الإسلام تتراءى في الأُفُق، الدلائلُ تشيرُ إلى ذلك، فالفجرُ بدأت خيوطُه تَشُقُّ حُلكةَ الظلام الدامس، إنه قريب إن شاء الله، لذلك فعالَمُ الإسلام ينتظر خدماتِكم الجليلة، لا تَفقِدوا حماستكم عندما يُشرِقُ هذا اليوم المُنتَظَر، واعملوا بكلِّ ما أُوتيتُم من جَلَدٍ وهِمّةٍ حتى تُدركوا ذلك اليوم بقلوب مُتعطِّشةٍ لنور الصباح. أسأل الله تعالى لكم جميعاً أياماً مباركةً بخدمة هذا الدِّين العظيم، بعون الله تعالى ومَنّه»[١].

---

(١) «في صحبة الشيخين: شيخ الإسلام مصطفى صبري ووكيله الإمام محمد زاهد الكوثري» لعلي علويِ قوروجو، ترجمة إياد عمار، ص٣١٣.

قصيدة

حنين المتفجع وأنين المتوجع

نظمها

العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري

(١٢٩٦ - ١٣٧١هـ)

اعتنى بها

الدكتور حمزة البكري

CamScanner

CS CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

١. ضاعَت بلادٌ لنا والجَيشُ مفلُولُ ... فالعَينُ دامِعةٌ والجِسمُ مَنحُولُ
٢. لقد أُصِبْنا بِرُزْءٍ ما أُصِيبَ بهِ ... قَومٌ، فمَنْ مِثلُنا بِالرُّزْءِ مَشمُولُ؟
٣. المُسلِمُونَ بنو العَلّاتِ إخوةُ دِيـ ... ـنٍ، ما لِسَيفِهِمُ بالبَغي مَسْلولُ؟!
٤. عَمَّ البَلِيّةُ ما طابَتْ وقد فَظُعَت ... دَعِ الدِّهانَ، فقَولُ الصِّدقِ مقبولُ
٥. كم تَنقُصُ الأرضُ مِن أطرافِها حِجَجاً! ... طالَتْ وما انقَطَعَت، لا حبَّذا الطُّولُ
٦. أم حانَ حينُ جُناةِ الدِّينِ سَاسَتِنا؟ ... أم هل تُعادُ؟ ونصرُ الله مأمولُ
٧. مَنْجاتُكَ الصِّدقُ لا تَحفِلْ بمُختَرِصٍ ... ما اليومَ أنتَ عن المَنْجاةِ مَكتولُ(١)
٨. قَضى أُغَيلِمةٌ على البلادِ وأهـ ... ـلِيها كأنهما غالَتْهما غُولُ
٩. بالدِّينِ والعِرْضِ والأوطانِ كم لَعِبُوا! ... ونحنُ خُرْسٌ فلا قالٌ ولا قيلُ
١٠. أحداثُ سِنٍّ سِفاهُ العَقْلِ إنَّ بهم ... هلاكَنا، وَهْوَ مَنصُوصٌ ومَعقُولُ
١١. فإن أَطَعْنا هَلَكْنا، أو عَصى أحَدٌ ... مِنّا فعاصِيهِمُ في الحالِ مَعكُولُ(٢)
١٢. لِكُلِّ ناهِقِ زَيغٍ بيننا تَبَعٌ ... وتابعُ الحَقِّ والإسلام مَخذُولُ
١٣. قَضَوا على العِلمِ والإسلام شرَّ قَضَا ... فالقلبُ مُكتَئِبٌ والعقلُ مَخبُولُ

(١) ممنوع. (ز).
(٢) مصروع. (ز).

CamScanner

١٤. وهُمْ هُمُ سَلَبُوا حَقَّ القَضاءِ عنِ الشَّـ ... ـشَرْعِ الأغَـرِّ، فـلا جَـرْحٌ وتَـعْديـلُ
١٥. وفَـوَّضُـوهُ إلـى دَعِـيٍّ مَـعْـدِلَـةٍ ... حيثُ الخِصامُ بقَولِ العِلْجِ مَفصُولُ
١٦. قد عانَدُوا الشَّرْعَ حتّى شَرَّعُوا بِهَوَا ... هُمْ ما اشتَهَوْا وبَدَتْ مِنهُمْ أباطيلُ
١٧. شَرْعانِ لا يَبقَيانِ في دِيارِهِمُ ... فالشَّرْعُ حَقٌّ، وما سَمَّوْهُ تَضْليلُ
١٨. لقد بَدَا أنما أحكامُ شِرْعَتِهِم ... هَتْكٌ وسَفْكٌ وإلحادٌ وتَبْديلُ
١٩. قد جَوَّزوا الجَمْعَ بينَ الأُمِّ وابنَتِها ... كُلُّ المَجُوسِ على ذا العَارِ مَجْبولُ
٢٠. فمَن بِصِهْرَتِهِ أفْضَى فزَوْجَتُهُ ... بانَتْ لدينا، وعَقْدُ البنتِ مَحْلُولُ
٢١. وهُم يقولون: ما بانَتْ، وإنْ حَبَلَتْ ... والعَقْدُ عَقْدٌ، وهذا العِرْضُ مَبذُولُ
٢٢. ولا طلاقَ بحالِ السُّكْرِ عِندَهُمُ ... هَلْ ذا لَهُم نَسَبٌ في الدِّينِ مَدخُولُ؟
٢٣. فإن تَرَوا فيهما أدنى مُصَيلِحَةٍ ... سِوى قِيادةِ أولادِ الخَنَا؛ قُولُوا
٢٤. ولا يَغُرَّنْكَ نَقْلٌ هانَ حُجَّتُهُ ... وشَرْعُهُم عن سِفاحِ الغَرْبِ مَنقُولُ
٢٥. فِقهُ العِراقِ وتَحديثُ الحِجازِ كأنْ ... كِلاهُما اليومَ مَرجُوحٌ ومَعلُولُ
٢٦. كم أحْدَثوا بِدَعاً وكم مَحَوْا سُنَناً! ... إلحادُهُم بِرَدَى الأقوامِ مَوصُولُ
٢٧. كأنَّ كَهْلَهُمُ ما طَرَّ شارِبُهُ ... حَقّاً، وذا مُثْلَةٌ، فالكَهْلُ مَعذُولُ
٢٨. كَسَوا قَلانِسَ (وِيلَهَلْمَ) جَيْشَهُمُ ... (وَيلُ هَلُمَّ) خِطابٌ فيه تَهويلُ
٢٩. كِدْنا نُصَلِّي إلى بَرْلِينَ وِجْهَتِنا ... ومُوقُ أهلِ التُّقى بالدَّمْعِ مَبلُولُ
٣٠. فهل لإعلاءِ دِينِ اللهِ حالَفَنا الـ ... أَلْمانُ أم لَهُمُ في البَغْيِ تَطْفيلُ؟
٣١. سَاقُوا الخَلائقَ للهَيجاءِ، مِزوَدُهُم ... خِلْوٌ عنِ الزَّادِ، لا قَمْحٌ ولا فُولُ

٣٢. عُـزْلاً عُـراةً بـلا زادٍ وراحِـلـةٍ   وإن رأوا مِن حَـشـيـشٍ فَـهْـوَ مـأكُـولُ
٣٣. كم ماتَ صَبْراً وكم بَرْداً وكم سَغَباً!   ما الكُـلُّ إلا إلى الـمَـغْـواةِ مَـغْـتُـولُ[١]
٣٤. في الخِدْرِ كم هَتَكُوا عِرْضَ الكُمَاةِ وَكُلْـ   ـلُـهُمْ بحَـرْبِ العِدى في الثَّغْـرِ مَشْـلُولُ
٣٥. للمُسلِماتِ مَوَاخِيرَ الـقِـيادةِ فـي   كُلِّ الـبـلادِ بَـنَـوْا ، فـهُـمْ مَـرَاذيـلُ
٣٦. سَاقُوا العَفيفةَ للمَاخُورِ مُكرَهـةً   بُـؤسـاً لِمُـسـلِمةٍ حَـسْـناءُ عُطبُـولُ
٣٧. قد غَرَّبُوا ونَفَوا مَنْ لا يَدِينُ لَهُمْ   وحَبْلُهُم لِخِـناقِ الـخَـلْـقِ مَـفـتُـولُ
٣٨. أُبـيحَ مـالُ الـرَّعـايـا مَعْ دِمـائـهِمُ   مَقتُولُهُـم دَمُـهُ فـي البَيْـنِ مَطلُـولُ
٣٩. ودَيْدَنُ القَومِ قَـتْلُ الأبرياءِ ، فكُلْـ   ـلٌ عـن جِـنـايَـتِـهِ يـومـاً لَـمَـسؤُولُ
٤٠. لم يَسْـلَمِ الدَّيْرُ منهم بل جَوامِعُنا   بل كُـلُّ حَلْـيٍ رسـولِ الله مَـسـلُـولُ
٤١. سِيّانِ جَانٍ وأهلُ العِلـم عِندَهُمُ   مَـنْ قـالَ حَـقّـاً فمَخنُـوقٌ ومَـقـتُـولُ
٤٢. واللهُ أيّدَ مَـوْلانـا (الوحيدَ)، فما   يـكـونُ لِلعِـلـم بـعـدَ اليوم تَذْلـيـلُ
٤٣. لم يُنْسَ مـا اقتَرَفُوهُ حينَما زَحَفُوا   مِن مَـهْـدِ شِـرّتِـهِم، والقَلْـبُ مَـبلُولُ
٤٤. كم بُندُقاً أطلَقُوا على جَوامِعِنا!   فالـمُستَجيرُ بـهـا خَـوْفـاً فـمَنكُـولُ
٤٥. أينَ العَمائمُ؟ أم أينَ اللِّحَى وذَوُو   هـا؟ أيـنَ بـادُوا؟ أذاكَ الـيـومَ مجهولُ؟
٤٦. أضْحَتْ مدارِسُنا[٢] مأوى أُولاتِ خَنَا   واهاً لِـفـاتِـحِـنـا! هل ذا لكَ السُّـولُ؟
٤٧. فالقَـولُ حَـقٌّ على فُـسّـاقِـنا تَـرَفـاً   هـذا دليـلٌ، وذا الـتَّـدمـيـرُ مَـدلُـولُ
٤٨. أرضٌ مُقَـدّسـةٌ عنّـا قدِ انتُـزِعَـتْ   آيـاتُـهـا انـتُـبِـذتْ، فالعَيْـشُ مَـمـلُـولُ

---

(١) مَسُوق بعُنف. (ز).   (٢) كإحدى المدارس الثمان. (ز).

٤٩. أعلامُها انتكَسَتْ، صُلْبانُها ارتفَعَتْ تُتلى بها اليومَ تَوْراةٌ وإنجيلُ
٥٠. بلا (صلاحٍ) فهل تُرجَى استِعادتُها؟ وما الصَّلاحُ لنا في الكَوْنِ مأمولُ
٥١. أينَ العِراقُ ويَثْرِبٌ؟ وكم بَلَدٍ زاهٍ إلى حَلَبٍ مِنّا مَناسِيلُ؟
٥٢. فيا تُرى، هل رأى قَومٌ ضَرائبَهُم شُؤماً ولُؤماً؟ فهُم عُمْيٌ مخاذيلُ
٥٣. قُلتُم: سيَخرُجُ دَجّالٌ، أقولُ: نعم هُمُ دَجاجِلةٌ، ذاكُم دُجَيْجيلُ
٥٤. عليهِمُ لَعْنةٌ مِن أُمَّةٍ وُتِرَتْ مَهْما تَناسَلَ جيلٌ بعدَهُ جيلُ
٥٥. فما اعتَدى زاهِدٌ في القَولِ يُنشِدُهُم ضاعَتْ بلادٌ لنا والجيشُ مَفلُولُ

ضحوة يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرَّم الحرام
من سنة سبع وثلاثين وثلاثِ مئةٍ وألفٍ من الهجرة النبوية
على صاحبها أزكى التحية

صُوَرُ القَصِيدَة في الأَصْل المنشُورَة عَنْه

CamScanner

CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

ضاعت بلاد لنا والجيش مغلول ... فالعين دامعة والجسم منحول
لقد اصبنا برزء ما اصيب به ... قوم فمن ؟ مثلنا بالرزء مشمول
المسلمون بنو العلات اخوة دي ... ن ما لسيفهم بالبغي مسلول
عم البلية ما طابت وقد فعلت ... طالت وما انقطعت لاحبذا الطول
كم تنقص الارض من اطرافها حججا ... ام هل تعاد وندعو الله مأمول
ام حان حين جناة الدين ما ستنا ! ... دع الدهان فقول الصدق مقبول
منجاتك الصدق لا تحفل بمخترص ... ما اليوم انت عن المنجاة مكتول (١)
قضى اغيلمة على البلاد وأه- ... -ليها كأنهما غالتهما غول
بالدين والعرض والاوطان كم لعبوا ... ونحن خرس فلا قال ولا قيل
آحداث من سفاه العقل ان يهم ... هلاكنا وهو منصوص ومعقول
فان اطعنا هلاكنا او عصى احد ... منا فما صبهم في الحال مكبول (٢)
لكل ناهق زيغ بيننا تبع ... وتابع الحق والاسلام مخذول
قضوا على العلم والاسلام شر قضا ... فالقلب مكتئب والعقل مخبول

(١) ممنوع (٢) مصروع

وهم هم سلبوا حق القضاء عن الا ... شرع الا فمن فلا جرح و تعديل
وفو ضوه الى دمى معدلة ... حيث الحصام بقول العلج مفصول
وقد عاندوا الشرع حتى شرعوا بهوا ... هم ما اشتهوا وبدت منهم اباطيل
شرعان لا يبقيان فى ديارهم ... فالشرع حق وما سموه تضليل
لقد بدا انما احكام شرعتهم ... هتك وسفك والحاد وتبديل
قد جوزوا الجمع بين الام وابنتها ... كل المجوس على ذا العار مجبول
فمن بصهرته افضى فزوجته ... بانت لدينا وعقد البنت محلول
وهم يقولون ما بانت وان حبلت ... والعقد عقد وهذا العرض مبذول !
ولا طلاق بحال السكر عندهم ... هل ذا لهم نسب فى الدين مدخول
فان تروا فيهما ادنى مصلحة ... سوى قيادة اولاد الخنا قولوا
ولا يغرنك نقل هان حجته ... وشرعهم عن سفاح الغرب منقول
فقه العراق وتحديث الحجاز كأن ... كلا هما اليوم مرجوح ومملول!
كم احدثوا بدعاوكم محوا سننا ... الحادهم بردى الاقوام موصول
كأن كهلهم ماطر شاربه ... حقا و ذا مثلة فالكهل معذول
كسوا قلانس ويلهم جيشهم ... ويل هلم خطاب فيه تهويل
كدنا نصلى الى برلين وجهتنا ... وموق اهل التقى بالدمع مبلول
فهل لاعلاء دين الله حالفنا!! ... المان ام لهم فى البغي تطفيل
ساقوا الخلائق للهيجاء مزودهم ... خلو عن الزاد لا قمح و لا فول
عزلا عراة بلا زاد وراحلة ... وان را وامن حشيش فهو ماكول

كم مات صبراً وكم برداً وكم سغباً … ما الكل الا الى المثواة محمول [١]

في الحدر كم هتكوا عرض الكماة وكل … لهم بحرب الفدا في الثغر مشغول

لتمسلمات مواخير القيادة في … كل البلاد وبغواهم مراذيل

ساقوا العفيفة لما خور مكرهة … بؤساً لمسلمة حسناء عطبول

قد غربوا وغوامن لايدين لهم … وحبلهم لختناق الحلق مفتول

ابيح مال الرعايا مع دمائهم … مقتولهم دمه في البين مطلول

وديدن القوم قتل الابرياء فكا … لٌ من جنايته يوماً لمسئول

لم يسلم الدير منهم بل جوامعنا … بل كل حلي رسول الله مسلول

سيان جان واهل السلم عندهم … من قال حقا فمخنوق ومقتول

والله ايد مولانا الوحيد فما … يكون للعلم بعد اليوم تذليل

لم ينس ما اقترفوه حينما زحفوا … من مهد شيرتهم والقلب منبول

كم بندقاً اطلقوا على جوامعنا … فالمستجير بها خوفاً فمكول

اين المعالم؟ ام اين اللحى وذوو … ها ان بادوا؟ اذاك اليوم مجهول؟

اضحت مدارسنا مأوى او لات خنا (٢) … واهالنا تحاهل ذاك السول

فالقول حق على فساقنا ترفا … هذا دليل وذا التدمير مدلول

ارض مقدسة عاقد انتزعت … آيا تها انتبذت فالعيش مملول

اعلامها انتكست صلبانها ارتفعت … تتلى بها اليوم توراة وانجيل

بلا (صلاح) فهل ترجى استعادتها … وما الصلاح لنا في الكون مأمول

(١) مسوق بعنف (٢) كاحدى المدارس الثان

٦

اين العراق ويثرب؟ وكم بلد ... زاه الى حلب منا منا سيل ؟
فيا ترى هل رأى قوم ضرائبهم ... شؤما كأولاء مأفهم عمي عاذيل
قلتم سيخرج دجال اقول نعم ... هم دجاجلة ذاكم دجيجيل
عليهم لعنة من امة وترت ... مهما تناسل جيل بعده جيل
فاالعتدى زاهدق القول ينشدهم ... ضاعت بلادلنا والجيش مغلول

ضحوة يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم الحرام من
سنة سبع وثلاثين وثلثمأة والف من الهجرة
النبوية على صاحبها
ازكى التحية

شرح

حنين المتفجع وأنين المتوجع

بقلم

الدكتور حمزة البكري

CamScanner

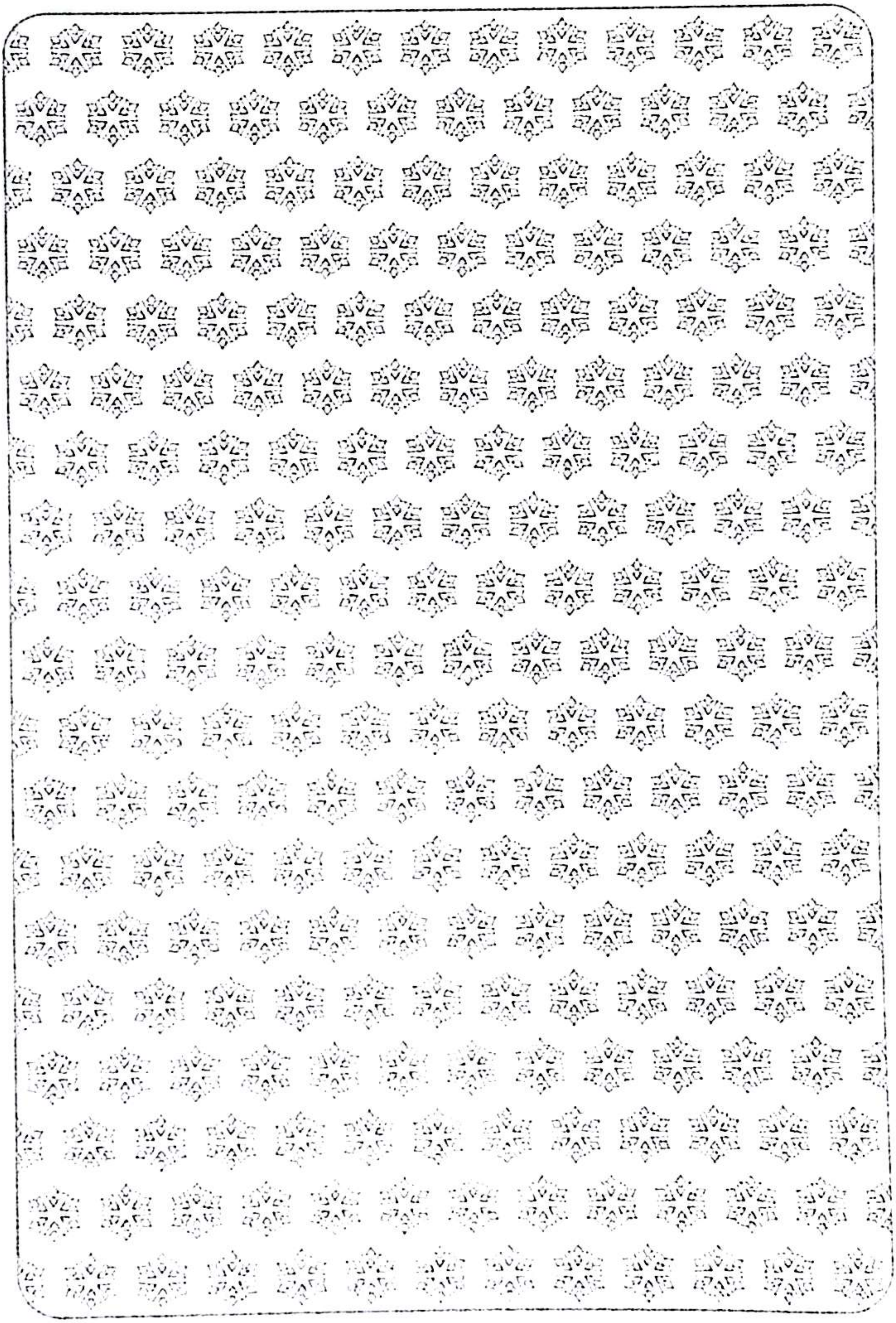

CamScanner

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد خاتم النبيِّين، وعلى آله الطاهرين المُطهَّرين، وصحابته المُكرَّمين، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فهذا شرح مُوجَز على قصيدة «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع» للعلامة الشيخ محمد زاهد الكوثريّ، قصدتُ فيه بيانَ خفاياها وإبراز خباياها، وإيضاحَ مُشكِلاتها وتفصيلَ مُجمَلاتها، مع كشف الضمائر والمُبهَمات، وتجلية المقاصد والغايات، ولم أتوسَّع في قضايا النحو والإعراب إلا فيما تمسُّ إليه الحاجة؛ بأن يكونَ في بيانه حلُّ إشكال وردُّ اعتراض ونحوهما، أو يكونَ في ذِكرِه مَعُونةٌ على فهم المعنى وبيان المقصود، وعرَّجتُ على القضايا البلاغية من البيان والمعاني والبديع بما لا يخرجُ عن سياق شرح الألفاظ وبيان المعاني، ولا يُخِلُّ بحلِّ التراكيب وفكِّ المباني.

قال الناظم رحمه الله تعالى بعد الافتتاح بالبسملة:

١. ضاعَت بلادٌ لنا والجَيشُ مفلُولُ   فالعَينُ دامِعةٌ والجِسمُ مَنحُولُ

يتحسَّر على البلاد الواسعة التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية،

وسقطت بهزيمتها في الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦هـ=١٩١٨م، ومنها بلاد الحجاز والشام والعراق التي تقاسَمَها الإنجليز والفرنسيُّون، وسيأتي ذِكرُها في هذه القصيدة بنوع تفصيل في الأبيات (٤٨-٥١). فالتنكير في «بلاد» للتعظيم، والتعريف في «الجيش» للعهد الذهنيّ، وهو الجيش العثماني، ومفلول، أي: مهزوم، من: فلَّ القومَ، أي: هزَمَهم(١)، وأصلُه من الفَلّ، وهو الثَّلْمُ والانكسار في السيف والسِّكّين ونحوهما(٢)، والجملة حاليّة، أي: فقَدْنا تلك البلادَ الشريفة والأراضي المباركة، والحالُ أنَّ جيشَ دولةِ الخلافة وسلطنةِ الإسلام مُنهَزِمٌ.

ولا شك أن هذه الحالَ حالُ كَرْبٍ وغمٍّ، ولذا صوَّر بقوله: «والجسمُ منحولُ» ما كانت عليه أحوالُ المسلمين عند سماع تلك الأنباء من الحزن والانكسار، وجوهُهم شاحبة، وعيونُهم باكية، وأجسامُهم هزيلة، يُقال: نحَلَ جسمُه نُحولاً، إذا ذهَبَ من مرض أو سفر، فهو ناحلٌ ونَحيلٌ، وأنحَلَه المرضُ والهمُّ فهو منحولٌ(٣). فالتعريفُ في «العين» و«الجسم» للعهد، أو عِوَضٌ عن المضاف إليه، أي: عيون المسلمين وأجسامهم، والناظمُ نفسُه داخلٌ في هذا العموم أيضاً.

وإنما قال: «فالعينُ دامعةٌ»، ولم يقل: «فالعينُ باكيةٌ» ـ مع أن وزنَ البيت

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، (فلل).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٤: ٤٣٤ (فل)، و«تاج العروس» للزبيدي ٣٠: ١٩٦ (فلل).

(٣) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٥: ٤٠٣ (نحل)، و«تاج العروس» للزبيدي ٣٠: ٤٦٤ (نحل).

يستقيم بكلٍّ واحد منهما، و«البكاء» أشدُّ من «الدَّمْع» ـ تعبيراً عن الحزن المكتوم والهمِّ المستور، وهو ما تظهر آثاره بالدَّمْع شيئاً بعد شيء، وهذا الحزنُ هو ما تحترقُ منه النفسُ، ويَتَفطَّرُ له القلب.

ثم قال مُعلِّلاً الحالَ التي هم عليها من الحزن والهمِّ بعِظَم المصيبة وشدّة وَقْعِها، ومبيِّناً وَصْفَ ما أشار إليه في البيت السابق من ضياع البلاد وانهزام الجيش، مؤكِّداً باللام الموطِّئة للقَسَم:

٢. لقد أُصِبْنا بِـرُزْءٍ ما أُصِيبَ بِهِ قَـومٌ، فمَنْ مِثْلُنا بِالـرُّزْءِ مَشمُولُ؟

والـرُّزءُ: المصيبة، وكذا الرزيئةُ والمَرزِئة[1]، أو هي المصيبة بفَقْدِ الأعِزّة[2]، و«ما» في قوله: «ما أُصيبَ به قومٌ» نافية، والجملةُ صفةُ «رُزْءٍ»، يعني: أنها مصيبةٌ عظيمة حَلَّت بالمسلمين في هذا العصر لا يكاد يوجد مثلُها في تاريخهم، فالمرادُ بقوله: «قوم» جماعةٌ كثيرة من الناس عموماً أو من المسلمين خصوصاً عبر العصور، ولذا فرَّع على هذا النفي قولَه: «مَنْ مِثْلُنا بالرُّزء مشمولُ؟»، والاستفهام للنفي والإنكار، أي: ليس ثمّةَ أحدٌ أصابه مِثلُ ذلك الرُّزء.

والنفيُ المذكور يحتملُ أن يكون على الحقيقة، فإن هذه المصيبة لم تقف عند ضياع تلك البلاد، بل سقطت بإثرها الخلافةُ نفسها، وبسقوطها زالت دولةُ الإسلام ومُنِعَت شعائره وحُورِبت أحكامه في كثير من البلدان، وما زال العالم الإسلاميُّ يتجرَّع تلك المرارةَ إلى يومنا هذا وقد مضى عليها أكثر من

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١: ٨٦ (رزأ)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (رزأ).
(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١: ٨٦ (رزأ).

قرن، ويحتملُ أن يكون على المبالغة، نظراً إلى ما حلَّ بالمسلمين من مصائبَ مماثلة، كاستيلاء المغول على ديار الإسلام وسقوط الدولة العباسية بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، فقد كانت مصيبةً يُنبِئُ عن عِظَم مُقدِّماتها وشِدّةِ مُلابَساتها قولُ ابن الأثير في «تاريخه» في حوادث سنة ٦١٧هـ مؤرِّخاً بدءَ زَحْفِ المغول من أطراف الصين إلى ديار الإسلام، واستيلائهم على بلاد تُرْكستان وما وراء النهر وخراسان، ووقوفهم على مشارف العراق: «لقد بقيتُ عِدّةَ سنين مُعرِضاً عن ذِكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أُقدِّمُ إليه رجلاً وأؤخِّرُ أخرى، فمَن الذي يَسهُل عليه أن يكتب نَعْيَ الإسلام والمسلمين؟ ومَن الذي يهونُ عليه ذِكرُ ذلك؟ فيا ليت أُمّي لم تَلِدْني، ويا ليتَني مِتُّ قبل حدوثها وكنتُ نَسْياً مَنْسيّاً، إلا أنني حَثَّني جماعةٌ من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقِّف، ثم رأيتُ أن تَرْكَ ذلك لا يُجدي نفعاً، فنقول: هذا الفِعلُ يتضمَّنُ ذِكرَ الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عَقَّت الأيامُ والليالي عن مِثلها، عمَّتِ الخلائقَ وخَصَّتِ المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مُذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتَلَوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمَّن ما يُقارِبُها ولا ما يُدانيها»[١].

وما زالت الأيام على مرِّ العصور زاخرةً بالحوادث الأليمة والنوائب العظيمة، وما زالت الأمةُ تقوم غِبَّ انكسار، وتَنهَضُ إثرَ ضعف، نسأل الله أن يُعجِّلَ بالفَرَج، وأن يُديمَ العافية.

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ١٠: ٣٣٣.

ومما زاد من عِظَم هذا الرُّزء الذي أشار إليه الناظم أنْ وقَعَ به التفرُّقُ المذموم فيما بين المسلمين أنفسِهم من رعايا الدولة العثمانية، فبغى بعضُهم حاملين السلاحَ للطعن في ظهر الدولة، متحالفين مع شرّ أعدائها، طامعين في سلطة زائلة، وما كان ينبغي لهم أن يقوموا بذلك، فإن أخوّة الإسلام مُقدَّمة على مصالح الأفراد والجماعات، وهو ما ذكره الناظم بقوله:

٣. المُسلِمُونَ بنو العَلّاتِ إخوةُ دِيـ ـنٍ، ما لِسَيفِهِمُ بالبَغي مَسْلولُ؟!

يعني: أنّ دينَهم واحد وأعراقَهم وأنسابَهم مختلفة، فبنو العَلّات: هم بنو رجل واحد من أمهات شتّى، شبَّه المسلمين في اتحاد دينهم واختلاف أعراقهم ببني العَلّات، وهم الإخوة لأب، وهذا التشبيهُ جارٍ على نظام قوله عليه السلام: «الأنبياءُ إخوةٌ لعَلّات، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد»[1]، وفي رواية: «الأنبياء أولاد عَلّات»[2]، بمعنى: أن عقائدهم الإيمانية واحدة، وشرائعهم الفقهية مختلفة.

وليس بخافٍ ما عاشه المسلمون طَوالَ تاريخهم من أُخوّة إيمانية عظيمة، تَسامَتْ بها نفوسُهم فوق النَّعَرات الجاهلية، والدَّعَوات العُنصُرية، من تعصُّبات عِرْقية بالية، وتفاخُرات قومية واهية، على وَفْق ما غرَسَه القرآن الكريم في قلوبهم من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وما تعاهَدَه النبيُّ الأكرم ﷺ في نفوسهم من ترسيخ هذا المعنى

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجها البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة.

CamScanner

وتنميته، كما في تسميته أمثالَ تلك الدَّعَوات بـ«دعوى الجاهلية» قائلاً: «دَعُوها فإنها خبيثة»[(١)]، وفي رواية: «فإنها مُنتِنة»[(٢)]، وكما في قوله: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفَخْرَها بالآباء، مؤمنٌ تقيّ، وفاجرٌ شقيّ، أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب»[(٣)]، وعُبِّيَّةُ الجاهلية: كِبرُها[(٤)]، وكان من خُطبته عليه السلام المعروفة بخطبة الوداع قولُه: «يا أيها الناس، ألا إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربي على عَجَميّ، ولا لِعَجَميٍّ على عربي، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلا بالتقوى»[(٥)]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وكذلك عاش المسلمون في ظلِّ الدولة العثمانية أحقاباً كثيرة، على اختلاف أنسابهم وتنوُّع أعراقهم، إلى حلول ذلك العهد المشؤوم، عهد الاتحاديِّين الذي تدور أبياتُ هذه القصيدة في ذمِّه وذِكر قبائحه ومآسيه، فإنه على قِصَرِه ـ إذ لم يَدُم إلا نحوَ عَقْدٍ من الزمان (١٩٠٨-١٩١٨م)، فإن أخذناه مع مُقدِّماته التاريخية ابتداءً من حادثة إلغاء الإنكشارية سنة ١٩٢٦م لم يتجاوز قرناً واحداً ـ قد أسفَرَ عن بروز النَّزَعات القومية بقوة، كالتركية والعربية والكُردية والأرمنية، إلى أن انتهى ذلك بحوادث البغي والثورات الانفصالية المشار إليها في هذا البيت. ولا ينبغي أن يُفهَم من هذا الذي قلناه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجها البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير ٣: ١٦٩.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩).

تسويغُ ذلك البغي، لأن الخطأ لا يُعالَجُ بخطأ، والمفسدةَ لا تُداوى بمفسدة، فضلاً عن مفسدةٍ أكبرَ منها.

وقوله: «بالبغي» متعلّق بالحال من ضمير نائب الفاعل في «مسلول»، والتقدير: ما لسيفهم مسلولٌ هو حالَ كونه مُتلبّساً بالبغي. وسلُّ السيف: إخراجُه من غِمدِه في رِفقٍ[1]، وهو كنايةٌ عن القتال، أي: ما ذاك الأمر الذي دعا بعضَ المسلمين إلى البغي على خليفة المسلمين وسلطانهم، واستَدْعاهم إلى القتال فيما بينهم؟ والاستفهام للتعجُّب.

والبغيُ: الخروجُ عن طاعة الإمام الحقّ بتأويل من غير استباحة الدماء ونحوها، وذلك أن الخارجين عن طاعة الإمام أربعة أصناف:

أحدها: الخارجون بلا تأويل لإخافةِ الناس وقَتْلِهم وأخذِ أموالهم، وهم قُطّاع الطريق.

والثاني: الخارجون بتأويل ولا مَنَعةَ لهم، فحكمهم حكم قُطّاع الطريق.

والثالث: الخارجون بتأويل ولهم مَنَعةٌ وحميّة، يرون أنه على باطل من كفر أو معصية يُوجِبُ قتاله بتأويلهم، وهؤلاء يُسمَّون بالخوارج.

والرابع: الخارجون بتأويل ولهم مَنَعةٌ كذلك، إلا أنهم لم يستبيحوا دماءَ المسلمين وسَبْيَ ذراريهم، وهم البُغاة[2].

ثم قال مؤكِّداً ما ذكره من شدّة المُصيبة، مبيِّناً وجهاً من وجوه عِظَمِها، وهو

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٣٣٨ (سلل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (سلل).

(٢) انظر: «فتح القدير» لابن الهمام ٦: ٩٩.

تعلُّقها بالمسلمين عموماً، لا بجماعةٍ خاصّةٍ منهم أو بُقعةٍ معيَّنة من ديارهم:

٤. عَمَّ البَلِيّـةُ ما طابَتْ وقد فَظُعَت دَعِ الدِّهانَ، فقَولُ الصِّدقِ مقبولُ

والبَلِيّةُ: الامتحان والاختبار، والتأنيثُ فيها لفظيٌّ، فيجوز تذكيرُ الفعل وتأنيثُه، وقد أتى به مُذكَّراً فقال: «عمَّ»، أما الفِعلان «طابت» و«فَظُعَت» فالفاعلُ فيهما ضميرٌ مُستَتِر عائدٌ إلى مُؤنَّث، وفي هذه الحال يجبُ تأنيثُ الفعل[1].

وقد قالوا: «البلاء يكون مِنحةً ويكونُ مِحنةً، فالمِحنةُ مقتضيةٌ للصبر، والمِنحةُ أعظم البلاءين»[2]، والمراد هنا: المِحنة، بدلالة قوله: «ما طابت وقد فَظُعَت»، أي: لم يكن البلاءُ الذي ابتُليناه مِنحةً طيِّبة، بل كان مِحنةً فظيعة، والفَظَعُ: شدّةُ الشناعة ومجاوزةُ المقدار[3]، والمعنى: شاعت المِحنةُ واشتدّت شناعتُها.

وقد يقول قائل: كيف يُوصَفُ البلاء بالفظاعة والشناعة، وهو بتقدير الله تعالى وقضائه، ومرجعُه إلى فِعلِه تعالى وخَلْقِه؟ فالجواب: أن البلاء قد يكون طيِّباً حسناً وقد يكون شنيعاً قبيحاً، وليس هو فِعلَ الله تعالى، وإنما هو مفعولُه، ففِعلُ الله تعالى هو الابتلاء بالبلاء، وقد يكون الفعلُ حسناً والمفعولُ قبيحاً، كما بيَّنه العلامة ابن كمال باشا، مُستَشهِداً عليه بنظير معقول في الشاهد المحسوس، وهو أن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العَوْجاء والحجرَ المكسور، فوضعهما في موضع يناسبهما من البناء، كان فِعلُه محموداً ممدوحاً، وإن كان العِوَجُ الذي في الخشبة عيباً تُذَمُّ به

(١) انظر: «جامع الدروس العربية» للغلاييني ٢: ٢٤٠-٢٤١.

(٢) «تاج العروس» للزبيدي ٣٧: ٢٠٧ (بلي).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٨: ٢٥٤ (فظع)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (فظع).

CamScanner

الخشبة، والكَسْرُ الذي في الحجر نقصاً يُعابُ به الحجر، ثم ضرب له مثالاً بوَضْع الخبائث في موضعها ومحلِّها اللائق بها، ووَضْع العِمامة على الرأس، ووَضْع النَّعْل في الرِّجْل، والكُحْل في العين، والزُّبالة في الكُناسة، فهذا الوَضْعُ كلُّه حَسَنٌ وحكمةٌ وصواب، وأما الموضوع فقد يكون حسناً كالكُحْل الذي في العين، وقد يكون قبيحاً كالزُّبالة التي في الكُناسة(١).

وعليه، فالابتلاءُ بالمصائب حكمةٌ حسنة، والبلاءُ الذي هو المصيبة نفسها قبيحٌ، وخَلْقُ القبيح ليس قبيحاً كما هو مذهب أهل السُّنّة والجماعة، على ما يشهد له قوله عليه السلام: «عَجَباً لأمر المؤمن، إنَّ أمرَه كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابَتْه ضرّاءُ صبَرَ فكان خيراً له»(٢)، فوصف ما يقع على العبد ويصيبُه بالسَّرّاء تارةً والضَّرّاء أخرى، أما فِعلُ الله فهو إيقاع هذه السَّرّاء وتلك الضَّرّاء به، وله تعالى في ذلك حكمةٌ بالغة، ولذا لم يكن إيقاع القبيح قبيحاً، كالأب يُوقِعُ على طفله الصغير الألم أحياناً ليُعلِّمَه، فيكون إيلامُه له مُستَحسَناً، والألمُ نفسُه مُستَقبَحاً.

على أنَّ هذه المحنةَ ينبغي أن يُنظَر إليها من جهتين:

إحداهما: جهةُ مباشرةِ الناس أسبابَها باختيارهم، وارتكابهم مُقدِّماتِها بإرادتهم، وقد أجرى الله عادتَه بإيقاع النتائجِ عند مباشرة الناس الأسبابَ، وإيجادِ الآثار عند إتيانهم المقدِّمات، فكان اللومُ واقعاً عليهم فيها، لانسياقهم

---

(١) انظر: «رسالة في بيان عدم نسبة الشر إلى الله تعالى» لابن كمال باشا ٦: ٣٨٧ من «مجموع رسائله».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان الرومي.

في مباشرة تلك الأسباب وارتكاب تلك المقدّمات، مع سلامةِ عقولهم التي من شأنها أن تنهاهم وتُحذِّرَهم، وكثرةِ النصوص الشرعية التي تُنذِرُهم وتُبيِّن لهم.

وثانيتهما: جهةُ إيقاعها وإيجادها من الله على الناس، تبعاً لجري العادة المذكور آنفاً، وهو مقتضى حكمته تعالى بجَعْل الإنسان حُرّاً مختاراً في هذه الدار، فلو منع الله تعالى وقوعَ هذه النوائب بعدما تولّى المُفسِدون زمامَ الأمور ومقاليدَها، وباشروا أسبابَها وسلكوا سبيلَها، لكان سالباً لهم إرادتَهم، حائلاً بينهم وبين مراداتِهم، وهو يُنافي مقتضى الحكمة.

وعليه، فالاقتصارُ في مثل هذه النوائب والمصائب على نسبتها إلى الله تعالى من غير تحميل الناس مسؤوليّةَ أفعالهم المؤدِّية إليها خطأٌ فادح. وقد تكلَّمنا عن الجهة الثانية آنفاً، أما الجهة الأولى فسيأتي ذِكرُها عند الناظم رحمه الله تعالى في الأبيات (٨-٤٦).

والدِّهان والمُداهَنة: إظهار الشخص خِلافَ ما يُضمِر(١)، أي: ينبغي علينا بيانُ هذا المُصاب الشنيع من غير مُصانَعةٍ ولا مُوارَبة؛ فإن المريض ما لم يُبيِّن شكواه لا يُعالَج، ولذا قال: «فقولُ الصدق مقبولُ»، والقول: مصدر، فإن كان بالمعنى المصدريّ فإضافةُ «الصدق» إليه من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: أن تقولَ الكلامَ الصِّدقَ أمرٌ مقبول، ثم حُذِفَ الموصوف ـ وهو «الكلام» ـ وأُقيمت صفتُه مُقامَه للمبالغة، وإن كان بمعنى الحاصل بالمصدر فإضافتُه إليه

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٣: ١٦٢ (دهن)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (دهن).

من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: القولُ الذي هو صِدقٌ قولٌ مقبول.

ثم شـرع في تفصيل وجوه الشـناعة التـي انطوت عليها البليّـةُ المذكورة، فقال:

٥. كم تَنقُصُ الأرضُ مِن أطرافِها حِجَجاً! طالَتْ وما انقَطَعَت، لا حبّـذا الطُّولُ

المـرادُ بنقصان الأرض من أطرافها: خسـارةُ الدولة العثمانية لمسـاحات واسعة وبلاد عديدة من أراضيها، على ما سبقت الإشارةُ إليه إجمالاً في البيت الأول، وسـيأتي بعـضُ تفصيلـه فـي الأبيـات (٤٨-٥١)، والسّـياقُ يُؤيّد هذا الوجه.

ويحتملُ أن يكون مجازاً عن ذهاب العلماء والأخيار، كما هو أحدُ الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، فقد ذهب جماعةٌ من المفسّرين إلى أن معناه: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها[١]، وهذا القول وإنِ استبعده الواحديُّ من جهة سياق الآية مصرِّحاً بأنه لا يليقُ بهذا الموضع، فاللفظُ يحتملُه كما قال[٢]، وجعل ابنُ عطية كلَّ ما ذُكِرَ في تفسير الآية ـ ومنها هذا القول ـ داخلاً في لفظها[٣]، على أنّ الإمامَ الرازيَّ قد وجّهَه توجيهاً حسناً بحيثُ يليقُ بالسّياق[٤]، وتابعه أبو حيان[٥]. وإنما كان

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري ١٣: ٥٧٩، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب ٥: ٣٧٦١.

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي ١٢: ٣٨٤.

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية ٣: ٣١٩.

(٤) انظر: «التفسير الكبير» للرازي ١٩: ٥٣.

(٥) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان ٦: ٤٠١.

ذهابُ العلماء والأخيار وجهاً من وجوه الشناعة في البليّة المذكورة، لأنه كان إقصاءً مُتعمَّداً لهم من بعض أصحاب المناصب السياسية في ذلك العهد، أَعَدُّوا له الخُطَط وقدَّموا له البرامج، ولـمّا سَنَحَت لهم الفرصة سارعوا إلى تطبيقه بالقَتْل والسَّجْن والعَزْل ونحوها. وسيأتي الكلامُ عما فعَلَه هؤلاء الساسة بالعلماء في الأبيات (٤١، ٤٥-٤٦).

و«كم» خبريّةٌ للتكثير، وتمييزها محذوف، والتقدير: «كم بلدٍ» على **الوجه الأول** ـ أو «كم عالِمٍ» على **الوجه الثاني** ـ، وقولُه: «حِجَجاً» ظرفُ زمانٍ بمعنى: سنوات، مُتعلِّق بـ«تنقُص»، أي: كثيراً من البلاد نقَصَت الأرضُ من أطرافها في سنواتٍ، يعني: السنوات العشر الأخيرة (١٩٠٨-١٩١٨م) التي هي مِحوَرُ هذه القصيدة.

ثم بيَّن أن هذه المصيبة طويلةٌ ممتدّة فقال: «طالت وما انقطعت»، أي: لو كثُرت وطالَتْ تلك السّنون العِجافُ ثم انقطعت وعادت الأحوالُ إلى الخير والصلاح لسَهُلَ الأمرُ وهان الخطبُ، ولكنَّ البليّةَ مستمرّة باقية.

ولمّا كان المُتبادِرُ بحسب العُرف وجَرْي العادة أنَّ الاستمرار والبقاء خيرٌ من الزوال والفناء، أراد دفعَ هذا التوهُّم والاحترازَ عنه بقوله: «لا حَبَّذا الطُّولُ»، وهو تركيبٌ يفيد الذَّمَّ، لأن «لا حبَّذا» فِعلٌ لإنشاء الذم، كـ«بئس» و«ساء»، فجُمَلُها إنشائيةٌ غير طلبيّة، لا خبريّةٌ[1]، و«لا» نافية، و«حَبَّ» فعلٌ ماضٍ، و«ذا» اسمُ إشارة، وهو الفاعل، و«الطول» ـ وهو المخصوصُ بالذم ـ مبتدأ مؤخَّر، خبرُه جملةُ «لا حبَّذا».

---

(١) انظر: «جامع الدروس العربية» للغلاييني ١: ٧٤.

CamScanner

ثم قال الناظم متسائلاً:

٦. أم حانَ حينُ جُناةِ الدِّينِ سَاسَتِنا؟ أم هـل تُـعـادُ؟ ونـصـرُ الله مـأمـولُ

«أم» الأولـى: منقطعة، ولا يُفارِقُها معنى الإضراب، وقد تقتضي مع ذلك استفهاماً إنكارياً أو طلبياً[1]، فالتقدير: بل أحانَ حينُ جناةِ الدين؟ والاستفهامُ طلبيٌّ. و«أم» الثانية: متصلة، وهي المسبوقةُ بهمزة يُطلَبُ بها وبـ«أم» التعيينُ[2].

والحين: وقتٌ مُبهَم يصلح لجميع الأزمان، سواء كان طويلاً أو قصيراً[3]، يتساءلُ الناظم متخوِّفاً ومُخوِّفاً: هل انتهى وقتُ حُماة الدِّين وآنَ وقتُ جُناته؟ أي: الجناة عليه، وهم أولئك الساسةُ التي تبوَّؤوا الوظائفَ في مُؤسَّسات الدولة وتقلَّدوا المناصب في إدارتها، أم هل ترجعُ الأمور إلى ما كانت عليه في سالف الأيام من هداية ورشاد، وتعودُ الأحوال إلى ما كانت عليه من سلامة وسَداد؟

وهـذا استِحضارٌ منه لِصُورتَيـن مُتضادَّتَين مـن تاريخ الدولـة العثمانية، الأولـى حيثُ كان ساستُها ورجالُ حكوماتها وأصحـابُ النُّفوذ فيها مُلتَزِمين أحـكام الشـريعة، مُعظِّميـن للعلـوم الدينيـة وأهلهـا، والثانيـة حيـث صـارت السـلطةُ بأيدي الاتحاديِّين بعد الانقلاب الدسـتوري سنة ١٩٠٨م، فسَعَوْا في محاربة تلك العلوم والتضييق على من يَنتَسِـبُ إليها، وانتشـرت في المجتمع

(١) انظر: «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام ٣: ٣٣٧-٣٣٨، و«مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» له ص٧٩.

(٢) انظر: «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام ٣: ٣٣٣.

(٣) انظر: «لسـان العرب» لابن منظور ١٣: ١٣٣ (حيـن)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (حين).

الأفكار العَلْمانيـة والماديـة والوضعيـة، وكان البـرزخُ بين تَيْـنِك الصورتين تلـك التحوُّلات الواقعـة في عهد التنظيمـات، حيث توجَّهَت الأنظـارُ مُنبَهِرةً إلى الحياة الغربية، وتطلَّعت الأفكارُ متشوِّفةً إلى الحضارة الأوروبية، على ما سبق بيانُه في الدراسـة، يَستَحضِرُهما الناظم لإيقاظ الغافل، وإعلام الجاهل، وتذكير العاقل، وتسديد العامل.

وفي اسـتعماله في الشِّقِّ الثاني الفِعلَ المبنيَّ للمفعول «تُعاد» دون المبنيِّ للفاعـل «تعـود» إشـارةٌ إلى أن الأمـور لا تعود وحدها إلى مـا كانت عليه، بل لا بـدَّ لهـا من إعادة، ولا تكون الإعادة إلا ببَذْل جُهدٍ وسَـعْيٍ وعمل مع توفيق من الله وتيسـير، وهو مَرْجوٌّ في كلِّ حال، ويتأكَّدُ رجاؤه عند استفراغ الطاقات فـي تحصيل الأسـباب وإتمـام الإعداد والاسـتعداد، وهو ما أشـار إليه بقوله: «ونصرُ الله مأمولُ».

ثـم قال مؤكِّداً ما سـبق في البيت الرابع من لـزوم الصِّدق في وصف هذه الحوادث الأليمة:

٧. مَنجاتُكَ الصِّدقُ لا تَحفِلْ بمُختَرِصٍ ما اليومَ أنتَ عن الـمَنْجـاةِ مَكتـولُ

والمَنجـاة: النجـاة[١]، مصدرٌ ميمـيٌّ، وهو يدلُّ على حَـدَثٍ مُتلبِّس بذاتٍ فـي الغالـب، بخلاف المصدر غير الميميّ، فإنه يـدلُّ على حَدَثٍ مجرَّد، وفي المصـدر الميميّ كذلـك دلالةٌ على نهايـة الأمر وغايته[٢]، ولذا فسَّـر الراغبُ

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٤٠: ٣٦ (نجو).
(٢) انظر: «معاني الأبنية في العربية» للدكتور فاضل السامرائي ص٣١-٣٢.

الأصفهانـيُّ المتـابَ بالتوبة التامـة[١]، كأنه أراد الغايةَ فـي التوبة أو منتهاها[٢]. فالمعنـى: نهايةُ نجاتِـك هي الصِّدقُ. وقد قيل قديمـاً: «الصِّدقُ منجاةٌ»، حتى جرى مجرى الأمثال، ومنه قول زهير بن أبي سُلمى:

وفي الحِلم إدهانٌ، وفي العَفْـو دُربـةٌ وفي الصِّدق مَنْجاةٌ من الشَّرِّ فاصدُقِ[٣]

ومـا حفَـلَ بالشـيء وما احتفَلَ بـه: ما بالى بـه[٤]، والاختـراصُ: الافتعالُ والكـذبُ[٥]، أصلُـه من الخَرْص وهـو حَزْرُ الثمرة، قـال الراغبُ الأصفهاني: «وحقيقة ذلك: أن كلَّ قولٍ مَقُولٍ عن ظنٍّ وتخمين يُقال له: خَرْص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له، من حيثُ إنَّ صاحبَه لم يَقُله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سـماع، بـل اعتمد فيه على الظنِّ والتخمين، كفِعـل الخارص في خَرْصِه، وكلُّ مَنْ قال قولاً على هذا النحو قد يُسمّى كاذباً وإن كان قولُه مطابقاً للمَقُول المُخبَر عنه»[٦]. وكتَلَه: حبَسَـه[٧]، ولذا فسَّـرَ الناظـمُ في هامش الأصل كلمةَ «مكتول» بـ«ممنوع».

و«مـا» فـي قولـه: «ما اليوم أنت عـن المَنْجاةِ مكتولُ»: نافيـة، وهي عاملةٌ عمـلَ «ليـس» عند أهل الحجاز، ومُهمَلةٌ في لغـة تميم، فما بعدها مبتدأ وخبر

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص١٤٦ (توب).

(٢) «معاني الأبنية في العربية» للدكتور فاضل السامرائي ص٣٣.

(٣) «ديوان زهير بن أبي سلمى» ص٧٢.

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ١٥٩ (حفل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (حفل).

(٥) انظر: «لسـان العرب» لابن منظـور ٧: ٢١ (خرص)، و«القاموس المحيـط» للفيروزآبادي (خرص).

(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٢٣١-٢٣٢ (خرص).

(٧) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (كتل).

CamScanner

مرفوعان، كما هو ظاهرٌ هنا في رفع «مكتولُ». وتقديمُ «اليوم» و«عن المنجاة» للاهتمام بهما، فضلاً عن رعاية القافية.

والمعنى: الزم الصِّدقَ ففيه نجاتُك، ولا تُبالِ بأهل الكذب والافتراء، والصِّدقُ مُتاحٌ لك هذا اليومَ غيرُ محبوسٍ عنك.

ولـمّا انتهى من تقرير لزوم الصدق والحثّ عليه أتبعه بوصف ما وقع في دار الخلافة العثمانية من حوادثَ سابقة كانت أسباباً في وقوع البليّة المذكورة في الأبيات (١-٤)، فقال:

٨. قَضى أُغَيلِمةٌ على البلادِ وأهـــ ـــليها كأنهما غالَتْهما غُولُ

الغُلام: هو مَنْ بلغ وبدا شاربُه أو من حين يولدُ إلى ذلك الحين[1]، وأيّاً ما كان فالمراد به هنا صِغَرُ السِّنّ، لاستعارته في ضعف العقل وقلّة الحكمة والتدبير، ويُجمَعُ على أغلِمة وغِلمة في القلّة وغِلمان في الكثرة[2]. واختار في الكلام عن طرفهم التعبيرَ بجَمْع القلّة مع التصغير، وفي الكلام عن الطرف المُقابِل لهم التعبيرَ بـ«الأهلين» الدالِّ على التكثير دون «الأهل»، للدلالة على مزيد ذمٍّ وتقبيح وتحقير لصنيعهم.

وقوله: «كأنهما غالَتْهما غولُ» تعبير عن شدّة الداهية، يُقال: غالَتْه غولٌ، أي: وقع في مَهلَكة[3]، ....

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (غلم).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (غلم).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٥٠٨ (غول)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (حفل).

CamScanner

والغَوْل: إهلاك الشيء من حيثُ لا يُحسُّ به(١).

والمعنى: تَصَدَّرت جماعةٌ قليلةُ العَدَد ضعيفةُ العُدَد، وتولَّت الوظائف والمناصب، فساروا بالبلاد الفسيحة إلى الهلاك والخراب، وبالناس الكثيرة إلى العَطَب والفساد، حتى يُصوَّرُ للناظر في أحوالهما أنهما غالَتْهما غُولٌ.

وبعدما بيَّن ما فعله هؤلاء المُتصدِّرون إجمالاً، شرع في بيانه تفصيلاً، فقال:

٩. بالدِّينِ والعِرْضِ والأوطانِ كم لَعِبُوا!   ونحنُ خُرْسٌ فلا قالٌ ولا قيلُ

«كم» خبريةٌ للتكثير، وهي من الأسماء التي لها الصدارةُ في الجملة، فتقديمُ «بالدِّين والعِرض والأوطان» عليها لضرورة الوزن، والتقدير: كم بالدِّين والعِرض والأوطان لعبوا، وتقديمُها على مُتعلَّقِها ـ وهو «لعبوا» ـ للتفظيع والإنكار، يعني: كثيراً ما حكَّموا أهواءهم في أمور الدِّين والعِرض والوطن، وهذه الأمور الثلاثة من الضروريات الخمس (الكُلِّيّات الخمس) التي عليها المدار في مقاصد الشريعة، وهي: حفظُ الدين والنفس والعقل والعِرْض والمال، فالدينُ والعِرضُ مذكوران صريحاً، والوطنُ داخلٌ في المال، وقد جُمعت أربعةٌ منها في قوله عليه السلام: «مَنْ قُتل دون ماله فهو شهيد، ومَن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومَن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومَن قُتل دون أهله فهو شهيد»(٢).

وقد تدخَّل هؤلاء المذكورون بنظام التعليم تحت اسم إصلاح

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٤٩٥ (غول).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد.

CamScanner

المدارس[١]، وتلاعبوا بأحكام العِرض بأمور قبيحة مُستَحدَثة سيأتي الإشارة إلى بعضها في الأبيات (١٩-٢١، ٣٤-٣٦)، فضلاً عن قانون الأُسرة الذي أصدروه أخيراً وسيأتي الكلام على شيء منه في البيت الثاني والعشرين، وأساؤوا في تدبير مصالح الوطن بقرارات مخطئة.

وقد تكرَّرت منهم هذه الأفعال مرّاتٍ عديدة، على ما تُفيدُه «كم» الخبرية من التكثير، ومع ذلك فالحالُ الغالبُ هو السكوتُ عن إنكار أفعالهم، بل فقدانُ العَزْم على الإنكار وانعدامُ إرادة المنع، وهو ما عبَّر عنه هنا بالخَرَس، وهو انعقاد اللسان عن الكلام، أي: عدم القدرة عليه، ويُستَعمَلُ مجازاً في السكون وعدم إظهار صوتٍ ولا إثارة جَلَبةٍ، كما يُقال: كتيبةٌ خرساء، أي: لا يُسمَعُ لها صوتٌ ولا جَلَبة[٢]. وسيأتي نحوُ هذا المعنى في البيت الثاني والخمسين.

والواو في قوله: «ونحن خُرسٌ» للحال، والتعبيرُ عن أفعالهم بالجملة الفعلية الدالّة على التجدُّد، وعن حال الناس بالجملة الاسمية الدالّة على الثبوت والدوام: لزيادة الإنكار[٣]؛ إذ تستمرُّ أفعالهم المُستَقبَحةُ وتتوالى مع

---

(١) انظر بعض مواقف الصِّدام بين الكوثري والساسة في ذلك العهد من الاتحاديِّين فيما يتعلَّقُ بإصلاح المدارس فيما سبق في الدراسة تحت عنوان (٢.٣. موقع قصيدة «حنين المتفجِّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري ١: ٢٣٩ (خرس)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (خرس).

(٣) وقد كرَّر الناظمُ هذا الأسلوبَ في مواضع من القصيدة، كما سلف بيانُه في الدراسة. انظر منها: (٣. قصيدة «حنين المتفجِّع» قراءة تحليلية).

ثبوت حال الخضوع والتسليم له، وعبَّر بالخرس دون السكوت ونحوه لتبشيع تلك الحال والتنفير منها.

والفاء في قوله: «فلا قالٌ ولا قيلُ» للتفريع، والقالُ والقيلُ: مصدران، و«لا» نافية للجنس على سبيل الاحتمال، ولذا أُهمِلَت عن العمل(١).

وكما أراد في البيت التاسع تفصيلَ ما ذكره إجمالاً في البيت الثامن من أفعالهم الشنيعة القاضية على الدِّين، كذلك أراد في البيت العاشر تفصيلَ ما ذكره إجمالاً في ذاك البيت من وَصْفِهم بـ«أغيملة»، فقال في بيانه:

١٠. أحداثُ سِنٍّ سِفاهُ العَقْلِ إنَّ بهم هلاكَنا، وَهْوَ مَنصُوصٌ ومَعقُولُ

قوله: «أحداثُ سِنٍّ» خبر مبتدأٍ محذوف، والتقدير: هم أحداثُ سِنٍّ، قال ابنُ عاشور: «وحذفُ المُسنَد إليه في هذا المقام استعمالٌ شائع عند العرب إذا ذكروا موصوفاً بأوصافٍ أو أخبارٍ جَعَلُوه كأنه قد عُرِفَ للسامع»(٢)، ويكثر استعمالُه في المدح أو الذم، أما المدحُ فكما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وأما الذمُّ فكما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

و«أحداث»: جمعُ حَدَثٍ، وهو مصدرٌ صار وصفاً(٣)، يُقال: رجلٌ حَدَثٌ،

(١) انظر: «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام ٢: ٣، و«جامع الدروس العربية» للغلاييني ٢: ٣٣٠.

(٢) «التحرير والتنوير» لابن عاشور ١: ٣١٣ (البقرة: ١٨).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٥: ٢٠٨ (حدث).

CamScanner

أي: شـابٌّ، فإن ذكرتَ «السِّنَّ» قلتَ: حديثُ السِّـنِّ[١]، لكنْ ذكره بالإضافة جماعـةٌ فقالوا: «رجلٌ حَدَثُ السِّنِّ وحديثُ السِّنِّ»[٢]، وجعله بعضُهم من كلام العامـة[٣]. و«سِفاه»: جمـعُ سـفيه، صفةٌ مُشـبَّهةٌ باسـم الفاعـل. وترك العطـفَ بينهما فلم يقل: «أحداثُ سِنٍّ وسِفاهُ عَقْـل» للدلالة على اتصافهم بهما معاً.

والمعنى: هم فِتيةٌ صغار السِّنّ خفيفو العقل، فإن بقيت أمور البلاد بأيديهم ساروا بها إلى الهلاك والضياع، وهـذا الحكمُ ليس تخرُّصاً بالظـن ورجماً بالغيب، بل هو مستفادٌ من النَّصِّ النقليّ والاستدلال العقليّ.

أما النَّصُّ النقليُّ فقوله صلّى الله عليه وسلّم: «هلاكُ أُمتي على يَدَي غِلمةٍ مـن قريش»[٤]، وفـي رواية: «هَلَكَةُ أُمتي»[٥]، وفي أخـرى: «على يدي أغيلمة سفهاء من قريش»[٦]، وهو وإن كان وارداً في أناس من قريش فإنه يُفهَمُ منه أن الحكم عليهم بأنهم سببٌ لهلاك الأمة مُعلَّلٌ بكونهم غِلمةً سُفهاء، أي: صغارَ السِّنّ ضعفاءَ العقل، فيجري الحكمُ نفسه في غيرهم إذا تحقَّق فيهم وصفُهم، وخصوصاً إذا بَدَت بوادرُ ذلك في الواقع.

(١) انظـر: «الصحـاح» للجوهري ١: ٢٧٨ (حدث)، و«أسـاس البلاغة» للزمخشـري ١: ١٧٢ (حدث)، و«لسان العرب» لابن منظور ٢: ١٣٢-١٣٣ (حدث).

(٢) انظـر: «جمهـرة اللغـة» لابن دريد ١: ٤١٦ (حـدث)، و«القاموس المحيـط» للفيروزآبادي (حدث).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٥: ٢٠٨ (حدث).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٦٠٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٠٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٧٤) من حديث أبي هريرة.

CamScanner

ويُؤيِّدُه ما ورد في علامات الساعة من قوله عليه السلام: «إن الله لا يقبضُ العِلمَ انتزاعاً يَنتَزِعُه من العباد، ولكنْ يقبضُ العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسُئلوا فأفتَوْا بغير علم، فضَلُّوا وأضلُّوا»[(١)]، وقوله عليه السلام: «إنها ستأتي على الناس سِنونَ خدّاعة، يُصدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمنُ فيها الخائن، ويُخوَّنُ فيها الأمين، ويَنطِقُ فيها الرُّويبضة» قيل: وما الرويبضة؟ يا رسول الله، قال: السَّفيهُ يتكلَّمُ في أمر العامة»[(٢)].

وأما الاستدلالُ العقليُّ فهو أن العقلِ يجزم استناداً إلى ما جَرَت به العادةُ شرقاً وغرباً على مرِّ العصور من أنَّ تسلُّط الأغمار على الأمور الكبار مُؤذِنٌ بخراب الديار، وإقامةَ السُّفهاء في مقام العُقلاء مُؤدٍّ إلى الهلاك والفناء.

وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه من الواجب على عقلاء الناس وعلمائهم إيقافُ هذا التَّسلُّط المُنكَر، وهذا التحكُّم الظالم، ولكنّه أمرٌ عسير، لشدّةِ بأسهم فيمن يُخالِفُهم ويُعارِضُهم، وكونِ المحاكم بأيديهم، وكثيرٍ من القضاة تحت إشارتهم، وجنودِ الأمن رَهْنَ أمرهم، ولذا قال:

١١. فإن أَطَعْنا هَلَكْنا، أو عَصى أحَدٌ مِنّا فعاصيهِمُ في الحالِ مَعكُولُ

أي: إن أطعناهم في تَلاعُبِهم بالدِّين والعِرض والأوطان هلكنا في الدنيا،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٠٠)، ومسلم في «صحيحه» (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩١٢) و(٨٤٥٩) من حديث أبي هريرة، و(١٣٢٩٨) من حديث أنس بن مالك.

لأنَّ في هذه الطاعة ضياعَ الدولة وخسارةَ البلاد وفقدان الأرواح وانتشار الفَقْر وشيوع الجهل، وهلكنا في الآخرة، لأنَّ فيها معصيةَ الله تعالى بكُفران نِعمتِه وجُحود إحسانه، وإن عصاهم واحدٌ منا فإنه معكولٌ، أي: مصروع كما فسَّرَه به الناظمُ في هامش الأصل، يُقال: عكَلَه يَعكِلُه عَكْلاً، أي: صرَعَه[١]، والعَكْلُ أيضاً: الحَبْسُ[٢]، وهو مناسبٌ لهذا السياق كذلك. وقوله: «في الحال» يدلُّ على شدّة حَزْمِهم في إيذاء من يُعارِضُهم، وسرعة إيقاعهم العقوبة به.

والمرادُ بيانُ شدّة اضطهاد أولئك الساسة لمخالفيهم، ولا سيَّما أهل العلم منهم، على ما سيأتي أيضاً في البيت التاسع والثلاثين والبيت الحادي والأربعين، ومن الأمثلة على هذا: أنَّ «حزب الحرية والائتلاف» ـ الذي كان الأستاذُ الشيخ مصطفى صبري أحدَ مُؤسِّسيه في ٨ من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١١م ـ كُلِّفَ بتشكيل الحكومة سنة ١٩١٢م حين سقطت حكومة الاتحاد والترقي، ولكنَّ زعماء الاتحاد والترقي وَجَّهوا إليهم ضَرْبةً، وعطَّلوا مجلسَ النُّوّاب، وقبضوا على المُعارِضين. ولم يتمكَّن أعضاءُ الحزب من إعادة تأسيسه وممارسة السياسة ثانيةً إلى أوائل سنة ١٩١٩م، حيثُ سقطت حكومة الاتحاد والترقي بسبب الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، وبعدها بقليل كُلِّفوا بتشكيل الحكومة في شهر آذار من السنة المذكورة[٣]. ويذكر

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٦٧ (عكل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عكل).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٦٦ (عكل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عكل).

(٣) انظر: «مصطفى صبري» للقوسي ص١٠٠-١٠٥.

شيخُ الإسلام مصطفى صبري نفسُه أنه كان هو وأصدقاؤه من المعارضين للاتحاديِّين في تلك الآونة نائين عن البلد فراراً من بطش الاتحاديين أو مُعتَقَلين في السجون طوال سِنِي الحرب[1]. ومما يتصل بالناظم نفسه أنه اضطُرَّ إلى السفر إلى قَسْطموني أواخر سنة ١٩١٥م والإقامة فيها ثلاث سنوات إلى أواخر سنة ١٩١٨م، حذراً من بطش الاتحاديِّين به حيثُ عارضهم في عدّة حوادث، وفي أواخر مُقامِه هناك نظَمَ هذه القصيدة ونشرها.

وما دام الأمرُ على ما وصَفَه في هذه الأبيات فلا أقلَّ من عدم نُصرتهم فيما يفعلون، وعدم الانقياد لهم فيما إليه يسيرون، على ما أشار إليه النبيُّ صلّى الله عليه وسلَّم فيما رواه أبو سعيد الخدري قال: «قيل: يا رسول الله، أيُّ الناس أفضل؟ فقال: مؤمنٌ يُجاهِدُ في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم مَنْ؟ قال: مؤمنٌ في شِعبٍ من الشِّعاب يَتَّقي اللهَ ويَدَعُ الناس من شرِّه»[2]، قال البدر العينيُّ: «الشِّعبُ: ما انفَرَجَ بين الجبلين، وهو خارجٌ على سبيل المثال لا للقيد بنفس الشِّعْب، وإنما المراد العُزلة والانفراد عن الناس»[3]، والعُزْلةُ على مراتب، منها اعتزالُ الناس عامةً إذا كان موضع الفتنة فيهم، ومنها اعتزالُ

(١) «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبري ص١٥٩. وكان الشيخ مصطفى صبري ممَّن غادر البلاد إثرَ مداهمة بيته ومحاولة القبض عليه ما بين (١٩١٣-١٩١٦م)، ثم كان ممَّن قُبض عليه وحُكم عليه بالإقامة الجبرية ما بين (١٩١٦-١٩١٨م)، كما في كتاب «مصطفى صبري» للقوسي ص١٣٥-١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٧٨٦) و(٦٤٩٤)، ومسلم في «صحيحه» (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) «عمدة القاري» للعيني ١٤: ٨٣-٨٤.

الساسة وأصحاب المناصب خاصّةً إذا كان موضع الفتنة فيهم.

ولكنَّ الذي يُثير الأسى والأسَفَ حقّاً متابعةُ كثير من الناس لهم ولأمثالهم، على اختلاف مشاربهم ومسالكهم في مخالفة الشرع وتحكيم الأهواء، وهو ما أشار إليه بقوله:

١٢. لِكُلِّ ناهِقٍ زَيْغٍ بيننا تَبَعٌ   وتابعُ الحَقِّ والإسلام مَخذُولُ

الناهق: اسم فاعل من: نَهَق الحمارُ يَنهِقُ ويَنهُق، ونَهِقَ يَنهَقُ نَهيقاً ونُهاقاً، أي: صوَّتَ[1]. ويُستَعمَلُ مجازاً في رَفْع الصوت وقُبحِه، شبَّه تحدُّثَهم بالأقوال الباطلة وتلفُّظَهم بالكلمات الفاسدة بالنَّهيق، ثم حذف المُشبَّه على طريق الاستعارة التصريحية. وإضافةُ «الناهق» إلى «الزَّيْغ» من باب إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله غير الصريح، أي: لكلِّ ناهقٍ بالزَّيْغ. والتنكير في «زَيْغ» لإفادة الكثرة والشيوع وأنه ليس من جنس واحد، بل من أجناس كثيرة.

والمعنى: لكلِّ مَن يرفعُ صوتَه بأيِّ نوع من أنواع الضلال وأشكال الانحراف عن الدِّين مَنْ يَتبَعُه من أبناء المسلمين، بخلاف تابع الحقِّ والإسلام فإنه مخذول، أي: لا يجدُ مَن يُعينُه وينصرُه، يقال: خذَلَه يَخذُلُه خِذلاناً، أي: ترك عونَه ونُصرتَه[2].

والحقُّ: هو الحكم المطابق للواقع، يُطلَقُ على الأقوال والعقائد والأديان

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٠: ٣٦١ (نهق)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (نهق).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٢٠٢ (خذل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (خذل).

CS CamScanner

والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك(١)، والإسلامُ: هو الدِّينُ الحقُّ بلا شك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فعطفُه على «الحق» إما عطف تفسيريّ، أي: تابعُ الحقّ الذي هو الإسلام، أو من باب عطف الخاصّ على العامّ، أي: تابعُ الحقّ عموماً ـ سواء كان ذلك في سياق العقائد والأديان أم في غيرها من الأقوال والأفعال ـ وتابعُ الإسلام خصوصاً، وهو الحقُّ في سياق العقائد والأديان.

وفي تعبيره في طرف الزَّيغ بـ«التَّبَع»، وهو اسمُ جَمْع(٢)، وفي طرق الحقّ بـ«التابع»، وهو مُفرَد: إشارةٌ إلى كثرة الأول وقلّة الثاني، وفيه زيادةُ تأكيد وتفصيل للأسى والأسف المُشار إليهما في هذا البيت.

ثم عاد إلى إتمام ما بدأه في البيت التاسع من بيان أفعال هؤلاء المُتصدِّرين، فقال:

١٣. قَضَوا على العِلم والإسلام شرَّ قَضَا ... فالقلبُ مُكتَئِبٌ والعقلُ مَخبُولُ

يُقال: قضى عليه، أي: قتَلَه، وهو هنا مجازٌ بمعنى إزاحتِهم الإسلامَ من أروقة الحكم إزاحةً قاسيةً، وإبعادهم علماءَ الإسلام عن وظائف الدولة إبعاداً عنيفاً، على ما يُفهَم من قوله: «شرَّ قضا»، والشرُّ هنا: اسم تفضيل، وأصلُه: أشَرُّ، حُذِفَت الهمزة منه لكثرة استعماله ودورانه على الألسنة، ونصبُه على المفعولية المُطلَقة، والتقدير: قَضَوا على العلم والإسلام قضاءً شرَّ قضاءٍ. وعطفُ «الإسلام» على «العلم» من باب عطف العامّ على الخاصّ، لأن

(١) انظر: «شرح العقائد» للتفتازاني ص١٠٦.

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٨: ٢٨ (تبع).

المقصـود بالعلـم هنا العلوم الدينية والفنون الشـرعية، ففيه دلالةٌ على ترقّيهم في فَعلَتِهم الشنيعة من الأدنى إلى الأعلى.

والمعنى: كان قضاؤهم على العلم والإسلام على أشدِّ صورة وأعنَفِها، ولـذا فليس مـن المُستَغرَب أن تكـون قلـوبُ المسـلمين الغَيُوريـن مكتئبةً مـن صنيعهـم، وأن تكـون عقولُهم مخبولـةً، أي: كأنها مَسَّـها البَلَـهُ من وَقْع مـا أصابها، يقـال: خبَلَه الحـزنُ، إذا أذهبَ فؤاده، من الـخَبْل، وهو الجنونُ وشِبهُه[1] كالبَلَه.

والفـاءُ فـي «فالقلـبُ مكتئـبٌ» للتفريـع، والتعريـفُ فـي «القلـب» و«العقل» للعهد، أي: قلوب المسلمين وعقولهم، والناظم داخلٌ في هذا العموم أيضاً كما تقدَّم في البيت الأول في قوله: «فالعينُ دامعةٌ والجسمُ منحولُ».

وعبَّـر عن حالهـم بالجملة الفعليـة الدالّة على الحـدوث والتجدُّد، وعن حال الناس بالجملة الاسـمية الدالة على الثبوت والدوام، للدلالة على توالي تلك الأفعال منهم شيئاً فشيئاً، مع استقرار الحزن والاكتئاب في قلوب الناس وثبوتهما[2].

ثـم أتـى بمثـال يكون شـاهداً على مـا وصفهم به مـن القضاء علـى العلم والإسلام، فقال:

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ١٩٧-١٩٨ (خبل).

(٢) وقد كرَّر الناظمُ هذا الأسلوبَ في مواضع من القصيدة، كما سلف بيانُه في الدراسة. انظر منها: (٣. قصيدة «حنين المتفجِّع» قراءة تحليلية).

١٤. وهُمْ هُمُ سَلَبُوا حَقَّ القَضاءِ عنِ الشَّـ ـشَرْعِ الأغَـرِّ، فـلا جَرْحٌ وتَـعْديـلُ

أي: همُ اختَلَسوا حقَّ القضاء الذي هو حقٌّ من حقوق الشرع على العباد، اختَلَسوه من الشرع الشريف، والفقه الحنيف، وجعلوه لأنظمتهم الوضعيّة الوَضِيعة، وتنظيماتهم الجائرة الشنيعة، فسَنُّوا قوانينَ مناقضةً لدين الله، وشرعوا أحكاماً مخالفةً لحكم الله. فقولُه: «هم» الأوّلُ مبتدأٌ، والثاني توكيدٌ لفظيٌّ له، والضَّمّةُ في آخره للإشباع ليستقيم الوزن، والجملة الفعلية «سَلَبوا...» خبرُه.

وهذا السَّلبُ بدأت بَوادِرُه من إنشاء المحاكم المدنية على نطاق محدود في عهد التنظيمات، وبدأ تقريرُه رسميّاً في أثناء الحرب العالمية الأُولى ـ وهو زمانُ نَظْم هذه القصيدة ـ حيثُ نُقِلَت المحاكم الشرعية من إدارة (المشيخة الإسلامية) إلى إدارة نظارة (وزارة) العَدْل، وفي هذا يذكرُ شيخُ الإسلام مصطفى صبري: «أن الاتحاديّين لـمّا قَبَضوا زِمام الحكومة كان من أخصِّ آمالهم أو أمانيهم إلغاءُ المحاكم الشرعية، لكون عقيدتهم مُستَقِرّةً على أن الجماعات المَدَنية الراقية تُساسُ بالقوانين التي وضعوها فيما بينهم في آرائهم وعقولهم، لا بأحكام خُيِّلَت أنها نزلت من السماء، لكنهم لم يَتَجاسَروا عليه، واجتَزَؤوا بإزالة رباطة تلك المحاكم عن المشيخة الإسلامية، وكان ذلك صَوْلةً سِرّيّةً عليهما وعلى الدِّين»[١]، أما تمامُ هذا الإسقاط فقد وقع فيما بعد نَظْم هذه القصيدة بِضْع سنوات، حين سقوط الدولة العثمانية (١٣٤١-١٣٤٢هـ=١٩٢٢-١٩٢٣م)،

(١) «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبري ص١٣٦. وانظر ص٨٨ منه أيضاً.

CamScanner

حيثُ أُلغِيَت الأحكامُ الشرعية كلُّها، وأُحِلَّت الأنظمةُ الوضعية محلَّها.

والأغرّ: الشريف، أصلُه من الغُرّة، وهي بياض في جبهة الفَرَس، والأغرُّ من الخيل: الذي غُرّتُه في وسط جَبهَته، ولم تُصِب واحدةً من عينيه، ولم تَمِل على واحدٍ من الخدَّين(١). ووصفُ «الشَّرْع» بـ«الأغرّ» استعارة مَكْنية، حيثُ شبَّهه بالفَرَس وحذف المُشبَّه به وذكر شيئاً من لوازمه، وفي هذه الاستعارة زيادةُ تقبيح لصنيعهم، حيثُ اختَلَسوا من الشرع على شَرَفِه أمرَ القضاء، وهو حقُّه، فالمسلوبُ منه شريفٌ لا ينبغي أن يُعاملَ هكذا، والمسلوبُ حقٌّ، وسلبُ الحقوق مُستَقبَحٌ عُرفاً وديناً، وسلبُها من ذوي الفضل والشرف أشدُّ شناعةً وقُبحاً.

وقوله: «فلا جرحٌ وتعديل» علامةٌ على السَّلْب المذكور؛ إذ يقوم بابُ الشهادات في القضاء الإسلاميّ على جَرْح الشهود وتعديلهم، فلما أسقطوا القضاء الشرعيّ سقطت معه أُسُسُه وفروعُه، فيكون كنايةً عن هذا الإسقاط أو مجازاً مُرسَلاً من باب ذِكر الجزء وإرادة الكلّ.

ولمّا كان سلبُهم حقَّ القضاء من الشرع يقتضي أن يَصرِفوه إلى غيره، أراد بيانَ ذاك المصروف إليه مَنْ هو؟ فقال:

١٥. وفَوَّضُوهُ إلى دَعِيٍّ مَعْدِلةٍ حيثُ الخِصامُ بقَولِ العِلْجِ مَفصُولُ

تفويضُ الأمر إلى الغير: ردُّه إليه وجعلُه الحاكم فيه(٢)، وفيه معنى التسليم

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٥: ١٤ (غرر).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٧: ٢١٠ (فوض)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (فوض).

CamScanner

والاستِسلام(١). والمَعدِلةُ، بكسرِ الدال وفتحِها: العدالة(٢). والدَّعِيُّ: فَعِيل؛ إما بمعنى: مفعول ـ كما هو الأكثر في هذه الصيغة ـ أو بمعنى: فاعل، فمعناه على الأول: مُدَّعى فيه العَدْلُ، وعلى الثاني: مُدَّعي العَدْلِ، وكلاهما من الادِّعاء، يُقال: ادَّعى كذا ادِّعاءً، إذا زعم أنه له، حقّاً كان أو باطلاً(٣)، والمراد هنا الادِّعاءُ الباطل. والعِلجُ: الرَّجُلُ من كفّار العَجَم(٤). وتقديمُ الجار والمجرور ـ وهما قوله: «بقول العلج» ـ للحَصْر.

ومعنى البيت: أنهم سَلَّموا أمر القضاء وأحالوه بعدما اختَلَسوه من الشرع الشريف إلى مَنْ يَدَّعي إقامةَ العَدْل، أو يَدَّعي الناسُ فيه إقامةَ العَدْل، ولكنَّ هذه الدعوى ظاهرةُ البطلان، فإنه لا يَفصِلُ في الخصومات إلا بأقوال الكَفَرة. وفيه إشارة إلى القوانين الأوروبية التي كثرت الدَّعَوات في تلك المرحلة إلى اعتمادها وإصدار القوانين على وَفْقِها أو على نَمَطِها، وأُحِلَّت فعلاً ـ ولو جزئيّاً ـ محلَّ الشرع الحنيف(٥).

ثم قال:

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» للنسفي ٣: ٢١٤ (غافر: ٤٤)، و«نظم الدرر» للبقاعي ١٧: ٧٩ (غافر: ٤٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٣١ (عدل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عدل).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٤: ٢٦١ (دعو)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (دعو).

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٢: ٣٢٦ (علج)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (علج).

(٥) انظر ما سلف في الدراسة تحت عنوان (٢. ٢. سؤال التحديث في الدولة العثمانية).

CamScanner

١٦. قد عانَدُوا الشَّرْعَ حتّى شَرَّعُوا بِهَوَا   هُمْ ما اشْـــتَهَوْا وبَدَتْ مِنهُمْ أباطيلُ

«قد» حرفُ تحقيق، والمُعانَدة: المعارضةُ بالخلاف[١] أو أن يعرف الرجلُ الشيء ويأبى أن يقبلَه[٢]، وأصلُ معناه: المجاوزةُ وتَرْكُ طريق الاستقامة[٣]. والشرع: نهجُ الطريق الواضح، ثم استُعير للطريقة الإلهية[٤].

و«حتى» ابتدائيةٌ داخلةٌ على الجملة الفعلية، فيجوز أن تُقدَّرَ «الفاء» في موضعها[٥] فيُقال: «عاندوا الشرع فشَرَّعوا ...»، وتكون الفاءُ حينئذ تفريعيّةً لترتيب ما بعدها على ما قبلها، قال ابن عاشور: «و(حتّى) الابتدائيةُ تدلُّ على أن مضمون الكلام الذي بعدها أهمُّ بالاعتناء للإلقاء عند المتكلِّم، لأنه أجدى في الغَرَض المَسُوق له الكلام»[٦].

والهوى: ما يُحبُّه الإنسان ويرضاه، ثم أُطلِقَ على مَيْل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استُعمِلَ في الميل المذموم كما يقال: اتّبَعَ هواه[٧]، وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا. والاشتهاءُ: محبّةُ الشيء والرغبة فيه، يقال: شَهِيَه واشتهاه وتَشَهّاه[٨]، ....

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٣: ٣٠٨ (عند)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عند).
(٢) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٤: ١٥٣ (عند).
(٣) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٤: ١٥٣ (عند).
(٤) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٦٤ (شرع).
(٥) انظر: «شرح الألفية» للأشموني ٣: ٤٤٠-٤٤١ مع حاشية الصبان.
(٦) «التحرير والتنوير» لابن عاشور ٨: ١١٦ (الأعراف: ٣٧)
(٧) انظر: «المصباح المنير» للفيّومي (هوي).
(٨) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، (شهو).

CamScanner

من الشهوة، وهي نزوعُ النفس إلى ما تريده[1]. والأباطيل: جمعُ باطل على غير القياس، أو جمعُ إبطالة وأُبطُولة على القياس[2]. وفيه معنى التصغير والتحقير، كالأعاجيب والأضاحيك[3].

ومعنى البيت: أنهم عارضوا الشرع في أحكامه، فشرَّعوا بهوى أنفُسِهم ما يَشتَهونه ويرغبون فيه، ولذا ظهر الفساد في أحكامهم، والبطلان في تشريعاتهم.

ثم بيَّن أنَّ هذه المُعانَدَةَ واقعةٌ على سبيل التضادّ، فإن ثبت أحدُ الضِّدَّين فلا بدَّ أن ينتفيَ الآخر؛ إذ لا سبيل إلى الجمع بينهما، فقال:

١٧. شَرْعانِ لا يَبقَيانِ في دِيارِهِمُ فالشَّرْعُ حَقٌّ، وما سَمَّوْهُ تَضْليلُ

يعني: هذا شَرعان اثنان، أحدهما: شرعٌ دينيّ، والآخَرُ: شرعٌ وَضْعيّ، ولا بدَّ لأحدهما أن يَغلِبَ الآخرَ وينفيَه، ولا يمكن أن يبقيا جميعاً، وإذا كان الأمر كذلك فليبقَ الذي هو حقٌّ منهما، وهو الشرع الإلهيّ الدينيّ، أما الذي سَمَّوه شرعاً فهو تضليلٌ، أي: تصييرُ الناس إلى الضلال[4] وإيصالُهم إلى البطلان.

فـ«ال» في لفظة «الشرع» للعهد الذهنيّ، وهو شرعُ الله تعالى، و«ما» في قوله: «وما سَمَّوه» موصولةٌ، وهي من صِيَغ العموم، ومحلُّها الرفعُ على

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٧٩ (شهو).
(٢) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٢٨: ٨٩-٩٠ (بطل).
(٣) انظر: «الكشاف» للزمخشري ٩: ٢٦٧ (الحاقة: ٤٤).
(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٣٩٣ (ضلل).

CamScanner

الابتداء، والفعل «سمّى» يتعدَّى إلى مفعولين، كما في قوله تعالى حكايةً عن أم مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ومفعوله الثاني هنا مقدَّر، أي: الذي سَمَّوه شرعاً هو تضليل.

وفي البيت من المُحسِّنات البديعية: الاحتباك، وهو أن يُحذَف من الأوائل ما جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأواخر، ويُحذَف من الأواخر ما جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأوائل(١)، والتقدير: فالشرعُ حقٌّ وهداية، وما سَمَّوهُ شرعاً باطلٌ وتضليل، فذكرَ «الحقَّ» في الأول وحذَفَ في مقابله «الباطل»، وذكرَ «التضليل» في الآخر وحذَفَ في مقابله «الهداية».

ثم أراد بيانَ دليله في حكمه على تلك القوانين الجديدة بالبطلان والتضليل، فقال:

١٨. لقد بَدَا أنما أحكامُ شِرْعَتِهِم هَتْكٌ وسَفْكٌ وإلحادٌ وتَبْديلُ

تَرقَّى في الكلام من الخبر الابتدائيّ في البيت السابق في قوله: «وما سَمَّوهُ تضليلُ» إلى الخبر الطلبيّ أو الإنكاريّ في قوله هنا: «لقد بَدَا ...»، حيثُ أكَّدَه باللام - وهي المُوطِّئة للقَسَم - و«قد».

والشِّرْعةُ: بمعنى الشريعة، وهي في أصل اللغة: مَوردُ الناس لاستقاء الماء(٢)، ثم اشتُقَّت منها الشِّرْعةُ والشريعةُ في الدِّين، وهي الظاهر المستقيم من المذاهب(٣). وتسميةُ ما سَنُّوه من أحكام مُستَحدَثة وقوانين مُستَغرِبة شِرعةً

---

(١) انظر: «البلاغة العربية» لعبد الرحمن حبنكة ٢: ٥٤-٥٦.

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (شرع).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (شرع).

أو شـريعةً إنمـا هـو بالنظر إلى إقامتهـم إياها مُقام الشـريعة الحقّـة، أو باعتبار دَعْواهم.

والهَتْـك: القَطْـع والخَـرْق، ويكثُـر اسـتعماله فـي الأعـراض علـى معنى الافتضـاح. والسَّـفْك: صبُّ المائـع وإجراؤه، ويكثُر اسـتعماله فـي الدماء أو هو أخصُّ به من غيره[1]. والإلحادُ: الميلُ عن الشـيء والعدولُ عنه[2]، ويكثُر استعماله في ترك الحقِّ والانصراف عنه إلى الباطل[3]. والتبديل: تغيير الشيء مـن حـال إلى آخـر، ومن صورة إلـى أخرى[4]، ويُسـتعملُ فـي تحوير الكلام وتحريف الأحكام.

والألفـاظُ الأربعـة مصادرُ وُصِفَ بهـا، كقولك: رجلٌ عَـدْلٌ، أي: عادل، والغَـرَضُ منه المبالغةُ بجَعْل ذات الموصوف هي الحَدَثَ نفسَـه، وهو العدلُ فـي المثـال المذكـور، فيصيـر الموصوفُ كأنه فـي الحقيقة مخلـوقٌ من ذلك الفعل، لكثرة ممارسته وتعاطيه له[5]. وعليه، فلم يَقُل: أحكام شِرعتِهم هاتكةٌ للأعـراض المَصُونة، سـافكةٌ للدِّماء المعصومـة، مائلةٌ عن الاسـتقامة، مُبدِّلةٌ بطريـق الحـقِّ الضلالةَ، وإنمـا قال: هَتْكٌ وسَـفْكٌ وإلحادٌ وتبديـلٌ، مبالغةً في وَصْفِها بتلك الأوصاف.

---

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٢٧: ١٩٧ (سفك).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٥: ٢٣٦ (لحد)، و«لسـان العرب» لابن منظور ٣: ٣٨٩ (لحد).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٣: ٣٨٨ (لحد).

(٤) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٢٨: ٦٤-٦٦ (بدل).

(٥) انظر: «معاني النحو» للسامرائي ١: ١٩٣-١٩٤.

والمعنى: لقد ظهر الضلالُ في أحكامهم؛ فإنها أحكام مشتملةٌ على هَتْك أعراض الناس وسَفْك دمائهم وظُلمِهم في حقوقهم، فضلاً عمّا فيها من تغيير الأحكام المُتوارَثة وتبديل العادات المُستَحسَنة، على ما سيأتي ذِكرُ أمثلته في الأبيات التالية.

ثم أراد أن يذكرَ مثالاً من تشريعاتهم الحديثة المُستَقبَحة، فقال:

١٩. قد جَوَّزوا الجَمْعَ بينَ الأمِّ وابنَتِها	كُلُّ المَجُوسِ على ذا العَارِ مَجبولُ
٢٠. فمَن بصِهْرَتِهِ أفْضَى فزَوْجتُهُ	بانَتْ لدينا، وعَقْدُ البنتِ مَحْلُولُ
٢١. وهُم يقولون: ما بانَتْ، وإنْ حَبَلَتْ	والعَقْدُ عَقْدٌ، وهذا العِرْضُ مَبذُولُ

من المعلوم في حكم الشريعة: أنَّ من المُحرَّمات المُؤبَّد تحريمُهُنَّ نكاحَ الأُمِّ بعد العَقْد على ابنتها، ونكاحَ البنت بعد الدخول بأُمِّها، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

فقولُه: «قد جَوَّزوا الجمعَ بين الأُمِّ وابنتِها»، المرادُ بالجمع بينهما: ما ذكرناه من نكاح الأُولى بعد العَقْد على الثانية، ونكاح الثانية بعد الدُّخول بالأُولى، لأنه حيثُ لا عَقْدَ في الحالة الأُولى أو لا دخولَ في الحالة الثانية تكون تلك المرأةُ أجنبيّةً يجوزُ نكاحها.

وقولُه: «كلُّ المَجُوس على ذا العارِ مجبولُ» أي: المجوسُ كلُّهم مطبوعون على هذه السُّبّة والعَيْب، يُشير به إلى أنَّ إباحةَ نكاح الرجل أُمَّه وبنتَه مما لم يُنقَل في دين من الأديان، ولا عن قوم من الأقوام، سوى المجوس، فإنهم

يُبيحـون ذَيْـنِكَ النكاحَيْن، لأنهم يُبيحون ما هو أشنَعُ منه وأقبَحُ، وهو نكاحُ المحـارم، أي: نـكاحُ الرجـل أُمَّه، ونكاحُ الرجل أُختَه، ونـكاحُ الرجل بِنتَه[1]. والـكلامُ هنـا وإن لم يكن في نكاح الأُمّهاتِ والبنـاتِ ونَحْوِهنَّ من المحارم، وإنمـا في الجمـع بين أُمّ أجنبيّـةٍ وابنتِها، فالقاعدةُ عند الفقهـاء في تحريم هذا الجمـع وأمثالـه هـو أن تُفـرَضَ المـرأةُ رجلاً، فإن جـاز زواجُ هـذا الرجل من المرأة الأُخرى جاز الجمعِ بينهما، وإلا لم يَجُز، على اختلافٍ بين الفقهاء في الاكتفاء بفَرْضِ إحداهُما[2] أو في اشتراط فَرْضِ كلٍّ منهما[3]، وعلى كلِّ حالٍ يَؤُولُ تجويزُ الجمعُ بينهما إلى ما يُشبِهُ نكاحَ المحارم عند المجوس، ومن هنا صحَّ ذِكرُهم في هذا السِّياق.

وقولُه: «فمَنْ بصِهرتِه أفضى فزوجتُه بانَتْ لدينا» الصِّهْر: الرجلُ من بيت الزوجـة، وهـو الخَتَن، ويقابلـه: الحَمْوُ، وهو الرجلُ من بيـت الزوج، وبعضُ العـرب يجعلُ الصِّهر شـاملاً للحَمْو والختن جميعـاً[4]. والأول هو المقصود هنـا، أي: أبـو الزوجـة وأخوهـا، ثـم أُدخِلَت عليـه تـاء التأنيث لأن المـراد أمُّ الزوجة، لا أبوها، وله ـ على نُدْرةِ استعماله ـ أصلٌ، ففي «المحيط في اللغة»:

(١) انظر لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع: «زواج المحارم في الديانة المجوسية من خلال الآفستا والروايات التاريخية: دراسة تحليلية نقدية» للباحث فَرْسَت مرعي، المنشور في مجلة كُرْديات (Kudiyat)، العدد ٦، سنة ٢٠٢٢، ص٧٣-٩٦.

(٢) وهو مذهب الشـافعية والحنابلة. انظر مثلاً: «تحفة المحتاج» لابن حجر المكي ٧: ٣٠٧، و«شرح منتهى الإرادات» للبهوتي ٢: ٦٥٥.

(٣) وهـو مذهـب الحنفية والمالكيـة. انظر مثلاً: «فتح القدير» لابن الهمام ٣: ٢١٨، و«الشـرح الكبير» للدردير ٢: ٢٥٢.

(٤) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ١٢: ٣٦٧ (صهر).

CamScanner

«صِهرةُ الرجل: أخت امرأته»[1]، والمعنى: لو أنَّ رجلاً عقَدَ على امرأةٍ ثم دخل بأُمِّها، فقد بانت زوجتُه منه وانحَلَّ عقدُها، لأن الدخول بالأُمَّهاتِ يُحرِّمُ البنات، ودخوله بالأم مُحرَّمٌ كذلك، لأنه عاقدٌ على ابنتها.

ثم أراد تبشيعَ قولِهم وتقبيحَه، فقال: «وهم يقولون: ما بانَتْ، وإنْ حبلَت»، فالواو في قوله: «وإنْ حبلَت» واو الحال، و«إنْ» وَصْلية، يعني: أنهم يحكمون ببقاء نكاح البنت وإنْ بلَغَ الأمرُ إلى حَبَلِ الأُمِّ من هذا الرجل، بَلْهَ دخولِه بها. وقولُه: «والعقدُ عقدٌ» هو من تتمّة مَقُولهم، أي: ويقولون: العقدُ السابق على البنت ثابتٌ كما هو، وكذلك قولُه: «وهذا العِرضُ مبذولٌ» هو من تتمّة مَقُولهم، فالواو عاطفة، والإشارةُ فيه إلى عِرضِ البنت، أي: ما زال العقدُ عليها سارياً، وما زال عِرضُها مبذولاً للزوج.

والظاهر أن الناظم يُسجِّلُ هنا حادثةً أو حوادثَ جزئيةً وقعت في ذلك العهد، من غير أن تكون قد أُثبِتَت في نصٍّ قانوني أو تشريع قضائي، لأني لم أقف ـ مع البحث والتتبُّع ـ مُستَنَداً قانونياً راجعاً إلى تلك الحِقبة يتكلَّمُ عن هذا الحكم، كما لم أقف على مصدر تاريخيّ يُسجِّلُ مِثلَ هذا التغيير، والناظمُ شاهدٌ معاصر لتلك الأحداث، فكلامُه وثيقةٌ تاريخيةٌ مُعتَمَدة، ولعلَّ لنَقْلِ المحاكم الشرعية من إدارة (المشيخة الإسلامية) إلى (وزارة العَدْل) في تلك الأيام[2] علاقةً بهذه الحوادث.

وممّا أحدثوه من تغيير في الأحكام عدمُ إيقاع طلاق السَّكْران ـ وهو مثالٌ

(١) «المحيط في اللغة» للصاحب بن عباد ١: ٢٩١ (صهر).

(٢) انظر ما سبق في شرح البيت الثاني عشر.

ثانٍ على ما ذكره في البيت الثامن عشر ـ وهو ما ذكره بقوله:

٢٢. ولا طلاقَ بحالِ السُّكرِ عِندَهُمُ   هَلْ ذا لَهُم نَسَبٌ في الدِّينِ مَدخُولُ؟

السُّكْر والسُّكُر والسَّكَر: نقيضُ الصَّحْو، وهي حالةٌ تعترضُ بين المرء وعَقْلِه، وأكثر ما يُستَعمَلُ ذلك في الشراب المُحرَّم[١]. ومعنى البيت: أنَّ مَنْ ذهب عقلُه بتناول الشراب المُحرَّم ثم طلَّق زوجتَه لم يقع طلاقُه عندهم.

والقول بوقوع طلاق السَّكْران ـ والمرادُ المُتعدِّي بسُكْره ـ هو القول المُعتمَدُ في المذاهب الأربعة[٢]، خلافاً لقولٍ في مذهب الحنفية والشافعية وروايةٍ في مذهب الحنابلة[٣].

والظاهر أنَّ الناظمَ يُشير بهذا البيت إلى ما صدر في تلك المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية من القانون المُسمّى بـ«حقوق العائلة» في شهر مُحرَّم سنة ١٣٣٦ هـ الموافق لشهر أكتوبر سنة ١٩١٧ م[٤]، أي: قبل نَظْم هذه القصيدة

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٣٨ (سكر)، و«لسان العرب» لابن منظور ٤: ٣٧٢ (سكر).

(٢) انظر: «المبسوط» للسرخسي ٦: ١٧٦، و«بدائع الصنائع» للكاساني ٣: ٩٩، و«الشرح الكبير» للدردير ٢: ٣٦٥، و«تحفة المحتاج» لابن حجر ٨: ٣-٤، و«الإنصاف» للمرداوي ٨: ٤٣٣.

(٣) انظر: «الهداية» للمرغيناني مع شرحه «فتح القدير» لابن الهمام ٣: ٤٨٩-٤٩٠، و«روضة الطالبين» للنووي ٨: ٦٢، و«المغني» لابن قدامة ٧: ٣٧٩.

(٤) وقد أغضبَ هذا القانون الأقليات غير المسلمة من رعايا الدولة العثمانية، كما أغضبَ الطبقة المحافِظة من المسلمين، وهو ما أدّى إلى وَقْفِ العمل به في ١٩ من حزيران سنة ١٩١٩م. انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ٥١٩.

CS CamScanner

بسنةٍ بتمامها، حيثُ نصَّت المادة (١٠٤) منه على أنّ «طلاق السَّكران غير مُعتَبَر»[١]، وفي قسم التوضيحات المُلحَقة بالقانون أُفرِدَ الكلام على طلاق السكران بما يزيدُ عن صفحة، ذُكر فيها أنّ جمهور العلماء قسموا السكران إلى: مَن سَكِرَ بتناول المباح ومَن سَكِرَ بتناول الحرام، وبَنَوا عليه القولَ بأن طلاق الثاني مُعتَبَر دون الأول، ولكنْ ينبغي النظرُ إلى المسألة ـ حسب رأيهم ـ من جهة عدم وقوع الطلاق عند زوال العقل؛ إذ طلاقُ المجنون غير واقع، وحرصاً على بقاء الأسرة وعدم تخريبها ونظراً إلى شيوع الفسق بتناول المُسكِر في ذلك الزمان، واستناداً إلى القول المرويّ في مذهب الشافعيّ اختِيرَ القولُ بعدم وقوع طلاق السكران مطلقاً وصياغةُ المادة (١٠٤) بناءً عليه[٢].

ولمّا كان القولُ بعدم وقوع طلاق السكران منقولاً عن بعض الفقهاء في المذاهب الأربعة، وإنْ كانَ غيرَ مُعتَمَدٍ فيها، وكان القائمون على القانون المذكور قد استندوا عليه في إصدار هذا الحكم، بحيث يُتوهَّمُ أن أعضاء الحكومة من ورائهم كانوا حريصين على الالتزام بالأحكام الفقهية في تشريعاتهم المُحدَثة، أراد نفيَ هذا التوهُّم والتنبيهَ على أنهم إنما أرادوا التملُّص والتخلُّص من أحكام الشريعة، لا اتباعَ قول بعض الفقهاء، فقال: «هل ذا لهم نَسَبٌ في الدِّين مدخولُ»، أي: هل يكونُ لهم في هذا التشريع مُستَنَدٌ من الدِّين؟

وقوله: «مدخول» إما بمعنى: داخل، من إطلاق اسم المفعول في موضع

(١) انظر: «قانون العائلة العثماني» ص٤٩.

(٢) انظر: «قانون العائلة العثماني» ص٩٣-٩٤.

اسم الفاعل، وهو نوعٌ من المجاز المُرسَل، أي: هل لهم في هذا التشريع مُستَنَدٌ داخلٌ في الدِّين؟ وإما بمعنى: ما أصابه دَخَلٌ، أي: عيبٌ وغشٌّ وفساد[1]، أي: هل لهم في هذا التشريع مُستَنَدٌ فاسدٌ من الدين، فضلاً عن مُستَنَدٍ صحيح؟

وسيأتي ما يُتمِّمُ هذا المعنى في البيت الرابع والعشرين.

والجامع بين المثالين المذكورين ـ وهما: تجويز الجمع في النكاح بين الأُمِّ وبنتها، وعدم إيقاع طلاق السَّكْران ـ ما يقتضيانه من هَتْك الأعراض المُحرَّمة شرعاً.

ثم قال مُتعجِّباً متسائلاً عن وجه المصلحة في إحداث هذه التغييرات التي مثَّل عليها بالمثالين المذكورين:

٢٣. فإنْ تَرَوا فيهما أدنى مُصَيلِحةٍ سِوى قِيادةِ أَولادِ الخَنَا؛ قُولُوا

«إنْ» شرطية، وهي تجزمُ فِعلَين، و«تَـرَوا» فِعلُ الشرط مجزومٌ بحذف النون، وجملةُ «قولوا» في محلِّ جَزْم جواب الشرط، وحذفُ الفاء منه لضرورة الوزن، و«مُصَيلِحة»: تصغيرُ «مَصلَحة»، وأتى بها مُنكَّرةً مضافةً إلى «أدنى» مع التصغير للمبالغة في التقليل، أي: إن تَعلَموا في هذين الحكمَيْن المُحدَثَين أقلَّ مَصلَحةٍ ـ ولو صَغُرَت ـ فاذكروها، يعني: ليس فيهما شيء من المصلحة.

وقولُه: «سوى قيادة أولاد الخنا» استثناءٌ منقطع، وفيه تأكيدُ الذَّمِّ بما يُشبهُ المدح؛ إذ ظاهرُ التركيب أنها مصلحة، وهي في الحقيقة مَضَـرَّة.

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٢٤١ (دخل).

والخَنا ـ أو الخَنى ـ: الفُحْش في الكلام، يُقال: خَنَا في مَنطِقِه يَخْنو خَنْواً وخَنًا، وخَنِيَ في مَنطِقِه يَخْنى خَنًى، وأخنى عليه: أفحَشَ[1]. يعني: لم يَتَحصَّل من هذه التغييرات سوى تولِّي أصحاب الفُحشِ في المنطق والبذاءةِ في الكلام أمورَ الناس وتحكُّمِهم في أعراضهم.

ثم أكَّد ما ذكره من كونهم لم يقصدوا متابعةَ قولٍ فقهيّ في هذه المسائل، وإنما قصدوا التحرُّر من أحكام الشريعة والسَّير وراء الغَرْب، فقال:

٢٤. ولا يَغُـرَّنْـكَ نَـقْـلٌ هـانَ حُجَّـتُـهُ   وشَـرْعُهُم عن سِـفاحِ الغَـرْبِ مَنقُولُ

يريد بـ«النَّقْل» ما رُوي من قوله عليه السلام: «لا طلاقَ في إغلاق»[2]، وهو «مُحتَمِلٌ لمعانٍ» كما يقول الناظمُ في رسالته «الإفصاح عن حكم الإكراه في الطلاق والنكاح»[3] التي صنَّفها بعد نَظْم هذه القصيدة بنحو ثلاثين عاماً، يعني: أنَّ «الإغلاق» يحتملُ أن يُفسَّرَ بالإكراه، كما هو قولُ أكثر العلماء[4]، وأن يُفسَّرَ بالغضب، كما هو قولُ بعضهم[5]، وعلى كلِّ واحد من القولين يحتملُ أن يُفسَّرَ بما لا يبقى معه فهمٌ وتمييز، وأن يُفسَّرَ بما يبقى معه ذانك. ولهذه الاحتمالات هانَتْ حُجَّةُ هذا الحديث، أي: ضَعُفَ الاحتجاجُ به لضعف دلالته.

---

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٣٨: ٢٠ (خنو) و(خني).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢١٩٣)، وابن ماجه في «سننه» (٢٠٤٦) من حديث عائشة.

(٣) «الإفصاح» للكوثري ص٣٤٢.

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري ٨: ٣٦، و«معالم السُّنن» للخطابي ٣: ٢٤٢، و«الغريبَيْن» لأبي عبيد الهرويّ ٤: ١٣٨٣، و«الاستذكار» لابن عبد البر ٦: ٢٠٢، و«الفائق» للزمخشري ٣: ٧٢.

(٥) كأبي داود في «سننه» بإثر روايته الحديث المذكور.

والمعنى: لا يَغُرَّنَّك ورودُ هذا الحديث وتَظُنَّ أنه مُستَنَدُهم في هذا التشريع، بل تشريعُهم منقولٌ عن الغَرْب الذين يُشرِّعون ما يَهْوَون، ويحكمون بما يَشتَهون، من غير انضباطٍ بشرعٍ إلهيّ، ولذا يقعون في السِّفاح، وهو الزِّنا والفجور(١).

ثم تابع في تبشيع صنيعهم، وتقبيح فِعلِهم، في استبدال الأحكام الوضعيّة بالأحكام الشرعية المُتمثِّلة في الفقه الإسلاميّ، ولا سيَّما في مدارسه المتوارثة من فقهاء الصحابة إلى أئمة المذاهب، وعلى رأسها المدرستان الفقهيَّتان العظيمتان: مدرسةُ العراق ومدرسةُ الحجاز، فقال:

٢٥. فِقهُ العِراقِ وتَحديثُ الحِجازِ كأنْ   كِلاهُما اليومَ مَرجُوحٌ ومَعلُولُ

أي: كأنَّ فقهَ العراق وحديثَ الحجاز قد صارا اليوم مرجوحَيْن معلولَيْن في نظرهم، فلَزِمَهم تركُهما واستبدالُ غيرهما بهما! وفيه استدلالٌ استثنائيّ، تقديره: لو صار فقهُ العراق وحديثُ الحجاز مرجوحَيْن معلولَيْن لجاز تركُهما، ولكنَّهما لم يصيرا كذلك، فلم يَجُز تركُهما. وليس المقصودُ خصوصَ الفقه والحديث، وإنما التراث الإسلامي بوجه عام.

وفي البيت المذكور لفٌّ ونَشْرٌ؛ إذ «المرجوحُ» مما تُوصَفُ به الآراء الفقهية، و«المعلولُ» مما تُوصَفُ به الأخبار المرويّة. و«أنْ» ـ في قوله «كأنْ» ـ مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن محذوف، وجملة «كلاهما اليومَ مرجوحٌ ومعلولُ» خبرُها، والتقدير: كأنَّه كلاهما اليومَ مرجوحٌ ومعلولُ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٢: ٤٨٥ (سفح)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (سفح).

ثـم بيَّـن أنّ ما ذكره من مُحدَثاتِهم، كتجويزِهم الجمع بين الأم والبنت في النكاح وإبطالِهم طلاقَ السكران، إنما هو على سبيل التمثيل، وأنهم تجاسروا على أمثال ذلك كثيراً، فقال:

٢٦. كم أحْدَثوا بِدَعاً وكم مَحَوْا سُنَناً! إلحـادُهُـم بِرَدَى الأقـوام مَوصُـولُ

«كـم» للتكثيـر في الموضعين، والبدعةُ: ما أُحدِثَ في أمر الدين وليس له أصلٌ في الشـرع[1]. والسُّنّةُ: الطريقةُ المسـلوكة في الدِّين[2]. والإلحادُ: أصلُه الميـلُ والعدولُ عن الشـيء كما سبق[3]، ثم غلَبَ في الميـل عن طريق الحقِّ والإيمـان، وقـد يكـونُ ذلك في أصل الإيمـان بالله ورسـله ونحوهما، فيكون كفراً، وقد يكونُ فيما دون ذلك، فيكون فِسقاً. والرَّدى: الهلاك[4].

وفـي تعبيـره فـي الشـطر الثانـي بالجملـة الاسـمية الدالّـة علـى الثبـوت والاسـتقرار تأكيـدٌ للحكم المذكـور، وتقديمُ الجـارِّ والمجـرور ـ وهو قوله: «بـردى الأقـوام» ـ للاهتمام به لشِـدّةِ خَطَره، وإتيانُه بصيغـة الجمع فيه لزيادة الـذم والتقبيـح، حيثُ لم يكن هذا الهلاكُ مقصوراً علـى قوم دون آخرين، بل شمل جَمْعاً من الأقوام.

والمعنى: أنهم اخترعوا كثيراً من البدع، وأبطلوا كثيراً من السُّـنن، ومالوا

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر ١٣: ٢٥٣.

(٢) انظر: «التعريفات» للسيد الشريف ص١٢٢.

(٣) في شرح البيت الثامن عشر.

(٤) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٢: ٣٠٦ (ردي)، و«لسان العرب» لابن منظور ١٤: ٣١٦ (ردي).

عن طريق الحقِّ والإيمان إلى طريق الضلال والطغيان، وإلحادُهم هذا مُؤدٍّ إلى هلاك الناس، فليس ضررُه قاصراً عليهم، بل هو مُتعدٍّ إلى غيرهم.

ثم عاد الناظم إلى ما وصَفَهم به في الأبيات (٨-١٠) من سفاهة الرأي وضعف التدبير، فقال:

٢٧. كأنَّ كَهْلَهُمُ ما طَرَّ شارِبُهُ حَقّاً، وذا مُثْلَةٌ، فالكَهْلُ مَعذُولُ

الكهلُ من الرجال: مَنْ جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين[1]، وما طرَّ شاربُه، أي: ما نبَتَ، و«حقّاً» مفعول مُطلَق مُؤكِّدٌ للجملة قبله، يعني: كأنَّ الرجلَ منهم صبيٌّ، لقصورِ عقله وسفاهةِ رأيه في تدبير الأمور. والمُثلةُ: هي تشويهُ الخِلقةِ بقَطْع بعض الأطراف ونحوها[2]، يعني: كما أنّ حَلْقَ الشارب في الكَهْل بحيثُ يبدو في مَظهَرِه كالصبيِّ الصغير مُثلةٌ حسّيّةٌ مُستَقبَحة، فكذا قصورُ العقل فيمن يَتصدَّر المجالسَ ويترقّى في المناصب مُثلةٌ معنويّةٌ مُستَشنَعة. والعَذْل: المَلامة.

والظاهر أن المراد بقوله: «كَهْلهم» شخصٌ غير معيَّن من أولئك الساسة من الاتحاديِّين الذين تَولَّوا قيادة الدولة العثمانية ورئاسة حكومتها في تلك المرحلة، لكنَّ تعبيره عنهم بالكهولة مقصود، فالباشاوات الثلاثة: طلعت باشا (١٨٧٤-١٩٢١م) وأنور باشا (١٨٨١-١٩٢٢م) وجمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢م) كانوا كهولاً في حدود الأربعين عاماً حين انتهاء الحرب العالمية

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٦٠٠ (كهل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (كهل).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٦١٥ (مثل).

الأُولى في ١١ من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م، وهو زمانُ نَظْم هذه القصيدة (١ من تشرين الثاني سنة ١٩١٨م)، وكان هؤلاء الثلاثةُ أبرزَ المُتنفِّذين في السُّلطة أيامَ حكم الاتحاديِّين، فقد كان طلعت باشا وزيراً للداخلية سنة ١٩١٣م في حكومة الصَّدْرِ الأعظم سعيد حليم باشا ثم تولّى منصبَ الصَّدارة العظمى سنة ١٩١٧م، وكان أنور باشا وزيراً للحَرْبية وتولّى قيادة الجيوش العثمانية على عدد من الجبهات، وكذلك كُلِّفَ جمال باشا بقيادة الجيش العثماني الرابع المقاتل على جبهات الشام ومصر، وبعد الهزيمة في الحرب العالمية قدَّمَت هذه الحكومةُ استقالتَها في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م تمهيداً لعَقْدِ اتفاق الهُدنة، ثم استَقَلُّوا غوّاصةً ألمانية ليلةَ الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م ـ وهو ما يوافقُ اليوم التالي لنَظْم هذه القصيدة ـ هروباً من إسطنبول إلى بَرْلين[١].

ويحتمل أن يكونَ مرادُه بقوله: «كهلهم» شخصاً معيَّناً منهم، فإن تَرجَّحَ هذا الاحتمالُ فالظاهر أن المقصود منهم هو طلعت باشا، لأن وظيفته في نظارة (وزارة) الداخلية ثم الصدارة العظمى كانت في الجانب المدني الذي يَمَسُّ المجتمعَ مباشرةً، بخلاف الآخَرَين اللَّذَين كانت وظيفتاهما في الجانب العسكري.

وبعدما وصفهم في الأبيات (٨-١٠، ٢٧) بضعفِ عقولهم وسفاهةِ آرائهم، وذكر في الأبيات (١٣-٢٦) شيئاً من آرائهم المُحدَثة في الأمور الدينية التي ألحقت الضَّرَرَ بالناس والفسادَ بأعراضهم، وما ذاك إلا انبهاراً منهم بالغَرْب وتشبُّثاً بأذياله، وانسياقاً وراءه وتعثُّراً على أبوابه، أراد في الأبيات

(١) سبق ذِكرُ هذه الحوادث التاريخية بمزيد بيانٍ وتفصيل في الدراسة. انظر: (٢. ١. تمهيد).

ٓتيـة (٢٨-٣٣) أن يذكـر طرفاً من آرائهم السياسـية التـي أودَتْ بالدولة إلى هـلاك، وبالبـلاد إلـى الضيـاع، مُلحِقـاً بها فـي الأبيـات (٣٤-٤١) طرفاً من اراتهم الاجتماعية، فقال:

١. كَسَوا قَلانِسَ (وِيلَهَلْمَ) جَيْشَهُمُ (وَيلٌ هَلُمَّ) خِطابٌ فيـه تَـهويـلُ

أما وِيلْهَلْم ـ بسكون اللامين، وحُرِّكت الأُولى منهما في هذا البيت بالفتح اعاةً للوزن ـ فهو المَلِكُ الألماني وِيلْهَلْم (فِيلْهَلْم) الثاني (١٨٥٩-١٩٤١م) معروف في عدد من المصادر العربية بـ(غليوم) الثاني، وقد تولّى الحكم سنة ١٨٨م، وأُجبِر على التنحّي عنه سـنة ١٩١٨م إثرَ خسـارة ألمانيا في الحرب عالمية الأُولى، ونُفي إلى هولاندا وعاش فيها إلى وفاته.

يُشـير الناظمُ إلى أنَّ أولئك الساسـةَ قد عَقَدوا مع الألمان اتفاقيةَ «الحِلف عثماني الألماني» في الثاني من آب (أغسطس) سنة ١٩١٤م، وذلك بعد يوم حـد مـن إعلان ألمانيا الحربَ على روسـيا، وكانت بتوقيـع الصَّدْر الأعظم ـعيد حليـم باشـا ـ ولم يكـن راضياً عنهـا ـ ووزيـر الحربية أنور باشـا ووزير داخليـة طلعت باشـا، وبِدَعْم جمال باشـا في مجلس الـوزراء، لكنْ من غير ـبـار السُّـلطان محمد رشـاد (محمـد الخامس) ولا سـائر الـوزراء عنها[1]، بمُوجَب هذه الاتفاقية وبعد نَحْوِ ثلاثة أشهر دخلت الدولةُ العثمانيةُ الحربَ عالميـة فـي صَفِّ قُـوى المركـز (ألمانيا والنَّمْسـا وبُلغاريا)، فـي مقابل دُوَل حلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا).

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٥-١٣٦.

الأُولى في ١١ من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م، وهو زمانُ نَظْم هذه القصيدة (١ من تشرين الثاني سنة ١٩١٨م)، وكان هؤلاء الثلاثةُ أبرزَ المُتنفِّذين في السُّلطة أيامَ حكم الاتحاديِّين، فقد كان طلعت باشا وزيراً للداخلية سنة ١٩١٣م في حكومة الصَّدْرِ الأعظم سعيد حليم باشا ثم تولّى منصبَ الصَّدارة العظمى سنة ١٩١٧م، وكان أنور باشا وزيراً للحَرْبية وتولّى قيادة الجيوش العثمانية على عدد من الجبهات، وكذلك كُلِّفَ جمال باشا بقيادة الجيش العثماني الرابع المقاتل على جبهات الشام ومصر، وبعد الهزيمة في الحرب العالمية قدَّمَت هذه الحكومةُ استقالتَها في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م تمهيداً لعَقْدِ اتفاق الهُدنة، ثم استَقَلُّوا غوّاصةً ألمانية ليلةَ الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م ـ وهو ما يوافقُ اليوم التالي لنَظْم هذه القصيدة ـ هروباً من إسطنبول إلى بَرْلين[١].

ويحتمل أن يكونَ مرادُه بقوله: «كهلهم» شخصاً معيَّناً منهم، فإن تَرجَّحَ هذا الاحتمالُ فالظاهر أن المقصود منهم هو طلعت باشا، لأن وظيفته في نظارة (وزارة) الداخلية ثم الصدارة العظمى كانت في الجانب المدني الذي يَمَسُّ المجتمعَ مباشرةً، بخلاف الآخَرين اللَّذَين كانت وظيفتاهما في الجانب العسكري.

وبعدما وصفهم في الأبيات (٨-١٠، ٢٧) بضعفِ عقولهم وسفاهةِ آرائهم، وذكر في الأبيات (١٣-٢٦) شيئاً من آرائهم المُحدَثة في الأمور الدينية التي ألحقت الضَّرَرَ بالناس والفسادَ بأعراضهم، وما ذاك إلا انبهاراً منهم بالغَرْب وتشبُّثاً بأذياله، وانسياقاً وراءه وتعثُّراً على أبوابه، أراد في الأبيات

---

(١) سبق ذِكرُ هذه الحوادث التاريخية بمزيد بيانٍ وتفصيل في الدراسة. انظر: (٢ . ١ . تمهيد).

الآتية (٢٨-٣٣) أن يذكر طرفاً من آرائهم السياسية التي أودَتْ بالدولة إلى الهلاك، وبالبلاد إلى الضياع، مُلحِقاً بها في الأبيات (٣٤-٤١) طرفاً من قراراتهم الاجتماعية، فقال:

٢٨. كَسَوا قَلانِسَ (وِيلَهَلْمَ) جَيْشَهُمُ (وَيلٌ هَلُمَّ) خِطابٌ فيه تَهويلُ

أما وِيلْهَلْم ـ بسكون اللامين، وحُرِّكت الأُولى منهما في هذا البيت بالفتح مراعاةً للوزن ـ فهو المَلِكُ الألماني وِيلْهَلْم (فِيلْهَلْم) الثاني (١٨٥٩-١٩٤١م) المعروف في عدد من المصادر العربية بـ(غليوم) الثاني، وقد تولّى الحكم سنة ١٨٨٨م، وأُجبِر على التنحّي عنه سنة ١٩١٨م إثرَ خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الأُولى، ونُفي إلى هولاندا وعاش فيها إلى وفاته.

يُشير الناظمُ إلى أنَّ أولئك الساسةَ قد عَقَدوا مع الألمان اتفاقيةَ «الحِلف العثماني الألماني» في الثاني من آب (أغسطس) سنة ١٩١٤م، وذلك بعد يوم واحد من إعلان ألمانيا الحربَ على روسيا، وكانت بتوقيع الصَّدْر الأعظم سعيد حليم باشا ـ ولم يكن راضياً عنها ـ ووزير الحربية أنور باشا ووزير الداخلية طلعت باشا، وبدَعْم جمال باشا في مجلس الوزراء، لكنْ من غير إخبار السُّلطان محمد رشاد (محمد الخامس) ولا سائر الوزراء عنها[1]، وبِمُوجَب هذه الاتفاقية وبعد نَحْوِ ثلاثة أشهر دخلت الدولةُ العثمانيةُ الحربَ العالمية في صَفِّ قُوى المركز (ألمانيا والنَّمْسا وبُلغاريا)، في مقابل دُوَل الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا).

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٥-١٣٦.

والقلانسُ: جمعُ قَلَنسُوة، وهي ما يُلبَسُ على الرأس، وهي المفعولُ الثاني للفعل «كَسَوا»، ومفعولُه الأول مُؤَخَّرٌ، وهو «جيشهم»، والتقدير: كَسَوا جيشَهم قلانسَ الجيش الألماني، وهو كنايةٌ عن ائتمارهم بإمرة الألمان وانقيادهم لطاعتهم، وليس في هذا مبالغةٌ من الناظم، وشاهدُه المادةُ الثالثة من الاتفاقية المذكورة، وسنذكرُ نصَّها في شرح البيت التالي.

وصرَّحَ باسم المَلِك (وِيلْهَلْم) ليَتَأتّى له ما يُسمّى في علم البديع بـ«التوجيه» أو «مُحتَمِل الضِّدَّين»، وهو إيرادُ الكلام مُحتَمِلاً لوجهين مختلفين[1]، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، على القول بأنه كان يُكنى بهذه الكنية في الجاهلية لحُسنِه وإشراق وجهه، فكناه اللهُ بها في القرآن الكريم لأنَّ مصيره إلى النار، كما هو أحدُ الأقوال في تفسير الآية[2]. فكذا ما نحن بصَدَدِه، أتى باسمه الصريح (وِيلْهَلْم) ليكون محتمِلاً لتسميته باسمه العَلَم وللتهويل بلفظه، حيثُ يُشابِهُ في نُطقِه عبارةَ (ويلٌ هَلُمَّ) الدالّة على التخويف، وبين اللفظتَيْن جناسٌ ناقص، فالويلُ: حلولُ الشَّرّ[3]، و«هَلُمَّ»، أي: أقبِل، والتهويلُ: التفزيعُ والتخويف[4]، فكان في اسمه تلميحٌ إلى تخويفهم عن الانضمام إليه في تلك الحرب.

---

(١) انظر: «الإيضاح لتلخيص المفتاح» للخطيب القزويني ص٥٧٥، و«المطوَّل» للتفتازاني ص٧٩٧.

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور ٣٠: ٦٠١ (المسد: ١).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٧٣٧ (ويل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ويل).

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٧١٢ (هول).

والتفاؤلُ بالاسم الحسن مأثور عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم، كما روى بُريدة قال: «كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لا يَتَطيَّرُ من شيء، ولكنه كان إذا أراد أن يأتي أرضاً سأل عن اسمها، فإن كان حسناً رُئي البِشرُ في وجهه، وإن كان قبيحاً رُئي ذلك في وجهه، وكان إذا بعث رجلاً سأل عن اسمه، فإن كان حسن الاسم رُئي البِشرُ في وجهه، وإن كان قبيحاً رُئي ذلك في وجهه»(١)، وفي رواية أخرى عن بُريدةَ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم: «إذا أبرَدتُم إليَّ بَرِيداً فأبرِدُوهُ حسَنَ الوجه حسَنَ الاسم»(٢)، ونحوُه من حديث أبي هريرة(٣). وجاء في قصّة صُلح الحديبية: أنه لمّا جاء سُهيلُ بن عمرو قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلَّم: «لقد سَهُلَ لكم من أمركم»(٤). وروى أنس بن مالك: «أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلَّم كان يُعجِبُه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نَجِيح»(٥). وروى أبو هريرة: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم يُحبُّ الفأل الحسن ويكره الطِّيَرة»(٦).

وكراهةُ الاسم القبيح مأثورٌ عنه صلّى الله عليه وسلَّم أيضاً، كما يدلُّ عليه قولُه عليه السلام: «تَسَمَّوا بأسماء الأنبياء، وأحبُّ الأسماء إلى الله

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٩٤٦).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» (٤٣٨٣).

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٨٦٣٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٧٤٧).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٧٣١) عن عكرمة مرسلاً، وأخرجه في «الأدب المفرد» (٩١٥) من حديث عبد الله بن السائب.

(٥) أخرجه الترمذي في «جامعه» (١٦١٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣٥٣٦).

CamScanner

عبـدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها حارث وهمّام، وأقبحُها حربٌ ومُرّة»(١).

وروي أنه «دعا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم بناقة يوماً، فقال: مَنْ يَحلِبُها؟ فقال رجل: أنا، قال: ما اسـمك؟ قال: مُرّة، قال: اقعُد، ثم قام آخرُ فقال: ما اسمك؟ قال: جمرة ـ وفي رواية: حرب ـ قال: اقعُد، ثم قام يعيشُ، فقال: ما اسمك؟ قال: يعيش، قال: احلِبْها»(٢). وفسَّـرَ ابنُ عبد البر هذين الحديثين بأنهما ليسا من باب الطِّيَرة، فإنها منهيٌّ عنها، وإنما هما من باب طَلَبِ الفأل الحسن(٣).

وعليـه، فمـا أُشير إليه في البيت من أنَّ في اسـم (وِيلْهَلْم) قُربـاً من «وَيْلٌ هَلُـمَّ» فـي التلُّفـظ به يكونُ من بـاب كراهة الاسـم القبيح والنَّفـرة عنه، لا من باب التشـاؤم الذي هو منهيٌّ عنه، فهو اسـم مُسـتَقبَحٌ مكروه لا حُسْنَ فألٍ فيه، على أنّ النهيَ عن التطيُّر والتشاؤم إنما هو على مُعتَقَدِ أهل الجاهلية من نسبة الشرور والمفاسد إلى ما يتطيّرون به، فالتشاؤمُ بالاسم القبيح على هذا المعنى داخـلٌ في ذاك النهي، وأما الحذرُ من الاسـم القبيـح والنَّفْرةُ عنه مُعتَقِداً أن الله تعالى قد أجرى العادة بأنْ يُقدِّر على العبد ما فيه شرٌّ له بمُلابسةِ الاسم القبيح مـن غيـر تلازم ولا تأثير بينهمـا فغيرُ داخل في النهي المذكور، بل هو من باب الفراسة.

ومنـه مـا جاء عـن عُمَرَ بـنِ الخطـاب رضي الله عنـه: «أنه قـال لرجل: ما

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٥٠) من حديث أبي وهب الجشمي.

(٢) أخرجـه الطبرانـي في «المعجم الكبير» (٧١٠) مـن حديث يعيش الغفاري. وأخرجه مالك في «الموطأ» (٢٧٤٣) مرسلاً.

(٣) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر ٢٤: ٧١.

اسمُكَ؟ قال: جَمْرة، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ شهاب؟ قال: مِمَّن؟ قال: من الحُرَقة؟ قال: أين مسكنك؟ قال: بحَرّة النار، قال: بأيِّها؟ قال: بذات لظى، فقال عمر: أدرِكْ أهلَكَ فقد احترقوا. فكان كما قال عمرُ بنُ الخطاب»[1]، قال الإمامُ الباجي في شرحه: «هو شيء يُلقيه الله عزَّ وجلَّ في قلب المُتفائل عند سماع الفأل من السرور بالشيء وقوّة رجائه فيه، أو التوجُّع من الشيء وشدّة حَذَرِه منه، يظنُّ ذلك ويُلقيه الله سبحانه على لسانه، وقد وافق ذلك ما قدَّر الله تعالى»[2]. وذكر القاضي أبو بكر ابنُ العربي أن بعضهم فسَّرَه بالإلهام، وبعضهم فسَّرَه بالفراسة[3].

ثم تعجَّب الناظمُ من تشبُّث أولئك الساسةِ بحِلفِ الألمان واسترسالهم فيه، فقال:

٢٩. كِدْنا نُصَلِّي إلى بَرْلينَ وِجْهَتِنا ... ومُوقُ أهلِ التُّقَى بالدَّمْعِ مَبلُولُ

بَرْلين: هي عاصمةُ الإمبراطورية الألمانية في ذلك الحين، كما هي العاصمةُ الفيدرالية لجمهورية ألمانيا الاتحادية اليوم، أي: كادت تكونُ بَرْلينُ قِبلتَنا في الصلاة، فقولُه: «وِجْهَتنا» إما مجرورٌ على البَدَلية من «بَرْلين»، أي: كِدْنا نُصلّي إلى وجهتِنا الجديدة المُسمّاة بَرْلين، أو منصوبٌ على نَزْع الخافض، أي: كِدْنا نُصلّي إلى بَرْلين في وِجهتِنا، أي: في تَوجُّهِنا، والمعنى واحد، وهو انسياقُ أولئك الساسة وراء الألمان

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٧٤٤) عن يحيى بن سعيد مرسلاً.

(٢) «المنتقى» للباجي ٧: ٢٩٨.

(٣) انظر: «القبس» لابن العربي ص١١٤٩.

وانقيادُهم لهم، وشاهدُ هذا الانقياد وذاك الانسياق ما ورد في المادة الثالثة من اتفاقية «الحلف العثماني الألماني» المُوقَّعة سنة ١٩١٤م ـ وقد ذكرنا سياقَها التاريخيَّ في شرح البيت السابق ـ من «أن تُوضَع القُوّاتُ العثمانية في حال الحرب تحت إمرة الهيئة العسكرية الألمانية»(١)، وتبعاً لذلك اضطُرَّتِ الجيوشُ العثمانية خلال الحرب الكبرى إلى القتال على جَبَهات متعدِّدة؛ في روسيا والعراق وفلسطين وسوريا وسيناء مِصرَ والحجاز ومَضِيقِ الدَّرْدَنيل وغيرها، وإلى التحرُّك بطريقة تتفقُ مع آراء الألمان بوجه عام، وتخدُمُ أهدافَهم الحربية، وتُخفِّفُ عنهم الضغط في جَبَهات الحرب(٢).

أما أهلُ التقوى والصلاح فلم يكونوا راضين عن هذه القرارات السّياسية والعسكرية، كما أشار إليه بقوله: «ومُوقُ أهل التُّقى بالدَّمْع مبلولُ»، والمُوقُ: هو مُؤقُ العَين، سُهِّلت همزتُه، وهو طرفُ العين مما يلي الأنف، وهو مَجْرى الدَّمْع منها، وجمعُه أمواق(٣).

ثم تساءل عن العِلّةِ الباعثة والغَرَضِ الداعي إلى هذا الحِلفِ قائلًا:

٣٠. فهل لإعلاءِ دينِ الله حالَفَنا الـ ... ألمانُ أم لَهُمُ في البَغْيِ تَطْفيلُ؟

«أم» متصلةٌ لتعيين أحد الأمرَيْن، والاستفهامُ غيرُ حقيقيّ، وإنما هو

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٥.
(٢) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٣٧.
(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (مأق) و(موق).

استفهامٌ تقريريٌّ للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين[١]، والمعنى: هل كان الغَرَضُ من هذا التحالف إعلاءَ دين الله أم كان أمراً احتاج إليه الألمانُ واستَبَدَّ هؤلاء الساسةُ بقبوله من غير حقٍّ لهم، كما هو شأنهم وعادتهم؟ فالضمير في «لهم» للساسة، وهم مرجعُ الضمائر في الأبيات السابقة واللاحقة. وفي هذا الأسلوب يطلبُ السائلُ في الظاهر تعيينَ أحد الأمرين ويريدُ في الحقيقة تقريرَ أحدهما، ومن الظاهر أنَّ الناظمَ يريدُ هنا تقريرَ الشِّقِّ الثاني.

والبغـيُ: الظلـم، والتطفيلُ: أصلُه الإتيانُ إلى الطعام من غير دعوة، يُقال: طفَّلَ عليه وتَطَفَّل عليه تطفيلاً، والمرادُ به هنا: التعدّي على حقِّ الغير استبداداً. ومن الظاهر أنَّ الاتِّصافَ بكلٍّ واحد من هذين الأمرين ذميمٌ، فالبغيُ ـ بتطفيل كان أو دون تطفيـل ـ رَدِيءٌ مُستَشنَع، والتطفيـلُ ـ ولـو كان فـي مباح ـ دَنِـيءٌ مُستَبشَـع، فيكـف وقد جعلوا تَطفُّلَهـم في البغي على حقوق النـاس والتَّعدِّي عليها؟

ثم بيَّن شيئاً مما ارتكبوه في حقوق الرعية تبعاً للتحالف المذكور، فقال:

٣١. سَاقُوا الخَلائقَ للهَيجاءِ، مِزوَدُهُم ... خِلْوٌ عنِ الزَّادِ، لا قَمْحٌ ولا فُولُ
٣٢. عُزْلاً عُـراةً بـلا زادٍ وراحِـلـةٍ ... وإن رأوا مِن حَشيشٍ فَهوَ مأكُـولُ

الخلائـق: جمـعُ الخليقة، وهـم النـاس، والمراد هنا: الجيـش. والهيجاء: الحـرب[٢]. والمِـزوَدُ: وعاءُ الـزاد، وهو الطعام المُـتَّخَذ للسَّـفر[٣]. والخِلْوُ:

(١) انظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور ١: ٥٨٠ (البقرة: ٨٠).
(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٢: ٣٩٥ (هيج)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (هيج).
(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٣: ١٩٨ (زود)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (زود).

CamScanner

الخالي، أي: الفارغ. والمعنى: أنهم أرسلوا الجيش العثماني إلى الحرب من غير إعداد ولا إمداد.

وقوله: «لا قَمْحٌ ولا فولٌ» بتكرير «لا» النافية، قال ابن عاشور: «العربُ تأتي بمثل هذا التركيب المشتمل على «لا» النافية مكرَّرةً في غَرَضَين: تارةً يقصدون به إضاعةَ الأمرين، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، وتارةً يقصدون به إثباتَ حالةٍ وَسَطٍ بين حالين، كقوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]»[١]، ولا يخفى أن المذكور هنا من القسم الأول.

وذِكرُ القَمْح والفُول كنايةٌ عن الغِذاءِ مطلقاً، ثم تَرقّى منه إلى نفي الحاجات الأساسية كلِّها من غذاء ولباس وآلة وسلاح، على ما فصَّله بقوله: «عُزلاً عراةً بلا زادٍ وراحلةٍ»، ونصبُها على الحال من «الخلائق»، أي: أرسلوا الخلائقَ إلى الحرب حالَ كونهم عُزلاً عُراةً بلا زادٍ وراحلة. والعُزْلُ: جمع أعزل، وهو مَنْ لا سلاح معه[٢]، والعُراةُ: جمعُ عارٍ، وهو مَنْ لا لباسَ على بَدَنِه، أي: أرسلوهم إلى الحرب عُزْلاً بلا سلاح، وعُراةً بلا لباس، ومُشاةً بلا رواحل، وجَوْعى بلا طعام، والمرادُ نفيُ الكفاية من ذلك كلِّه عند إرسالهم إياهم، ونفيُ الوجود في أثناء الحرب، حتى اضطُرَّ هؤلاء الجند إلى أكل الحشيش، وهو اليابسُ من العُشب[٣]، على ما أفاده قولُه: «وإنْ رأوا من حشيشٍ فهو مأكولُ».

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور ٥: ٢٤١ (النساء: ١٤٣).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٦: ٨٥ (عزل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عزل).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٦: ٢٨٢ (حشش)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (حشش).

وتنكيرُ «حَشِيش» للتعميم، و«مِن» زائدة لتوكيد العموم، وجمهور النُّحاة على أنه لا تَصِحُّ زيادتُها إلا بعد نفي أو شِبهِه ـ وهو النهي والاستفهام ـ، وزاد بعضُ النُّحاة الشَّرْطَ أيضاً، ولم يشترط الأخفشُ وبعضُ الكوفيِّين ذلك أصلاً[1]، فأجازوا زيادتها في الكلام المُوجَب، قال ابنُ مالك: «وبقوله أقولُ، لثبوت السماع بذلك نَظْماً ونَثْراً»[2]. فما ورد في هذه المنظومة من زيادتها صحيحٌ على القولين الأخيرين.

يُشيرُ الناظم في هذين البيتَين إلى معركة (صاري قاميش) التي خاضَتْها الدولةُ العثمانية ضِدَّ الإمبراطورية الرُّوسية ما بين ٢٢ من كانون الأول ١٩١٤م إلى ١٧ من كانون الثاني ١٩١٥م، وهي الحرب التي أيَّدَها رئيسُ الأركان العامة للجيوش العثمانية فريدريش برونسارت فون شيليندورف Friedrich Bronsart Von Schellendorf، وعارَضَها قائدُ الجيش العثماني الثالث حسن عِزَّت باشا (١٨٧١-١٩٣١م)، وقرَّر أنور باشا وزير الحربية حينها خوضَها، وهو ما أدَّى إلى استِقالةِ حسن عِزَّت باشا في ١٨ من كانون الأول، وتصفيةِ قادة الفَيْلَق الذين أبدَوْا مُعارضَتَها، وحينها قام أنور باشا نفسُه بقيادة الجيش العثماني الثالث في هذه الحرب.

وعلى الرغم من تفوُّق الجيش العثماني آنذاك على الجيش الرُّوسي عدداً، حيثُ ضمَّ الأولُ ما يزيد على ٩٥ ألف جنديّ، في مقابل حوالي

---

(١) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام ص٤٠٤، و«شرح الألفية» للأشموني بحاشية الصَّبّان، ٢: ٣١٤-٣١٥.

(٢) «شرح التسهيل» لابن مالك ٣: ١٣٨.

٦٥ ألف جندي، فقد كان الجيش الرُّوسيُّ في حالةٍ أفضلَ بكثير من جهة العُدَدِ الشَّتْوية والإمداداتِ التموينية (الخدمات اللُّوجستية)، مُعتَمِدين على السِّكَك الحديدية في إيصال العُدَدِ والإمداداتِ اللازمة، في حين كانت المَحَطَّةُ الأقربُ في خطوط السِّكَك الحديدية في الجانب العثماني على بُعد ٦٠٠ كيلومتراً تقريباً.

وأسفَرَت الحربُ عن خسارةٍ مَريرة وهزيمةٍ مُوجِعة للعثمانيِّين، حيثُ بلَغَ عددُ شُهَدائهم حوالي ٣٠ ألفاً، مات كثير منهم تجمُّداً بسبب البرد القارص وانقطاع الإمدادات، ووصَلَ عددُ الأسرى إلى حوالي ٢٠ ألفاً، مات أكثرهم بعد نَقْلِهم إلى المعسكرات الرُّوسية بسبب ظروف احتجازهم السَّيِّئة، ومع أن الخسائر الروسية كانت عالية أيضاً فإن الخسائر العثمانية كانت فاجعةً[١]. وتُلخِّصُ هذه المعركةُ ذِهنيّةَ أولئك الساسة من الاتحاديِّين، وتُعبِّر أوضحَ تعبيرٍ عن «إهدار القوة العسكرية العثمانية في سبيل تحقيق أهداف الحرب لحلفائها الألمان»[٢].

وإلى هذه الخسائر في أرواح الجند أشار الناظم بقوله:

٣٣. كم ماتَ صَبْراً وكم بَرْداً وكم سَغَباً! ما الكُلُّ إلا إلى المَغْواةِ مَعْتُولُ

«كم» خبرية للتكثير، أي: كثير من الجند مات صبراً، أي: محبوساً مُوثَقاً حتى الموت، وكثير منهم مات بَرْداً، وكثير منهم مات سَغَباً، أي: جوعاً[٣]،

(1) Tuncay Öğün, «Sarıkamış Harekâti», TDV İslâm Ansiklopedisi, 46/472-473.

(2) Tuncay Öğün, «Sarıkamış Harekâti», TDV İslâm Ansiklopedisi, 46/473.

(٣) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٣: ٧٧ (سغب)، و«لسان العرب» لابن منظور ١: ٤٦٨ (سغب).

CamScanner

فالأولُ أوقَعَه في الأَسْرِ ثم أدّاه إلى الموت نَقْصُ العَتاد، والثاني والثالث أدّاهما إلى الموت خِفّةُ اللباس وقِلّةُ الزاد، والجامع بينهم أنهم سِيقوا جميعاً إلى الهلاك سَوْقاً عنيفاً، كما قال: «ما الكلُّ إلا إلى المَغْواة مَعْتولُ»، والمَغْواة: الأرض المُهلِكة(١)، والمَعْتولُ: المَسُوقُ بعُنفٍ كما فسّره به الناظمُ في هامش الأصل، مفعولٌ من: عتَلَه يَعتِلُه ويَعتُلُه عَتْلاً، أي: جرّه جرّاً عنيفاً، وقاده قَوْداً شديداً(٢)، بقَهْرٍ وجفاء(٣).

ثم بيَّن أن شناعة فِعلَتِهم لم تقتصر على إرسال هؤلاء الجند إلى الهلاك، بل تَعدَّتْهم إلى سوء تعاملهم مع أهاليهم، مُتخلِّصاً(٤) بذلك من بيان شنيع قراراتهم العسكرية إلى قبيح قراراتهم الاجتماعية، فقال:

٣٤. في الخِدْرِ كم هَتَكُوا عِرْضَ الكُمَاةِ وَكُلُّهُمْ بحَرْبِ العِدى في الثَّغْرِ مَشْلُولُ

«كم» خبرية للتكثير، وهي من الأسماء التي لها الصدارةُ في الجملة، فتقديمُ «في الخِدر» عليها لضرورة الوزن، والتقدير: كم في الخِدرِ هتكوا،

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٥: ١٤١ (غوي).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٢٣-٤٢٤ (عتل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عتل).

(٣) انظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني ص٤٣٩ (عتل)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس ٤: ٢٢٣-٢٢٤ (عتل).

(٤) التخلُّص: هو الانتقال مما شُبِّبَ الكلامُ به -أي: ابتُدِئَ وافتُتِح- إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما، فإذا كان التخلُّصُ حسناً متلائم الطرفين حرَّك من نشاط السامع وأعان على إصغاء ما بعده. انظر: «الإيضاح لتلخيص المفتاح» للقزويني ص٦٦٥-٦٦٦، و«المطوَّل» للتفتازاني ص٨٧٩-٨٨٠.

CamScanner

وتقديمُه على مُتعلَّقِه ـ وهو «هتكوا» ـ، إذ الأصلُ أن يُقال: كم هتكوا في الخِدر ـ للتفظيع وزيادة الإنكار عليهم، إذ هَتْكُ العِرْضِ مُنكَرٌ قبيحٌ مطلقاً، فإن كان في حال تستُّر الفتاة وامتناعها فهو أشدُّ نكارةً وقُبحاً.

والخِدر: سِترٌ يُمَدُّ للجارية في ناحية البيت، ويُطلَقُ على البيتِ نفسِه إن كان فيه امرأةٌ، أو على البيتِ مطلقاً[١]. والهَتْكُ: خَرْقُ السِّتر وشَقُّه عما وراءه[٢]، وكثيراً ما يُقصَدُ به الاعتِداءُ بالزِّنا إذا أُضيفَ إلى العِرْض، ولكنَّه لا يختصُّ به. والكُماة: جمعُ كَمِيّ، وهو الشجاع الجريء، وربما قُيِّدَ بلابس السِّلاح[٣]، لأنه يتكمّى في سلاحه، أي: يَتَغطّى به[٤]. وأراد بهم هنا أفرادَ الجيش المذكور في الأبيات السابقة. والمعنى: أنهم بعدما أرسلوا الجيشَ من غير إعداد، وتركوهم بلا إمداد، كثيراً ما تجاسروا على خَرْقِ حُرُماتِ بيوتهم، وهَتْكِ أعراضِ أهليهم. والظاهر أنَّ مرادَه بخَرْقِهم الحرماتِ وهَتْكِهم الأعراضَ هو تسبُّبُهم بذلك، فإنهم لم يُعينوا أُسَرَ الجند الذين أرسلوهم إلى تلك الجبهة البعيدة، ولم يتكفَّلوا بذوي الشهداء الذين قُتِلُوا في تلك المعركة الشديدة، فانتشر الفقرُ والعَوَزُ، مما أدّى إلى ظهور تلك الطرق الفاسدة في المجتمع، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا في البيت السادس والثلاثين. والكلامُ عن

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٤: ٢٣٠ (خدر)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (خدر).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٦: ٣٢ (هتك)، و«لسان العرب» لابن منظور ١٠: ٥٠٢ (هتك).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٣٩: ٤١٨ (كمي).

(٤) «مقاييس اللغة» لابن فارس ٥: ١٣٧ (كمي).

CamScanner

المجتمع إجمالاً، لا عن أفراده تفصيلاً، فلا يلزمُ أن تكونَ الأعراضُ المهتوكة هـي أعـراضَ الجند أنفُسِـهم، وإنما هي أعـراضُ المجتمع كمـا أن هؤلاء هم جنودُه.

وقولـه: «وكلُّهم بحَرْبِ العِدى في الثَّغْرِ مَشلولُ»: العِدى[1] بكسـرِ العين وضمِّها: الأعداء، والثَّغْرُ: هو الموضعُ الذي يُخافُ منه هجومُهم[2]، والمشلولُ: المطـرودُ المتفـرِّقُ بعضُه عن بعض، يُقال: شَـلَّهم شـلّاً، أي: طرَدَهم، وأصبح القومُ شِلالاً، أي: متفرِّقين[3]، ويُقال: ذهبوا فِلالاً وطاروا شِلالاً، أي: مفلولين مشـلولين[4]. والجملـةُ حاليّةٌ: إمـا من الفاعل في «هتكـوا»، وهو الأظهر، أي: كثيـراً مـا اعتـدَوا على أعراض المسـلمين حالَ كونِ هـؤلاء المُعتَدِيـن ضُعَفاءَ مُنهَزِميـن فـي حرب الأعداء، مـع أنَّ الأمرَ ينبغي أن يكـون على العكس، على وَفْقِ ما قيل:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نَعامةٌ[5]

---

(١) قـال الزَّبيـديُّ في «تاج العروس» ٣٩: ١٢ (عدو): «الصوابُ أنه يُكتَبُ بالياء وإن كان واوياً لكسرة أوله».

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (ثغر).

(٣) «مقاييس اللغة» لابن فارس ٣: ١٧٤ (شلل).

(٤) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٣: ١٧٤ (شلل).

(٥) شـطر من بيت شـعر قاله عمران بن حَطّان في تأنيب الحجاج، كما في «التاريخ» لخليفة بن خياط ص٢٧٤، و«ثمار القلوب» للثعالبي ص٤٤٣، و«ربيع الأبرار» للزمخشري ٤: ١٠٦، وغيرها، وقيل: إن البيت لغيره، وتمامه:

فَتخاءُ تَنفِرُ من صَفيرِ الصافرِ

وإما من «الكُماة»، على قولِ ابن مالك وغيره بجواز مجيء الحال من المُضافِ إليه إذا كان المُضافُ كالجزءِ من المُضافِ إليه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[1] [البقرة: ١٣٥]، والعِرْضُ كالجزء من الكُماة، أي: كثيراً ما اعتَدَوا على أعراض المسلمين حالَ كونِ هؤلاء المُعتَدى على أعراضهم عاجزين عن الدفاع عنها، بسبب بُعدِهم وانشغالِهم بحرب الأعداء.

ثم تابع قائلاً:

٣٥. للمُسلِماتِ مَوَاخِيرَ القِيادةِ في كُلِّ البلادِ بَنَوْا، فهُمْ مَرَاذِيلُ

المواخير: جمعُ ماخور، وهو بيتُ الرِّيبة ومَجمَعُ الفَسَقة ومجلس الخمّارين[2]، ونصبُه لأنه مفعولُ «بَنَوا»، والقيادةُ: أصلُ معناها: جَرُّ الشيء من موضع إلى آخر، وهو نقيضُ السَّوْق، فالقَوْدُ من أمام، والسَّوْقُ من خَلْف، ويُطلَقُ على فِعلِ الدَّيُّوث، فيُقال: قاد على الفاجرة قيادةً، وهو قوّاد، وهو الذي يُدخِلُ الرجال على أهله ولا يغارُ عليهم[3]. وتقديمُ الجارِّ والمجرور «للمسلمات» والمفعولِ «مواخير القيادة» لتفظيع فِعلِهم وزيادة الإنكار عليهم؛ إذ بناؤها مذموم شرعاً وعُرفاً مطلقاً، فكيف إذا كان بناؤها للمسلمات.

والمعنى: أنهم فتحوا بيوتَ الدَّعارة للنِّساء المسلمات في أنحاء البلاد، فكان فِعلُهم فِعلَ الدَّيُّوث، فإنه يُدخِلُ الرجال على نسائه، وهؤلاء أدخلوا الرجال على النِّساء المسلمات، وهنَّ نساؤهم؛ لكونهم في موقع الحكم

(١) انظر وجوه إعراب «حنيفاً» من هذه الآية في «الدُّر المصون» للسمين الحلبي ٢: ١٣٦-١٣٧.

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري ٢: ٣٦ (فلل).

(٣) انظر: «اساس البلاغة» للزمخشري ٢: ١٠٨ (قود)، «لسان العرب» لابن منظور ٢: ١٥٠ (ديث).

والتدبير، ولـذا فرَّع عليـه وَصْفَهم بالرذالة ـ على ما تفيـدُه الفاء التفريعية ـ في قولـه: «فهـم مراذيل»، والمراذيلُ: جمعُ مرذول، بمعنى: خَسِـيس، يُقال: رَذُلَ الرجلُ رَذالةً ورُذولةً، فهو رَذْلٌ ومَرذول(١).

وكان بـدءُ ظهـور بيوت الدَّعارة في إسـطنبول بشـكل سِـرِّيّ في النصف الأول مـن القـرن التاسـع عشـر فـي السـنوات (١٨٣٠-١٨٣٩م) أثـراً جانبيّاً لتجـارة الرقيـق(٢)، ويـدأ التوجُّـه إلى تنظيمها رسـميّاً في أواخر القرن التاسـع عشر سنة ١٨٨٤م بهدف السيطرة عليها والتحكُّم بها(٣)، ومع ذلك فلم تنتشر الفاحشـةُ في الأُسَـر المُسـلِمة، وكذا في كثير من الأُسَـر غير المُسلِمة، حتى كان اليهود يفتخرون بعدم وقوع فاحشة الزِّنا فيهم، ولكنَّ الأحوالَ تغيَّرت بعد حرب البلقان سنة ١٩١٢م بسبب الفقر، فانتشر الزِّنا بين الرعايا اليهود، وبعد محاولاتٍ جادّة من كبارهم في علاج هذه المشكلة استطاعوا حلَّها لاحقاً سنة ١٩٣٠م(٤).

وفي هذا العهد ـ أعني: عهد المشـروطية الثانية ـ تحت حكم الاتحاديِّين

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٢٨٠-٢٨١ (رذل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (رذل).

(2) Metin Ayışığı, II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele, s. 1078.

(3) Burcu Belli, II. Abdülhamid ve İttihat ve Terakki Cemiyeti Yıllarında Osmanlı'da Yoksul Kadınlar ve Fuhuş Düzenlemeleri (1876- 1918), s. 1325; Kezban ACAR, Osmanlı Devleti'nin Son Yüzyılında Fuhşu Önleme Çabalarına Dair Bazı Tespitler (1810lar-1910lar), s. 14.

(4) Metin Ayışığı, II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele, s. 1078-1079.

CamScanner

صدر أولُ تنظيم رسميّ مفصَّل لبيوت الدعارة سنة ١٩١٥م[١]، حيثُ جُعِلَت تلك البيوتُ تحت إدارة الشرطة، وافتُتِحَ ١٧٣ بيتاً للدعارة إلى سنة ١٩٢٠م، وينصُّ تقريرُ مديرية الصّحّة العامة الصادر سنة ١٩١٩م إلى أنَّ السببَ الأهمَّ لانتشار الزّنا في تلك المدّة هو الفقر والأحوال الاقتصادية، وخصوصاً ترمُّلُ كثير من النساء بسبب الحرب[٢].

وفِعلَتُهم هذه دالّةٌ على خِسَّتِهم وسوء أخلاقهم، فضلاً عن نكارتها عُرفاً وحُرمتها شرعاً، ولو كانت أولئك النِّساء راضياتٍ بذلك، فكيف وهنَّ لم يكُنَّ راضيات، بل كُنَّ نساءً عفيفاتٍ أُجبِرن على ذلك، كما قال:

٣٦. سَاقُوا العَفيفةَ للمَاخُورِ مُكرَهةً   بُؤساً لِمُسلِمةٍ حَسْناءَ عُطبُولُ

العفيفة: الشريفة التي كفَّت نفسَها عن الحرام[٣]. والعُطبُول: المرأةُ الفَتِيّةُ الجميلة والحسنةُ التامّة من النساء[٤]. وقولُه: «بؤساً» مصدرٌ نائبٌ عن فِعلِه، أي: بَؤُستُ بؤساً لمسلمةٍ[٥]، وهذا التركيبُ يفيدُ الترحُّم، وقولُه: «حَسْناءُ

(1) Metin Ayışığı, II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele, s. 1079; Burcu Belli, II. Abdülhamid ve İttihat ve Terakki Cemiyeti Yıllarında Osmanlı'da Yoksul Kadınlar ve Fuhuş Düzenlemeleri (1876- 1918), s. 1335-1336.

(2) Metin Ayışığı, II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele, s. 1079; Burcu Belli, II. Abdülhamid ve İttihat ve Terakki Cemiyeti Yıllarında Osmanlı'da Yoksul Kadınlar ve Fuhuş Düzenlemeleri (1876- 1918), s. 1346.

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٩: ٢٥٣ (عفف)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عفف).

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٥٦ (عطبل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (عطبل).

(٥) انظر في إعراب هذا التركيب: «التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل» لأبي حيان ٧: ١٨٩، و«حاشية» الصَّبّان على «شرح الألفية» للأشموني ٢: ١٧١-١٧٢.

CamScanner

عطبولُ» نَعْتان مقطوعان، فتُعرَبُ «حَسْناء» خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي حسناءُ عُطبولُ، «والغالبُ أن يُفعَل ذلك بالنعت الذي يُؤتى به لمجرَّد المدح أو الذَّمِّ أو الترحُّم»(١)، والترحُّم هو المقصود هنا، وإذا تكرَّر النعتُ في مِثْلِ هذا «فالأَوْلى إما قطعُ الصِّفاتِ كلِّها أو إتباعُها كلِّها»(٢)، ولذا ضَبَطتُ «حَسْناء» بالضَّمِّ على القطع ـ للاضطرار إلى ذلك في «عطبول» ـ وإن جاز فيها الفتحُ؛ بالجرِّ على الإتباع مع مَنْعِها من الصَّرْف.

والمعنى: قادوا النِّساءَ المُتعفِّفاتِ عن الفاحشة وساقوهنَّ إلى الحرام بالإكراه من دون رضاهُنَّ، وهذا ظلمٌ شديد وتَعَدٍّ شنيع، فما أحزَنَها تلك العفيفةُ حينذاك! ووَصْفُها بـ«حسناء عُطبول» ليس للتقييد، بحيث لا يُترحَّمُ لها لو أُكرِهَت على الفجور إنْ لم تكن حسناءَ فتيَّةً، وإنما خرج مَخرَجَ الغالب؛ إذ المُكرَهةُ على ذاك الفِعل تكون على هذا الوصف غالباً.

والمرادُ بسَوْقِهنَّ بالإكراه إلى بيوت الدعارة: سَوْقُهنَّ إليها تسبُّباً، فقد كان إقحامُ هؤلاء الساسةِ الدولةَ في تلك الحرب، وإرسالُهم الجنودَ إلى الجبهات البعيدة، من غير سابق إعداد، ولا دائم إمداد، سبباً في قَتْل كثير من الجنود، وكذلك كان ضعفُ الدولة في ظلِّ حكومتهم، وتبعاً لقراراتهم وسياساتهم، وعَجْزُها عن سَدِّ حاجات أرامل القتلى وأُسَرِهم، في ظِلِّ الأحوال الاقتصادية الصعبة التي حَلَّتْ بالبلاد، سبباً في انحراف بعض هؤلاء النِّساء إلى طريق الفِسقِ وذهابهنَّ إلى تلك البيوت، فهذا التَّسبُّبُ صورةٌ من الإكراه الاجتماعيِّ،

(١) «جامع الدروس العربية» للغلاييني ٣: ٢٢٨.
(٢) «جامع الدروس العربية» للغلاييني ٣: ٢٢٩.

CamScanner

وإن لم يكن إكراهاً بالمصطلح الفقهيّ، على أنه في هذه الأحوال يَنشَطُ خبثاءُ النفوس في إلجاء بعض النساء إلى هذه الطريق المشؤومة كُرْهاً وغَصْباً، وقد سجَّلت بعضُ الدراسات أنَّ بعضَ النساء في تلك الأيام قد أُخِذنَ إلى الفاحشة قَهْراً، وبعضَهُنَّ قد أُخِذنَ خديعةً(١).

ثم تابع في إيضاح ما فعلوه فقال:

٣٧. قـد غَـرَّبُوا ونَفَوا مَنْ لا يَـدِينُ لَـهُمْ وحَبْـلُـهُم لِـخِـناقِ الـخَـلْـقِ مَـفـتُـولُ

التغريـبُ: الإبعـاد عن البلد(٢)، والنفيُ: بمعناه. وقوله: «مَنْ لا يَدِينُ لهم» أي: لا ينقادُ لهم انقياداً تامّاً ولا يُطيعُهم. والمعنى: أنهم عاقبوا مَنْ لا يُطيعُهم ولا يخضعُ لأمرهم؛ إما بإبعاده عن موضع مُقامِه ومُستَقَرِّه، وإما بحَبْسِه الذي قد ينتهي إلى شَنْقِه، كما أشار إليه بقوله: «وحَبْلُهم لخِناقِ الخلق مفتولُ»، وفَتْلُ الحبل: لَيُّه(٣)، والخِناقُ بكسرِ الخاء وضمِّها: موضعُ الخَنْق من العُنُق(٤)، ذكرَ الموضعَ وأراد ما يكون فيه من الخنق، على طريق المجاز المُرسَل، أما الخِناقُ بمعنى الحبل الذي يُخنَقُ به(٥) فلا يُناسِبُ السِّياقَ، والمعنى: حِبالُهم مُعَدّةٌ لشَنْقِ مَن يُخالِفُهم من الناس.

---

(1) Metin Ayışığı, II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele, s. 1084.

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١: ٦٣٨-٦٣٩ (غرب).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٥١٤ (فتل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (فتل).

(٤) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٠: ٩٣ (خنق)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (خنق).

(٥) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٠: ٩٢ (خنق)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (خنق).

CamScanner

ثم بيَّن أنَّ أذاهم لم يقتصر على مخالفيهم، بل عمَّ كثيراً من الناس، فقال:

٣٨. أُبِيحَ مالُ الرَّعايا مَعْ دِمائِهِمُ ... مَقتُولُهُم دَمُهُ في البَيْنِ مَطلُولُ

الرَّعايا: جمعُ رعيّة، وهم القوم الذين تَوَلّى أمرَهم مَن يَسُوسُهم، من الرِّعاية التي تدلُّ على المراقبة والحِفظ، والتعبير به يدلُّ على مزيد ذمٍّ لهم؛ إذ استباحوا الأموال والدماء حيثُ كان المطلوب منهم مراقبتَها وحِفظَها. والبَيْنُ: الوَسَطُ[١]، والمطلولُ: الهَدَرُ الذي لا قِصاصَ فيه ولا دِية[٢]، أي: دمُ مَن يقتلونه هَدَرٌ فيما بينهم، لا حُرمةَ له في فِكرِهم، ولا اعتبار له في حِسِّهم.

ولم تكن هذه الحوادثُ منهم حوادثَ عارضةً غير مقصودة، تقعُ على سبيل النُّدرة أو القلّة من غير قَصْد وسَبْق تخطيط، بل كثُر وقوعها منهم حتى صارت عادةً لهم، كما قال:

٣٩. ودَيْدَنُ القَومِ قَتْلُ الأبرياءِ، فكُلٌّ ... لٌ عن جِنايَتِهِ يوماً لَمَسؤُولُ

الدَّيدَنُ: العادةُ والدأب[٣]، والمراد بـ«القوم» أولئك الساسة، فالتعريفُ فيه للعهد، والأبرياءُ: جمعُ بريء، وهو السليم، وتنوينُ «كلّ» عِوَضٌ عن الإضافة، أي: كلُّ واحدٍ من هؤلاء الجُناةِ القَتَلة، والتنكير في «يوماً» إما على حقيقته

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٣: ٦٦ (بين)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (بين).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٤٠٥ (طلل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (طلل).

(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٣: ١٥٢ (ددن)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ددن).

CamScanner

والمرادُ يومٌ غير معيَّن، أي: في يوم من الأيام عاجلاً كان أو آجلاً، في الدنيا كان أو في الآخرة، وإما للتعظيم والمرادُ يوم القيامة. والخبر للتهديد على كلِّ حال، وتقديمُ «عن جنايته» للتفظيع وبيان محلِّ التهديد والتخويف.

واللامُ في قوله: «لَمَسؤولُ» زائدةٌ للتأكيد، أما كونُها لامَ الابتداء المؤكِّدة فلا يصحُّ، لأن لها الصَّدارةَ في الكلام، فتدخل على المبتدأ، ولا تُؤخَّرُ إلى الخبر إلا إذا افتُتِحَت الجملة بـ«إنَّ» لكراهة الجمع بين حرفين بمعنى واحد(١).

وقد تقدَّم قريبٌ من هذا المعنى في البيت الحادي عشر، وسيأتي نحوُه في البيت الحادي والأربعين.

ثم أراد أن يُبيِّن ما وقع منهم من ظُلم عامّ، ثم ما وقع منهم من ظُلم خاصّ، فقال مبيِّناً شيئاً من الأول:

٤٠. لم يَسلَمِ الدَّيْرُ منهم بل جَوامِعُنا بل كُلُّ حَلْيِ رسولِ الله مَسلُولُ

الدَّيْرُ: خاصٌّ بالنصارى، وهو مكان إقامة رُهبانهم بجوار الكنيسة، و«بل» للإضراب الانتقالي في الموضعين، ولا تكونُ بين المُفرَدات، فالتقدير: «لم يَسلَم الدَّيرُ منهم بل لم تَسلَم جوامعُنا»، ترقَّى من ذمِّهم بوصول أذاهُم وشَرِّهم إلى دور العبادة عند أهل الذِّمّة، إلى ذمِّهم بوصولهما إلى جوامع المسلمين، ثم ترقّى ثانيةً إلى ذمِّهم بوصولهما إلى حَلْيِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

(١) انظر: «شرح الألفية» لابن عقيل ١: ٣٦٣-٣٦٧، و«شرح الألفية» للأشموني بحاشية الصَّبّان ١: ٤١١-٤١٤.

CamScanner

و«الحَلْيُ»: ما يُتزَيَّنُ به من مَصُوغ المعادن أو الحجارة، وجمعُه: حُلِيّ، أراد به شعائرَ الدِّين وأعلامَه ومظاهرَ الحياة الدِّينية على طريق الاستعارة التصريحية، كالعمائمِ واللِّحى الآتي ذِكرُهما في البيت الخامس والأربعين، والمدارسِ الشرعية الآتي ذِكرُها في البيت السادس والأربعين، وكذا العلماءُ أنفسُهم الآتي ذِكرُهم في البيت التالي، فإنهم وَرَثةُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقولُه: «مَسْلول» أي: مسروق، يُقال: سَلَّ الرجلُ الشيءَ سلًّا، أي: سَرَقَه، أصلُه من السَّلّ، وهو مدُّ الشيء ونزعُه في رِفقٍ وخفاء[1].

ثم قال مُبيِّناً شيئاً من ظُلمِهم الخاصّ، وهو ما أصابَ علماء الدين من بأسِهم وجَوْرِهم، فقال:

٤١. سِيّانِ جَانٍ وأهلُ العِلم عِندَهُمُ مَنْ قالَ حَقّاً فمَخنُوقٌ ومَقتُولُ

أي: مِثلانِ في نظرهم: رجلٌ من أهل الجناية والإفساد، مُعتَدٍ على حقوق الأنام، مُستَحِقٌّ للزَّجْر والإلجام، ورجلٌ من أهل العلم والإرشاد، قائمٌ بالنُّصْح والتعليم، مُستَحِقٌّ للتبجيل والتكريم، حيث جعلوهما جميعاً في مرتبة واحدة، وأقاموا الثاني مُقامَ الأول، فآذَوا العلماء والصُّلَحاء بالحبس وغيره من أصناف العقوبات، وما جُرْمُهم إلا أنهم أنكروا عليهم مُنكَراتِهم، ولم ينقادوا لهم في بَغْيِهم وفسادِهم.

وقولُه: «مَنْ قال حقّاً فمخنوقٌ ومقتولُ»: «مَنْ» اسمُ شرط مبتدأٌ، والجملةُ

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس ٣: ٥٩ (سلل)، و«مفردات غريب القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٣٩ ص (سلل).

الفعلية «قال حقّاً» فِعلُ الشرط، والفاءُ رابطةٌ لجواب الشرط، و«مخنوقٌ» خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: فهو مخنوقٌ، والجملةُ الاسمية جوابُ الشرط. والمعنى: كلُّ مَنْ خالَفَهم وقال كلاماً هو حقٌّ وصِدقٌ فهو مُعاقَبٌ عندهم بالشَّنْق والقتل. وقد تقدَّم نحوُ هذا المعنى في البيتين: الحادي عشر والتاسع والثلاثين.

ثـم قال الناظم مُؤمِّلاً صلاحَ الحال، داعياً لخليفة الإسـلام والمسـلمين، وسلطان الحقّ والدِّين:

٤٢. واللهُ أيَّدَ مَوْلانـا (الوحيدَ)، فمـا   يكونُ لِلـعِـلـم بـعـدَ اليـوم تَذْلـيـلُ

يعنـي بـ«الوحيـد» السُّـلطانَ وحيـدَ الدِّيـن، فـ«ال» عِوَضٌ عـن الإضافة، وهـو السُّـلطان محمَّـد السـادس بنُ السـلطان عبـد المجيـد الأول، وُلِدَ سـنة ١٢٧٧هـ=١٨٦١م، وتولّى الحكم في شـهر رمضان سـنة ١٣٣٦هـ الموافق لشهر تموز سنة ١٩١٨م بعد وفاة أخيه السُّلطان محمَّد الخامس، وكانت الدولةُ آنذاك قد أنهَكَتْها الحربُ العالمية، فما لَبِثَت بعد تولِّيه بأشهر إلا وقد استَسلَمَت واحتُلَّت معظمُ أراضيها، وفي هذا الوقت نُظِمَت هذه القصيدة بتاريخ ٢٥ من مُحـرَّم ١٣٣٧هـ الموافق للأول من تشـرين الثانـي (نوفمبر) ١٩١٨م. وانتهى الأمرُ لاحقاً إلى إلغاء السَّـلطنة العثمانية ونَفْي السلطان وحيد الدين إلى مالطا أواخرَ سـنة ١٩٢٢م، ثم اسـتقرَّ بعدها في إيطاليا، وعاش فيها إلى وفاته سـنة ١٩٢٦م، ودُفِنَ بناءً على وصيَّته في دمشق.

وجملـةُ «واللهُ أيَّـدَ مولانـا الوحيد» خبريةٌ بمعنى الإنشـاء، أي: اللهُمَّ أيِّدْهُ وقَوِّه. وفي قوله: «الوحيد» توريةٌ عن معنى آخرَ، وهو أنَّ خليفةَ المسلمين هو

وحدَه مولاهم، لا يُوالون غيرَه إلا بإذنه، ولا يَنْقادون لسِواه إلا بأمره، فإنكارُه على الاتحاديِّين الذين كانت الحكومة بأيديهم، وأكثر المناصب والوظائف تحت نُفوذهم، لا يَتعدّاهُم إلى مقام الخلافة والسَّلطنة، وكذلك ولاؤُه لخليفة الإسلام وسلطان المسلمين لا يَتعدّاه إلى هؤلاء الساسة الذين تجاسروا على الافتِئاتِ على السُّلطان، وتمادَوْا في التَّعدِّي والطغيان.

والفاءُ في قوله: «فما يكون للعلم بعد اليوم تذليلُ» تفريعية، والتذليلُ هنا بمعنى: الإذلال، أي: امتهانُ الشيء وتحقيرُه، يُقال: ذلَّ يَـذِلُّ ذُلًّا، أي: هان، وأذلَّه هو واستَذَلَّه وذلَّـلَه[1]. والمعنى: بتأييد الله تعالى له لا يكونُ للعلم وأهله امتهانٌ وتحقيرٌ بعد اليوم.

ثم عاد الناظم إلى تَعْداد جرائمهم فقال:

٤٣. لم يُنسَ ما اقتَرَفُوهُ حينَما زَحَفُوا مِن مَهْدِ شِرّتِهِم، والقَلْبُ مَبلُولُ

اقتِرافُ الفِعل: اكتسابُه؛ حسناً كان أو سيِّئاً، وهو في السَّيِّئِ أكثر استعمالاً[2]، كما في هذا السِّياق. والزَّحْفُ: الانبعاثُ مع جَرِّ الرِّجْل، ومنه زَحْفُ الجيش، لأنـه إذا كَثُرَ تَعسَّـرَ انبعاثُـه[3]، وأصلُه زَحْفُ الصَّبيِّ، وهو حركتُه على اسْتِه قبـل أن يقـوم، ثم استُعمِلَ في حركة الجيش للقتال تشبيهاً بزَحْفِ الصِّبيان، حيثُ يمشـي رويداً إلى الفئة الأخرى قبل التدانـي للقتال[4]. والمَهْدُ: المكانُ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، (ذلل).

(٢) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٥٣٠-٥٣١ (قرف).

(٣) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٠٩ (زحف).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري ٤: ٢١٤-٢١٥ (زحف).

المُمهّـدُ المُهيّـأُ[١]، وشِـرّةُ الشـيء: نشـاطُه، كما يُقال: شِـرّةُ الشـباب، أي: حِرصُه ونشاطُه[٢]، والمراد هنا: الموضع المُهيَّأ لانبعاثهم في إطلاق شَـرِّهم ونشاطهم في تنفيذ مُخطَّطاتهم.

يُشير الناظمُ في هذا البيت إلى ما يُسمّى بـ«حادثة ٣١ مارس»، وهي ما وقع في ٣١ من مارس ١٩٠٩ بالتقويم الرُّوميّ الموافق لـ١٣ من نيسان (أبريل) ١٩٠٩ بالتقويم الميلادي، وذلك بعد حلول عهد المشروطية الثانية وإعلان الدُّستور وافتتاح مجلس المبعوثان بعد تعطيله مدّةَ ٣٢ عاماً، وقد سيطرت جمعيةُ الاتحاد والترقّي على غالبية أعضائه، وفي تلك الآونة شُكِّلَت حكومة حسين حِلمي باشا (١٨٥٥-١٩٢٢م) المعروف بصِلَتِه بالاتحاديّين في ١٤ من شباط (فبراير) ١٩٠٩م، وحينها اشتدَّ الصِّراعُ السياسيُّ بين الاتحاديّين ومعارضيهم في المجلس، وازداد سَخَطُ الناس من عملية (التنسيقات) التي أُخرِجَ بها كثير من الكوادر العسكرية والمدنية من وظائفهم، وانفجَرَ غضبُ المُتديِّنين المُحافِظين، وطالبوا بتطبيق الشريعة كاملةً واستِقالةِ الحكومة، فاستقالت تلك الحكومةُ بعد شهرين، وتولّى أحمد توفيق باشا (١٨٤٥-١٩٣٦م) الصَّدارةَ العظمى في ١٣ من نيسان (أبريل) ١٩٠٩م مُعلِناً الالتزام بالشريعة والدُّستور جميعاً، وحينها تحرَّك ضُبّاطُ جيش الرُّومَلي المُرابِط في سلانيك، وأُعِدَّت قوّةٌ خاصّةٌ باسم «جيش الحركة» لإخماد الثورة في إسطنبول، وتحرَّك هذا الجيشُ باتجاه المدينة، وتزامَنَ وصولُه إلى مشارفها

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٦١٨ (مهد).
(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٤: ٤٠١ (شرر).

في ٢٢ من نيسان (أبريل) ١٩٠٩م مع إعلان الاتحاديِّين من أعضاء المجلس تأييدَهم التَّدخُّلَ العسكريّ، وبعد سيطرة جيش الحركة على الموقف عقَدَ هؤلاء الأعضاءُ اجتماعاً أطلقوا عليه «مجلسَ العموم الوطني»، وقرَّروا فيه خَلْعَ السُّلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، ونفيَه وعائلته إلى سلانيك، وذلك في ٢٧ من نيسان (أبريل) ١٩٠٩م[١].

وعلى هذا، فمرادُ الناظم بـ«مَهْد شِـرَّتِهم»: سلانيك، وهي مدينةٌ تقعُ في شمال شرق اليونان حاليّاً، وقد حكمَتْها الدولةُ العثمانية حوالي ٥٠٠ سنة (١٤٣٠م-١٩١٢م)، وكانت مُقامَ كثير من يهود الأندلس المهاجرين إلى الدولة العثمانية فراراً من اضطهاد الإسبان، إلى جانب المُسلِمين الأتراك والأرثوذكس اليونانيِّين، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي نَشِطَت فيها الحركاتُ والتنظيماتُ المعارضةُ للدولة العثمانية، ومنها حركةُ «تركيا الفتاة» التي كان لها الدَّوْرُ الأبرز في تأسيس المشروطية الثانية التي انبثَقَت منها جمعيّةُ الاتحاد والترقّي[٢].

---

(١) انظر: «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» ١: ١٢٨-١٣٠.

(٢) انظر مزيداً من المعلومات الإحصائية حول سلانيك وعدد سكانها وتنوُّعهم دينيّاً وعرقيّاً في ذلك الوقت في:

Machiel Kiel, «Selânik», TDV İslâm Ansiklopedisi, 36/352-357.

وانظر حول حالتها السياسية، وخضوعها لهيئة عليا للمراقبة الدولية جعلَتْها تحت نفوذ إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا، وإن كان فيها مُفتِّش عثماني عام: «موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية» لحسان علي حَلّاق ص٢٩١، ٢٩٤-٢٩٨، وانظر مختصراً عن جماعة يهود الدونمة ومدارسهم فيها: «من مكتب إلى أوكول: التعليم والسلطة وجذور العلمانية في تركيا الحديثة»، خالد أبو هريرة، ص٢٥-٢٦.

وقولـه: «والقلـبُ مبلول» أي: حزينٌ باكٍ من شـدّة الألـم، والواو للحال، و«ال» عَهْديـة، أي: قلوب المسـلمين، كما تقدَّم في أمثالـه من قولِه في البيت الأول: «فالعيـنُ دامعـةٌ والجسـمُ منحـولُ»، وقولِـه فـي البيـت الثالث عشـر: «والقلبُ مُكتَئِبٌ».

ثم تابع قائلاً:

٤٤. كم بُنْدُقاً أطلَقُوا على جَوامِعِنا! فالمُستَجيرُ بها خَـوْفـاً فـمَنكُـولُ

«كم» خبرية للتكثير، والأصلُ في مُميِّزها المُـتَّصِل بها أن يكون مجروراً بالإضافة إليها بأن يُقال: «كم بُنْدُقٍ»، وربما نُصِبَ غيرَ مفصول على لغة قليلة لبعض العـرب[١]، فمـا وقع هنا مـن نَصْبِ «بندقـاً» محمولٌ على هـذه اللُّغة. ويمكنُ توجيهُه على اللغة المشهورة بأنْ تكونَ «كم» استفهاميةً، وكلمةُ «بُنْدُقاً» تمييزَها، ويكونَ الاستفهام للتقرير.

والبُنـدُق: جسـمٌ كُـرَويُّ الشـكل يُعمَـلُ مـن الطيـن يُرمـى بـه فـي القتال والصَّيْـد[٢]، والبُندُقيَـةُ: قناةٌ جَوْفـاءُ يُرمى بها البُندُق[٣]، ثم طُـوِّرَ البُندُقُ فصُنِعَ من الرصاص ـ وهو المراد هنا ـ والبُنْدُقيّةُ إلى الآلة المشهورة اليوم. والمعنى: أنهم كثيراً ما أطلقوا الرصاص على الجوامع، ولم يُراعوا لها حُرْمةً.

والمُسـتجير: طالبُ الأمان[٤]، وهو مبتـدأ، وقولُه: «خوفاً» منصوبٌ على

(١) انظر: «شـرح التسـهيل» لابـن مالـك ٢: ٤١٨، ٤٢١، و«التذيـيـل والتكميـل» لأبـي حيـان ١٠: ٢٦، و«همع الهوامع» للسيوطي ٢: ٣٥٢-٣٥٤.

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (بندق).

(٣) انظر: «المعجم الوسيط» ١: ٧١. (٤) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (جور).

التمييز، وقوله: «منكول» أي: منكول به، وهو المُعاقَب بما يكون عِبرةً لغيره، يُقال: نكَلَ به نُكْلةً ونكالاً؛ إذا صنع به صنيعاً يجعلُ غيرَه يَنكُل عنه ـ أي: يَضعُفُ ويَجبُن ـ إذا رآه، ونكَّل به تنكيلاً؛ إذا عاقبه في جُرْم[١]، وهو خبرُ المبتدأ المذكور، دخلت عليه الفاء لتضمُّنه معنى الشرط، كأنه قال: فمَن استجار بها لخوفٍ أصابه فهو منكول.

ثم قال:

٤٥. أينَ العَمائمُ؟ أم أينَ اللِّحَى وذَوُو ... ها؟ أينَ بادُوا؟ أذاكَ اليومَ مجهولُ؟

يَتَحسَّرُ على ما وقع في البلاد من تغيير مظاهر الحياة وتبديل ملامح المجتمع، وما أصاب العلماء من تضييق عليهم واضطهاد، وقَتْل وحَبْس وإبعاد، كما سبق ذِكرُه في البيتَين: الحادي عشر والحادي والأربعين، فالسُّؤالُ أولاً عن العمائم واللِّحى أنفُسِها، تحسُّراً على ما فعله أولئك الساسةُ من تغيير أحوال البلاد من الطابع الإسلاميّ والسِّمةِ الشرقيّة إلى الطابع الأوروبيّ والسِّمة الغربيّة[٢]، وقد كان من أبرز مظاهر هذا التغيير نَزْعُ العمائم وحلقُ اللِّحى، فضلاً عن اضطهاد أصحاب العمائم واللِّحى الذي اضطَرَّ بعضَهم إلى نَزْعِها وحَلْقِها، فقد ذكر شيخُ الإسلام مصطفى صبري ـ وهو شاهدُ عيانٍ على تلك الأحداث ـ أنَّ جيشَ الحركة عند دخوله إسطنبول في «حادثة ٣١ مارس» ـ وقد مرَّ الكلام عليها قريباً في شرح البيت الثالث والأربعين ـ عمَّمَ القبضَ على كلِّ مَنْ يَلْقاه الجندُ في شوارعها من العلماء وطلبة العلم الذين

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١١: ٦٧٧ (نكل).

(٢) انظر ما سبق في الدراسة تحت عنوان (٢. ٢. سؤال التحديث في الدولة العثمانية).

كانت سِمَتُهم العِمامة(١).

ثـم توصَّـلَ الناظمُ من السُّـؤال عـن المظاهر الإسـلامية إلى السُّـؤال عن أصحابهـا فـي قولـه: «وذووهـا»، فالعطـفُ علـى ظاهـره، ويحتمـلُ أن يكونَ السـؤالُ عـن العمائم واللِّحى سـؤالاً عن أهل العمائم وأصحـاب اللِّحى، من بـاب المجاز المُرسَـل، ويكونَ عطفُ «ذووها» على «اللِّحى» عطفاً تفسـيريّاً، والأولُ أقـربُ، لأنّ حَمْلَ الكلام على التأسـيس أَوْلى من حَمْلِه على التأكيد. و«أم» منقطعة للإضراب الانتقالي من غَرَضٍ إلى غَرَض.

وقوله: «أين بادوا؟» أي: أين هلكوا؟ والهلاكُ بمعنى الاختفاء مجازاً.

وقولـه: «أذاك اليـوم مجهـول؟» اسـتفهامٌ إنـكاريّ، أي: أغيـابُ العمائـم واللِّحى ـ سواء كان لذهاب أصحابها بنَفْيِهم أو حَبْسِهم أو قَتْلِهم، على ما تقدَّم فـي الأبيات الحادي عشـر والسـابع والثلاثيـن والحادي والأربعيـن، أو لتغيُّر مظاهـر الحياة الاجتماعية الإسـلامية وتبدُّلها إلى المظاهـر الأوروبية الغربية، كما تقدَّم في البيت الأربعين ـ مجهولٌ اليوم؟ فلا يُلاحِظُه ولا يَتَنبَّهُ له أحد!

ثم قال مُتحسِّـراً كذلك:

٤٦. أضْحَتْ مدارِسُنا مأوى أُولاتِ خَنَى   واهاً لِفاتِحِنا! هل ذا لكَ السُّـولُ؟

أولاتِ: اسـمُ جَمْـع بمعنـى: ذوات، والخنى: الفُحش فـي الكلام، كما تقدَّم في شرح البيت الثالث والعشرين، والمعنى: أصبحت المدارسُ الدينية التي كانت تُخرِّج العلماء مكاناً لذوات الفُحْشِ والفِسق. وعلَّقَ الناظمُ هنا في

(١) انظر: «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبري ص١٨٧.

هامش الأصل بقوله: «كإحدى المدارس الثمان»، وهي المدارسُ المحيطةُ بجامع الفاتح من طَرَفَيه الشرقيِّ والغربيِّ المعروفة بمدارس الصُّحون الثمانية (صَحْنِ ثمان)، ولذا ذكر السُّلطان محمَّداً الفاتحَ في الشطر الثاني من البيت. ويبدو من هذا النَّصِّ أن واحدةً من تلك المدارس قد أُخرِجَت عن نظام التعليم، وخُصِّصَت لأمرٍ آخرَ من المصالح الاجتماعية ونحوها، فوقع تبعاً لذلك أنْ صارت مأوى لِمَا ذُكر، ولعلَّ ذلك لم يَدُم طويلاً، ولذا لم يُسجَّل في الحوادث التاريخية المُدوَّنة؛ إذ لم أقف عليه مع كثرة البحث والتتبُّع، وعلى كلِّ حال فالناظمُ شاهدُ عِيانٍ على ما يُسجِّلُه في هذه القصيدة من حوادث.

وقوله: «واهاً» كلمة للتعجُّب من طيبِ شيء، بمعنى: ما أطيَبَه، وما أحسَنَه! وقد تُقالُ في التفجيع[1]، وهو المناسبُ للسِّياق هنا. والفاتح: هو الأميرُ المخصوصُ بالبشارة النبوية، بفَتْح مدينة القسطنطينيّة، وقَهْرِ الدولة الرُّومية، ذو المقام العالي، والفَضْل المُتوالي، أبو الفَتْح والمعالي، السُّلطان محمَّد خان بن السُّلطان مراد خان، عليهما الرحمة والرضوان، المولود سنة ٨٣٣هـ=١٤٢٩م، والمتوفى سنة ٨٨٦هـ=١٤٨١م، وقد كان فتحُ القسطنطينية على يديه سنة ٨٥٧هـ=١٤٥٣م.

وقوله: «هل ذا لكَ السُّولُ؟» السُّول: مُخفَّفُ السُّؤْل، وهو الحاجةُ التي تحرصُ عليها النفسُ[2]، فإنْ كانت فيما طُلِبَ فهي سُؤْلٌ، وإن كانت فيما

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ١٣: ٥٦٤ (ويه).

(٢) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٥٤ (سول).

قُدِّر فهي أُمنيّة(١). والمُخاطَبُ في «لك» هو السُّلطانُ المذكور على الأظهر، والاستفهامُ تعجُّبيٌّ، أي: هل هذه الحالُ التي آلَتْ إليها مدارسُنا هي الحاجةُ التي كنتَ تحرصُ عليها أيُّها السُّلطانُ العظيم فاتحَ هذه المدينة العريقة؟

ثم ذيَّلَ ما ذكره سابقاً من قبيح أعمالهم، وشنيع أفعالهم، بما جرت به سُنّةُ الله تعالى من عاقبةِ هذه الأفعال، ووَبالِ تلك الأعمال، فقال:

٤٧. فالقَولُ حَقَّ على فُسّاقِنا تَـرَفـاً هذا دليـلٌ، وذا التَّدميرُ مَـدلُـولُ

حقَّ القولُ، أي: صدَقَ وثبتَ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وتعريفُ «القول» للعهد الذِّهنيّ، وهو وعيدُ الله للفَسَقة بحلول العذاب بهم، والتَّرَف: التوسُّع في النِّعمة(٢)، ونصبُه على التمييز، أي: الذين كان فِسقُهم من جهة كثرة النِّعَم التي أُعطوها فلم يُؤدُّوا حقَّها ولم يشكروا المُنعِمَ عليهم بها، وفيه تلميحٌ(٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، قال الإمام الرازي: «إنما خصَّ

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ٢٩: ٢٤٠ (سول).
(٢) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص١٤٣ (ترف).
(٣) التلميح: مُحسِّنٌ لفظيّ من باب الاقتباس في علم البديع، فالاقتباس: هو أن يُضمَّن الكلامُ شيئاً من القرآن والحديث لا على أنه منه، أي: من دون أن يكون فيه إشعارٌ بأنه منه. ولا بأس فيه بتغيير يسير من أجل الوزن أو غيره، كما في «الإيضاح لتلخيص المفتاح» للخطيب القزويني ص٦٣٩، ٦٤٣، و«المطوَّل» للتفتازاني ص٨٦١، ٨٦٣. والتلميح: هو أن يُشار في فحوى الكلام إلى قصّة أو شِعر أو مَثَلٍ من غير ذِكره، كما في «الإيضاح لتلخيص المفتاح» للخطيب القزويني ص٦٥٤-٦٥٨، و«المطوَّل» للتفتازاني ص٨٧٠-٨٧٥.

المُترَفِيـن بذلـك الأمـر، لأنّ المُترَفَ هو المُتنعِّم، ومَـن كثُرت نِعَمُ الله عليه كان قيامُـه بالشـكر أوجَبَ، فإذا أمرهـم بالتوبـة والرجوع مرّةً بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النِّعَمَ بل يزيدُها حالاً بعد حال، فحينئذ يظهر عِنادُهـم وتمرُّدُهـم وبُعدُهـم عـن الرجـوع عن الباطـل إلى الحـق، فحينئذ يَصُبُّ اللهُ البلاءَ عليهم صبّاً»[1].

والإشـارة بـ«هـذا» فـي قوله: «هـذا دليل» إلى فِسـقِ المُترَفيـن، والدليل: فَعِيـلٌ بمعنى فاعـل، وهو الدالُّ، ويُطلَق على ما فيه دلالةٌ وإرشـاد، ففي وقوع الفِسـقِ منهم دلالةٌ وإرشـادٌ إلى حلـول العقاب بهم، ويمكـنُ أن يكونَ بمعناه الاصطلاحـيِّ عنـد الأصوليـين، وهو «مـا يمكـن التوصُّل بصحيـح النظر فيه إلى مطلوب خبريّ»[2]، فإنه يمكنُ عند النظر في وقوع الفِسـق منهم بضميمة النصوص المُحذِّرة من نتائجه المُنبِّهة على سوء عواقبه التوصُّلُ إلى استحقاقهم تلك العواقب الأليمة، والآثار الوخيمة.

والمعنـى: هـذا الفسـقُ الـذي وقـع منهم علامـةٌ وأمـارةٌ على اسـتحقاق العذاب، وهذه الهزيمةُ التي أُصيبَ بها الجيش والخسارةُ التي لَـحِقَت بالدولة هـي مُوجَبُ تلك العلامة ومُؤدّاها، بحكم ما جَرَت به السُّـنّةُ الإلهية، ومَضَت به العادةُ الدُّنيوية.

وآثر التعبيرَ عن الهزيمة والخسارة بـ«التدمير» ليُساوِقَ لفظَ الآية الكريمة المُقتَبَس منها.

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢٠: ٣١٥.

(٢) انظر: «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي ص١٦٧، و«الكليات» للكفوي ص٤٣٩.

CamScanner

ولمّا كانت الخسارةُ المذكورة مُشتَمِلةً على جوانبَ عديدة، أشدُّ ما يُؤسَفُ عليه منها هو سقوطُ مساحات واسعة من الديار الإسلامية في أيدي الكَفَرة الأعداء، وأوجَعُها إيلاماً احتلالُ الأراضي المُقدَّسة والبقاع المُشرَّفة من قِبَلِ الغَصَبةِ الأشِدّاء، كان من المناسب أن يخصَّها بالذِّكر بعد التعميم، تنويهاً بشأنها العظيم، مُتخلِّصاً بذلك إلى العَوْدِ إلى ما افتَتَحَ به هذه القصيدة في قوله: «ضاعت بلادٌ لنا»، فقد أورد هذا المعنى هناك مُجمَلاً، وعاد إلى بيانه هنا مفصَّلاً، فقال:

٤٨. أرضٌ مُقَدَّسةٌ عنّا قدِ انتُزِعَتْ   آياتُها انتُبِذتْ، فالعَيْشُ مَملُولُ

٤٩. أعلامُها انتكَسَتْ، صُلْبانُها ارتفَعَتْ   تُتلى بها اليومَ تَوْراةٌ وإنجيلُ

يريد بـ«الأرض المقدَّسة»: مدينةَ القُدس الشريف، فقد احتلَّها الإنجليز في ١١ من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧م، قبل ما يقربُ من سنة من نَظْم هذه القصيدة في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨م. وتنكيرُ «أرض» للتعظيم، وساغ الابتداءُ بها لوصفها بـ«مُقدَّسة». وانتزاعُ الشيء: استِلابُه وقلعُه من موضعه[١] وجَذبُه من مَقَرِّه[٢]، ففيه تصويرُ أن هذه المدينة المقدَّسة واقعةٌ في وسط العالم الإسلاميّ كالقلب من الجسد، ومع ذلك فقد انتُزِعَت من أيدي المسلمين انتزاعاً.

والنَّبذُ والانتباذ: إلقاءُ الشيء وطرحُه لقلّة الاعتداد به[٣]، والآياتُ:

---

(١) انظر: «لسان العرب» لابن منظور ٨: ٣٤٩ (نزع).

(٢) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٦٣١ (نزع).

(٣) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب ص٦٢٣ (نبذ).

العلامـاتُ، والأظهـرُ أنّ المـراد علاماتُ الإسـلام وشـعائرُه فيهـا، يعني: أُهمِلَ كثير من شـعائر الإسـلام وطُـرِحَ عديدٌ من مظاهره فـي هذه المدينة الشـريفة، مع امتِهانِ تلك الشـعائر، واحتِقارِ هـذه المظاهر، باحتلالها من قِبَلِ الإنجليز.

والمَلَل: السـآمة، يُقال: مَلِلتُه ومَلِلتُ منه، أي: سَئِمتُه وضَجِرتُ منه، فهو مملولٌ ومملولٌ منه[١].

والأعلام: جمعُ عَلَم، وهو الراية، وانتكاسُها: إنزالُها، يُقال: نكَسَه نَكْساً فانتكَسَ، ونكَّسَـه تنكيساً فتنكَّسَ، إذا قلَبَه على رأسـه، وجعل أعلاه أسـفَلَه ومقدَّمَـه مؤخَّـرَه[٢]. والصُّلبـان: جمـعُ صَليـب، وهو الشِّـعارُ المعـروف عند النصارى.

وقوله: «تُتلى بها اليومَ توراةٌ وإنجيلُ» كنايةٌ عن تمكين اليهود والنصارى في القُدس من إظهارِ مَراسِـمِهم، وإعلاءِ شـعائرهم، وذِكرُ «التوراة» للدلالة علـى اليهـود مقصـودٌ، فقد صَـدَر وعدُ بَلْفـور ـ وزيـر الخارجيـة البريطاني حينـذاك ـ في تشـرين الثانـي (نوفمبـر) سـنة ١٩١٧م الذي يتعهَّد بتأسـيس وطنٍ قوميٍّ لليهود في فلسطين، وكان الإنجليزُ على مَشارِفِ القدس حينها قبل نحو شـهر من احتلالها، وهو الوعدُ المشـؤوم الذي مهَّد لتأسـيس دولة الاحتـلال الصهيوني سـنة ١٩٤٨م، وما زالت الأُمَّةُ إلـى اليوم تَتجرَّعُ مرارةَ

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيُّومي (ملل)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ملل).

(٢) انظر: «لسـان العرب» لابن منظـور ٦: ٢٤١ (نكس)، و«القامـوس المحيط» للفيروزآبادي (نكس).

ذاك الوعد الظالم، وتُصارعُ آلامَ هذا الاحتلال الغاشم. والله المُستَعان.

ثم قال مبيِّناً المرضَ وسبيلَ علاجه:

٥٠. بلا (صلاحٍ) فهل تُرجَى استِعادتُها؟ وما الصَّلاحُ لنا في الكَوْنِ مأمولُ

يريد بـ«صلاح»: المَلِكَ الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ)، واسمه يوسف بن أيوب، وهو القائدُ الفَذُّ الذي حرَّر القدس من أيدي الصَّليبيِّين سنة ٥٨٣هـ، وقد ذكره الناظمُ في أحد تعليقاته التي كتبها لاحقاً لهذا النَّظْم وحلّاه بـ«بطل الإسلام»(١)، وفيه توريةٌ عن الصلاح الذي هو ضدُّ الفساد، أي: لا تُرجى استعادةُ القدس بلا أمير مُخلِص صادق كصلاح الدين، وبلا عودة صادقة إلى الدين والتقوى وتَرْكِ ما استُحدِثَ في البلاد من فسادٍ وفِسق وفُجور، والأولُ قد يَتَيسَّر، بخلاف الثاني فتحقيقُه صَعْبٌ، ولذا قال: «وما الصلاحُ لنا في الكون مأمولُ»، أي: ليس صلاحُنا مأمولَ الوجود، يعني: ما دُمنا مُصرِّين على هذه الأحوال، مُستَمِرِّين على ما يُخالِفُ الشرع في الأقوال والأفعال.

و«ما» نافية غير عاملة كما هي لغةُ بني تميم، وقد تقدَّم مِثلُها في البيت السابع.

ثم تابع في بيان البلاد التي ضاعت تفصيلاً، فقال:

٥١. أينَ العِراقُ ويَثْرِبٌ؟ وكم بَلَدٍ زاوٍ إلى حَلَبٍ مِنّا مَناسِيلُ؟

العراقُ: البلدُ المعروف، وهو أرضٌ عريقةٌ في التاريخ البشريِّ عموماً،

(١) انظر: تعليق الكوثري على «ذيول تذكرة الحفاظ» ص٩٧.

وفي التاريخ الإسلاميّ خصوصاً، وفيه بغدادُ عاصمةُ العباسيّين، والكوفةُ والبصرةُ مَهْدا العلوم العربية والشرعية. ويثربُ: هو الاسمُ القديم للمدينة المُنوَّرة، وهو ممنوعٌ من الصَّرْفِ للعَلَمية ووَزْنِ الفِعل، وإنما نُوِّنَ ليستقيمَ وزنُ البيت، وذِكرُ «يثرب» هنا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلّ؛ إذ المرادُ بلادُ الحجاز كلُّها.

وقد بدأ الهجومُ الإنجليزيُّ على العراق أواخرَ سنة ١٩١٤م، وبعد عدّة معارك ضارية استطاعت القوّاتُ الإنجليزيةُ احتلالَ بغداد في ١١ من آذار (مارس) سنة ١٩١٧م، قبل نحو سبعة أشهر من نَظْم هذه القصيدة. وكان الحجازُ قد سقط بأيدي قوّاتٍ عربية مدعومةٍ من طرف الإنجليز سنة ١٩١٦م، وحينها حُوصِرَت المدينةُ المنوَّرة ابتداءً من شهر حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦م إلى انسحاب ما تبقّى من الجيش العثماني منها في ١٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩م، بعد نَظْم هذه القصيدة بنحو شهرين.

وقوله: «وكم بلدٍ زاهٍ إلى حَلَبٍ مِنّا مناسيلُ»، «كم» خبرية للتكثير، ومحلُّها الرفعُ عطفاً على العراق، والتقدير: أين العراقُ ويثربُ وكثيرٌ من البلدان؟ و«زاهٍ» أي: حَسَنِ الصورة، من الزَّهْو، وهو حُسنُ المَنظَر[1]، و«مناسيل» جمعُ منسول، من النَّسْل، وهو فصلُ شيء عن شيء وإسقاطُه منه، يُقال: نسَلَ الصُّوفُ أو الشَّعرُ أو الرِّيشُ نُسولاً، أي: سقط، ونَسَلَ فلانٌ الصوفَ نَسْلاً وأنسَلَه، أي: أسقطه[2]. ففي التعبير به هنا في البلدان استعارةٌ مَكْنية، شَبَّه

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، (زهو).

(٢) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٦٣٥ (نسل)، و«تاج العروس» =

البلـدان التـي يُسـقِطُها العدوُّ واحدةً إثرَ أخرى بالصُّوف الذي يَنسُـلُه شـخصٌ شيئاً بعد شيء.

ومـن تلـك البلاد المُشـار إليها في هذا البيت: دمشـق وبيروت وطرابلس الشام، فقد كان سقوطُ بيروت وطرابلس الشام في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٧م، وسقوطُ دمشق في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م.

ثم قال متسائلاً متعجِّباً موبِّخاً:

٥٢. فيا تُـرى، هل رأى قَـومٌ ضَرائبَهُم شُؤْماً ولُؤْماً؟ فهُـم عُمْـيٌ مخـاذيلُ

الضرائـب: جمعُ ضَريبة، وهي مـا تَفرِضُه الدولةُ من المـال على الناس، والظاهرُ أنه يشير إلى ما فرَضَه أولئك الساسةُ من ضريبة مُستَحدَثة على الناس باسـم «ضريبـة الحرب»، وقـد ابتُدِئَ تطبيقها في حرب البَلْقان سـنة ١٩١٢م، ثـم جـرى تقنينُها قبل الحرب العالمية الأولى مباشـرةً وقبل إعلان النفير العام (سَفَرْبَرْلِك)، وتمَّ تطبيقها في ٩ من آب (أغسطس) ١٩١٤م بعد الإعلان عنه، مـع مَنْـح الإدارات التنفيذية صلاحيّاتٍ واسـعةً في التطبيق[1]. والشُّـؤم: ضدُّ اليُمن[2]، أي: الشَّـرُّ أو توقُّعُه، واللُّؤم: وصفٌ مِن أذمِّ ما يُهجى به، وهو الشُّحُّ ومَهانةُ النفس ودناءةُ الأصل[3].

يتساءلُ عن هذه الضرائب التي أثقَلَت كواهلَ الناس وأذاقَتْهم مرارةَ الفَقْر

= للزبيدي ٣٠: ٤٨٨ (نسل).

(1) Cem Barlas Arslan, Birinci Dünya Savaşı ve Harp Vergisi, s. 74, 76.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (شأم).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي، ٣٣: ٣٩١ (لؤم).

وبُؤسَ الحاجة: هل رآها أحدٌ شـرّاً وسُوءاً؟ والسؤالُ للتعجُّب والتوبيخ، أي: على الرغم من ظهور النتائج وتجلّي الحقائق ما زال كثير من الناس يُحسِـنون الظَّـنَّ بأولئـك الساسـة ويرون ضرائبَهم خيـراً للبلاد! ولذا فـرَّع عليه وَصْفَهم بالعُمي المخاذيل.

وعلـى هـذا، فالضمير «هـم» في قولـه: «فهم عُمـيٌ مخاذيـل» راجعٌ إلى «قوم»، أي: فالقومُ عُميٌ مخاذيل، من الخِذلان، وهو تركُ مَنْ يُظَنُّ به أن يَنصُـر نُصرتَه[1]، أي: هم عُميٌ عن رؤية الشَّـرّ والسُّوء في ضرائب الساسـة، مع أنَّ هؤلاء الساسـةَ قـد تركوا نُصْـرَتَهم وإعانتَهم. وقد تقدَّم نحـوُ هذا المعنى في البيت التاسع حيث قال: «ونحن خُرسٌ فلا قالٌ ولا قيلُ».

واختـار فـي هاتَيْن اللفظتَيْن ـ وهما «عُميٌ مخاذيـلُ» ـ جمعَ الكثرة، لأنه يريدُ تعميمَ هذين الوصفين، ليقابلَ عمومَ «قوم» الوارد في سياق النفي المفيد للعمـوم، ولـم يَعتَـدَّ بقِلّةٍ من النـاس ممَّن كان مخالفـاً لهؤلاء الساسـة مُنكِراً عليهم.

ثم قال مبيِّناً عظيمَ شـرِّهم:

٥٣. قُلتُم: سيَخرُجُ دَجّالٌ، أقولُ: نعم هُـمُ دَجاجِلـةٌ، ذاكُم دُجَيْجيـلُ

والدَّجّـالُ: هو الكذّاب، مـن الدَّجَل وهو التمويهُ والتغطية، سُـمِّيَ دجّالاً لأنـه يُمـوِّه باطلَـه بما يُشـبِهُ الحقَّ ويُغطّيـه، وهو الدَّجّـالُ الأكبـر المذكور في الأحاديث، وهو رجلٌ يخرجُ في آخر الزمان يدَّعي الإيمانَ والصلاح ثم النُّبوّةَ

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب ص٢٣٠ (خذل).

البلـدان التـي يُسـقِطُها العدوُّ واحدةً إثرَ أخرى بالصُّوف الذي يَنسُـلُه شـخصٌ شيئاً بعد شيء.

ومـن تلـك البلاد المُشـار إليها في هذا البيت: دمشـق وبيروت وطرابلس الشام، فقد كان سقوطُ بيروت وطرابلس الشام في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٧م، وسقوطُ دمشق في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨م.

ثم قال متسائلاً متعجِّباً موبِّخاً:

٥٢. فيا تُـرى، هل رأى قَـومٌ ضَرائبَهُم شُؤماً ولُؤماً؟ فهُـم عُمْـيٌ مخـاذيلُ

الضرائـب: جمـعُ ضَريبة، وهي مـا تَفرِضُه الدولةُ من المـال على الناس، والظاهرُ أنه يشير إلى ما فرَضَه أولئك الساسةُ من ضريبة مُستَحدَثة على الناس باسـم «ضريبـة الحرب»، وقـد ابتُدِئَ تطبيقها في حرب البَلْقان سـنة ١٩١٢م، ثـم جرى تقنينُها قبل الحرب العالمية الأولى مباشـرةً وقبل إعلان النفير العام (سَفَرْبَرْلِك)، وتمَّ تطبيقها في ٩ من آب (أغسطس) ١٩١٤م بعد الإعلان عنه، مع مَنْح الإدارات التنفيذية صلاحيّاتٍ واسعةً في التطبيق[1]. والشُّؤم: ضدُّ اليُمن[2]، أي: الشَّرُّ أو توقُّعُه، واللُّؤم: وصفٌ مِن أذمِّ ما يُهجى به، وهو الشُّحُّ ومَهانةُ النفس ودناءةُ الأصل[3].

يتساءلُ عن هذه الضرائب التي أثقَلَت كواهلَ الناس وأذاقَتْهم مرارةَ الفَقْر

= للزبيدي ٣٠: ٤٨٨ (نسل).

(1) Cem Barlas Arslan, Birinci Dünya Savaşı ve Harp Vergisi, s. 74, 76.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (شأم).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي، ٣٣: ٣٩١ (لؤم).

CamScanner

وبُؤسَ الحاجة: هل رآها أحدٌ شـرّاً وسُوءاً؟ والسؤالُ للتعجُّب والتوبيخ، أي: على الرغم من ظهور النتائج وتجلّي الحقائق ما زال كثير من الناس يُحسِـنون الظَّـنَّ بأولئـك الساسـة ويرون ضرائبَهم خيـراً للبلاد! ولذا فـرَّع عليه وَصْفَهم بالعُمي المخاذيل.

وعلـى هـذا، فالضمير «هـم» في قولـه: «فهم عُمـيٌ مخاذيـل» راجعٌ إلى «قوم»، أي: فالقومُ عُميٌ مخاذيل، من الخِذلان، وهو تركُ مَنْ يُظَنُّ به أن يَنصُـر نُصرتَه[1]، أي: هم عُميٌ عن رؤية الشَّـرِّ والسُّـوء في ضرائب الساسـة، مع أنَّ هؤلاء الساسـةَ قـد تركوا نُصْـرَتَهم وإعانتَهم. وقد تقدَّم نحـوُ هذا المعنى في البيت التاسع حيث قال: «ونحن خُرسٌ فلا قالٌ ولا قيلُ».

واختـار فـي هاتَيْن اللفظتَيْن ـ وهما «عُميٌ مخاذيـلُ» ـ جمعَ الكثرة، لأنه يريدُ تعميمَ هذين الوصفين، ليقابلَ عمومَ «قوم» الوارد في سياق النفي المفيد للعمـوم، ولـم يَعتَـدَّ بقِلّةٍ من النـاس ممَّن كان مخالفـاً لهؤلاء الساسـة مُنكِراً عليهم.

ثم قال مبيِّناً عظيمَ شـرِّهم:

٥٣. قُلتُم: سيَخرُجُ دَجّالٌ، أقولُ: نعم هُـــمُ دَجاجِلـــةٌ، ذاكُم دُجَيْجيـــلُ

والدَّجّـالُ: هو الكذّاب، مـن الدَّجَل وهو التمويهُ والتغطية، سُـمِّيَ دجّالاً لأنـه يُمـوِّه باطلَـه بما يُشـبِهُ الحقَّ ويُغطّيـه، وهو الدَّجّـالُ الأكبـر المذكور في الأحاديث، وهو رجلٌ يخرجُ في آخر الزمان يدَّعي الإيمانَ والصلاح ثم النُّبوّةَ

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب ص٢٣٠ (خذل).

ثـم الألوهيـةَ، ويَفتَتِنُ به كثير من الناس[١]، وهو في نفس دَعْواه مُكذَّبٌ بظهور النقـص فيـه بالعَوَر، وعَجْزِه عن إزالته عن نفسـه، وعن إزالة ما كُتِبَ بين عينيه من كفره الشاهد بكذبه[٢].

أي: ذاكم الدَّجّالُ الموصوفُ في الأحاديث الصحيحة ـ على شديد شـرِّه وعظيم إفسـاده ـ يُستَصغَرُ خَطَرُه أمام خطر هؤلاء الدجاجلة، فإنه واحدٌ وهم كثيرون، وإنه ظاهرٌ وهم مُتستِّرون.

وعلى هذا، فلا تنافـيَ بين كون ذاكَ الدَّجّالِ هو الدَّجّالَ الأكبر ـ كما وقع فـي كثيـر من كلام أهل العلم ـ وبين تصغيره في قولِ الناظم: «ذاكم دُجَيجِيل» لاختـلاف الجهـة، فوصفُـه بالأكبـر بالنظر إلى دَعْـواه الألوهيـة دون غيره من الدجاجلة الذين يَدَّعون النُّبوّةَ أو الصلاحَ والإصلاح، أما تصغيرُه فلِمَا ذكرناه من أنه واحدٌ ظاهر، بخلاف غيره من الدجاجلة فإنهم كثيرون مُتستِّرون.

وقـد ورد فـي عدد من الأحاديث ذِكرُ كثـرةِ الدجاجلة في هذه الأمة، منها قولُـه صلّى الله عليه وسـلَّم: «يكونُ في آخر الزمـان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لـم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يُضِلُّونكم ولا يَفتِنُونكم»[٣]، وقولُه عليه السلام: «لا تقومُ الساعةُ حتى يُبعَثَ دجّالون كذّابون قريبٌ من ثلاثين، كلُّهم يَزعُمُ أنه رسول الله»[٤].

---

(١) انظر: «تحفة الأبرار» للبيضاوي ١: ١٣٠، و«فتح الباري» لابن حجر ١٣: ٩١.
(٢) انظر: «الكواكب الدراري» للكرماني ٢٤: ١٨٥.
(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (٧) من حديث أبي هريرة.
(٤) رواه البخاري (٣٦٠٩) و(٧١٢١)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة.

CamScanner

وبعدما عدَّد قبائحَ أفعالهم وما عمَّ من فسادهم وإفسادهم قال:

٥٤. عليهِمُ لَـعْـنـةٌ مِـن أُمَّـةٍ وُتِـرَتْ مَهْمـا تَنَاسَـلَ جيلٌ بعـدَهُ جيلُ

أي: عليهم لعنةٌ مستمرّةٌ ما دامت الأجيال، وقوله: «وُتِـرَت» إما بمعنى: نُقِصَت في حقوقها، يُقال: وتَـرَه مالَه وحقَّـه؛ إذا نقَصَـه إيـاه(١)، أو بمعنى: ظُلِمَت، يقال: وتَـرَه يَـتِـرُه وَتْراً؛ إذا ظلمتَه وأصبتَه بمكروه(٢). وعلى الوجهين فجملةُ «وُترت» صفةٌ لـ«أُمّة».

و«مَهْمـا» ظرفيـةٌ زمانيةٌ على قـول ابن مالك في تصحيح مجيئها بهذا المعنى، مُستَشـهِداً على ذلك بورودها كذلك في أشعار فُصَحاء العرب(٣)، خلافـاً لجمهـور النَّحْويِّيـن(٤)، فإنهم يُقـدِّرون موضعَها في تلك الشـواهد مصدراً، فقولُ الناظم: «عليهمُ لعنةٌ ... مهما تناسَلَ جيلٌ بعده جيلُ» تقديرُه على قول ابن مالك: عليهمُ لعنةٌ مدّةَ تَناسُـل الأجيال وتَعاقُبها، وعلى قول الجمهور: تناسُلاً كثيراً أم قليلاً تناسَلَ الأجيالُ فعليهمُ لعنةٌ.

---

(١) انظر: «تاج العروس» للزبيدي ١٤: ٣٣٧ (وتر).

(٢) انظـر: «لسـان العـرب» لابن منظـور ٥: ٢٧٤ (وتـر)، و«القاموس المحيـط» للفيروزآبادي (وتر).

(٣) انظـر: «تسـهيل الفوائـد وتكميـل المقاصـد» لابـن مالـك ص٢٣٦، و«شـرح الكافية» له ٣: ١٦٢٥، ووافقه ناظر الجيش في «تمهيد القواعد بشـرح تسـهيل الفوائد» ٩: ٤٣٣٦-٤٣٣٧.

(٤) انظـر: «الـدُّرّ المصـون» للسـمين الحلبي ٥: ٤٢٩-٤٣٠، و«شـرح التسـهيل» لبـدر الدين ابـن مالـك المعروف بابـن الناظـم ٤: ٦٩، و«مغني اللبيب» لابن هشـام ص٤١٤، و«همع الهوامع» للسيوطي ٢: ٥٤٧.

واللَّعْنة: اسمٌ من اللَّعْن، وهو الطَّرْدُ والإبعادُ على سبيل السَّخَط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاءٌ على غيره[1]. والذي يتلخَّصُ من كلام أهل العلم في حكم اللَّعْن: تحريمُه لمُعيَّن لم يُعلَم موتُه على الكفر بدليل، فلا يجوز لَعْنُ أحدٍ بعَيْنِه ـ مسلماً أو كافراً ـ إلا مَنْ عَلِمْنا بنَصٍّ شرعيٍّ أنه ماتَ على الكفر أو يموتُ عليه كأبي جَهْل وإبليس، زاد بعضُهم: أو كان ظاهرُ حاله أنه مات على الكفر، وجوازُه لغير مُعيَّن كالظالمين والفاسقين والكاذبين، لأن المراد حينئذ جنسُ الظالمين، وفيهم مَنْ يموتُ كافراً، فيكونُ اللَّعْنُ لبيان أنَّ هذا الوصف وَصْفُ الكافرين للتنفير عنه والتحذير منه، لا لقصد اللَّعْنِ على كلِّ فَرْدٍ من هذا الجنس، ومن هذا الباب اللَّعْنُ بالوَصْفِ، كلَعْنِ الواشِمةِ والمُستَوشِمة وآكِلِ الرِّبا ومُوكِله وغير ذلك مما جاءت النصوصُ الشرعية بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان، فإنه ليس بحرام. ووجهُ الفَرْق: أن اللَّعْنَ في حقِّ المُعيَّن أذى وسَبٌّ، وفي حقِّ غير المُعيَّن زَجْرٌ وتنفيرٌ عن تعاطي فِعلِه[2]. ومن الظاهر أن المذكور في النَّظْم هنا إنما هو من لَعْن غير المُعيَّن.

ثم ختَمَ هذه القصيدة بما يَربِطُها بمَطلَعِها، فقال:

---

(١) انظر: «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب ص٥٨٧ (لعن).

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي ٢: ٦٧، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ٢: ١٨٨ – ١٩٠، و«عمدة القاري» للعيني ٢٣: ٢٧٠، و«فتح الباري» لابن حجر ١٢: ٦٧.

٥٥. فما اعتَدى زاهِدٌ في القَولِ يُنشِدُهُم ضاعَـــتْ بلادٌ لنا والجيـــشُ مَفلُولُ

أقـام الناظمُ اسـمَه الظاهـرَ موقع ضميـر المتكلِّم، وجملةُ «يُنشِـدُهم» في محلِّ نَصْب حال، أي: ما اعتَدَيتُ وما تجاوزتُ الحقيقةَ في قولي مُنشِداً هذه القصيـدةَ المُفتَتَحـةَ بعبارة «ضاعت بلادٌ لنا والجيشُ مَفْلولُ»، وهو من حُسـن الخاتمة، حيث أعاد في الشطر الأخير مطلعَ القصيدة، إيذاناً منه بانتهائها.

CamScanner

المصادر والمراجع

- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- إرغام المَريد في شرح النظم العتيد لتوسل المُريد، محمد زاهد الكوثري، إسطنبول، ١٣٢٨هـ.
- أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الاستذكار، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، تحقيق سالم محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الإشفاق على أحكام الطلاق، محمد زاهد الكوثري، تحقيق حمزة البكري، دار الفتح، عمّان، ٢٠٢٢م.
- الإفصاح، محمد زاهد الكوثري، تحقيق حمزة البكري، دار الفتح، عمّان، ٢٠٢٢م.
- الإمام الكوثري، أحمد خيري، ملحق بمقالات الكوثري.
- الإنصاف، علي بن سليمان المرداوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام جمال الدين عبد الله بن يوسف، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- الإيضاح لتلخيص المفتاح، الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن، تحقيق ضياء الدين القالش، دار اللباب، إسطنبول، ٢٠٢٣م.
- البحر الزخار أو مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٩٨٨م-٢٠٠٩م.
- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- بدائع الصنائع، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنكة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٦م.
- تاج العروس، محمّد بن محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، انكه لهارد، نقله إلى العثمانية: علي رشاد، ترجمه إلى العربية: محمود علي عامر، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، ٢٠١٧م.
- التحرير الوجيز، محمد زاهد الكوثري، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٣م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تحفة الأبرار، ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، أشرف على تحقيقه: نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ٢٠١٢م.
- تحفة المحتاج، أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٨٣م.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم بدمشق ودار كنوز إشبيليا بالرياض، ١٩٩٧م-٢٠٢٤م.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله ابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- تعليق الكوثري على «ذيول تذكرة الحفاظ»، ينظر: ذيول تذكرة الحفاظ.
- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠هـ.
- تفسير الطبري أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله تركي، دار هجر، القاهرة، ١٤٢٢هـ.
- تفسير القرطبي أو الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

CamScanner

- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش محمد بن يوسف، تحقيق علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ.
- التمهيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م.
- جامع الدروس العربية، مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٣م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.
- حاشية الصَّبّان على شرح الألفية للأشموني، أبو العرفان محمد بن علي الصبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- دار الخلافة العلية مدرسه سي: نظامنامه، درس جدولي، صورت تدريس وكتابلر، تعليماتنامه، مطبعة أحمد كامل، إسطنبول، ١٣٣٠-١٣٣٣هـ.
- دار الخلافة العلية مدرسه سي، مدرسة القضاة نظامنامه سي: درس بروغراملريله قادروسي ومدارس قانوني ونظامنامه سي، إسطنبول، أوقاف إسلامية مطبعة سي، ١٣٣٨-١٣٤٠هـ.
- الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مجموعة من المؤلفين، إشراف أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، إسطنبول، ١٩٩٩م.
- الدولة العثمانية من الإصلاح إلى الحداثة، ماجدة مخلوف، دار البشير للثقافة والعلوم، الشارقة، ٢٠٢١م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- ذيول تذكرة الحفاظ، لأبي المحاسن الحسيني وابن فهد المكي وجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مكتبة القدسي، دمشق، ١٣٤٧هـ.

- رسالة في بيان عدم نسبة الشر إلى الله تعالى، ابن كمال باشا، ضمن «مجموع رسائل العلامة ابن كمال باشا»، دار اللباب، إسطنبول، ٢٠١٨م.
- روضة الطالبين وعمدة المفتين، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
- زواج المحارم في الديانة المجوسية من خلال الآفستا والروايات التاريخية: دراسة تحليلية نقدية، فَرْسَت مرعي، المنشور في مجلة كُرْديات (Kurdiyat)، العدد ٦، سنة ٢٠٢٢م.
- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٥م.
- شرح الأُشمُوني لألفية ابن مالك مع حاشية الصَّبّان، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الأشموني، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٧م.
- شرح التسهيل أو شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، بدر الدين محمد ابن مالك المعروف بابن الناظم، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- شرح العقائد النسفية، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق أنس الشرفاوي، دار التقوى، دمشق، ٢٠٢٠م.
- شرح ألفية ابن مالك، عبد الله بن عبد الرحمن ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث بالقاهرة، ١٩٨٠م.
- شرح الكافية الشافية، جمال الدين محمد بن عبد الله ابن مالك، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٢م.
- الشرح الكبير على مختصر خليل مع حاشية الدسوقي، أبو البركات أحمد بن محمد الدردير، دار الفكر.
- شرح تسهيل الفوائد أو شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن عبد الله ابن مالك، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.

CamScanner

- شرح صحيح مسلم أو المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.
- شرح منتهى الإرادات أو دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، منصور بن يونس البهوتى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.
- الشريعة والتحديث، محمد وفيق زين العابدين، مركز أركان للدراسات والنشر، ٢٠٢١م.
- الشريعة، وائل حلاق، ترجمة كيان أحمد حازم يحيى، المدار الإسلامي، ٢٠١٨م.
- الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.
- صحيح البخاري أو الجامع المسند الصحيح، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية)، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم أو المسند الصحيح المختصر، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صفحات من صبر العلماء، عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- صفعات البرهان على صفحات العدوان، محمد زاهد الكوثري، دار الإمام النووي، عمّان، ٢٠٠٧م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الغريبَيْن في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ١٩٩٩م.
- الفائق في غريب الحديث، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فتح القدير، ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد، دار الفكر، بيروت.
- الفقه والدولة والسلطان، سامي أيوب، مركز نهوض، الكويت، ٢٠٢٣م.
- في صحبة الشيخين: شهادات على عصر التغريب، من مذكرات علي عُلوي قُوروجو، ترجمة وتعليق: إياد أسامة عمار، دار الفتح، عمّان، ٢٠٢٥م.

CamScanner

- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، أشرف على تحقيقه: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- قانون العائلة العثماني، انظر: Osmanlı Hukuk-ı Aile Kararnâmesi
- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، القاضي أبو بكر ابن العربي المعافري، تحقيق محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.
- الكافية في عِلمَي العروض والقافية، محمد زاهد الكوثري، إسطنبول، در سعادت، ١٣٣٠هـ.
- الكشاف، الزمخشري، تحقيق ماهر أديب حبوش، دار اللباب، مكتبة الإرشاد، إسطنبول، ٢٠٢١م.
- الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.
- المبسوط، شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٣م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد أبو القاسم إسماعيل الطالقاني، تحقيق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٤م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل أو تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، ١٩٩٨م.
- المسلمون والحداثة الأوروبية، خالد زيادة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ٢٠١٧م.
- مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد الفيُّومي، المكتبة العلمية، بيروت.

- مصطفى صبري: المفكر الإسلامي والعالم العالمي، مُفرّح بن سليمان القوسي، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٦م.
- المطوّل، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق ضياء الدين القالش، دار اللباب، إسطنبول، ٢٠٢٢م.
- معالم السُّنن شرح سنن أبي داودر أبو سليمان حمد بن محمد الخَطّابي، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٣٢م.
- معاني الأبنية في العربية، فاضل بن صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٧م.
- معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٠م.
- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني، تحقيق أبي معاذ طارق بن عوض الله وأبي الفضل عبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة، ١٩٩٥م.
- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي وآخرين، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ودار الصميعي بالرياض، ١٩٩٤م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري، تحقيق فخر الدين قباوة، دار اللباب، إسطنبول، ٢٠١٨م.
- المغني، موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي، تحقيق طه الزيني وآخرين، مكتبة القاهرة، ١٩٦٨-١٩٦٩م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، وزارة الأوقاف، قطر، ٢٠١٧م.
- مقالات الكوثري، محمد زاهد الكوثري، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨م.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- مقدمات الإمام الكوثري، محمد زاهد الكوثري، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٧م.
- من «مكتب» إلى «أوكول»: التعليم والسلطة وجذور العلمانية في تركيا الحديثة، خالد أبو هريرة، مركز نهوض، ٢٠٢٢م.
- من عبر التاريخ، محمد زاهد الكوثري، تحقيق إياد الغوج، دار الفتح، عمّان، ٢٠٠٠م.

CamScanner

- المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣٢هـ.
- الموطأ، مالك بن أنس، المجلس العلمي الأعلى، المغرب، ٢٠١٣م.
- نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة، محمد زاهد الكوثري، القاهرة، ١٩٨٧م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، مصطفى صبري، دراسة مصطفى حلمي باسم «الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية»، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.
- النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٥م.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي الأندلسي، أشرف على تحقيقه: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، جامعة الشارقة، ٢٠٠٨م.
- الهداية، المرغيناني، مع شرحه «فتح القدير» لابن الهمام.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.
- يوميات عالم: يوميات العلامة أحمد شاكر، أحمد شاكر، تحقيق أشرف عبد المقصود، مركز الوراق للتراث، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠١٩م.

- Aslan, Taner. Osmanlı Aydınlarının Gözüyle Batılılaşma. Erdem, sayı 55, 2009.
- Belli, Burcu. II. Abdülhamid ve İttihat ve Terakki Cemiyeti Yıllarında Osmanlı'da Yoksul Kadınlar ve Fuhuş Düzenlemeleri (1876–1918). Vakanüvis – Uluslararası Tarih Araştırmaları Dergisi, cilt 7, Özel Sayı: Dr. Mahmut Kırkpınar'a Armağan.
- Barlas Arslan, Cem. Birinci Dünya Savaşı ve Harp Vergisi. Akademik Bakış Dergisi, sayı 57, 2016.

CamScanner

- Acar, Kezban. Osmanlı Devleti'nin Son Yüzyılında Fuhşu Önleme Çabalarına Dair Bazı Tespitler (1810'lar–1910'lar). History Studies – International Journal of History 10, sayı 9, 2018.
- Kiel, Machiel. Selânik. TDV İslâm Ansiklopedisi, cilt 36, s. 352–357.
- Ayışığı, Metin. II. Meşrutiyet Döneminde İstanbul'da Fuhuş ve Zührevi Hastalıklarla Mücadele. Uluslararası XVIII. Türk Tarih Kongresi, Ankara, Türkiye, 1–5 Ekim 2018.
- Öğün, Tuncay. Sarıkamış Harekâti. TDV İslâm Ansiklopedisi, ek cilt 2, s. 470–473.
- Yavuz, Yusuf Şevki. Zâhid Kevserî. TDV İslâm Ansiklopedisi, cilt 44, s. 80–81.
- Öge, Ali (Editör), Osmanlı Hukuk-ı Aile Kararnâmesi. Konya: Mehir Vakfı Yayınları, 2017.

CamScanner

CamScanner

فهرس الموضوعات التفصيلي

الموضوع الصفحة

مقدِّمة ٥

دراسة علمية لقصيدة «حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع» ٩

الكوثريُّ وشِعرُه ١١

تعريف مُوجَز بالكوثري ١٣

شِعر الكوثريّ ١٧

أولاً: النظم العتيد لتوسُّل المريد ٢٠

ثانياً: أرجوزةٌ ختَمَ بها كتابه «إرغام المَريد» ٢٢

ثالثاً: بيتان أثبتهما على غلاف كتابه «إرغام المَريد» ٢٣

رابعاً: قصيدتُه «حنين المتفجِّع وأنين المتفجِّع» ٢٣

خامساً: ثلاثة أبيات من البحر الكامل ٢٣

سادساً: ثلاثة أبيات من البحر البسيط ٢٤

سابعاً (على سبيل الاحتمال): ثمانية أبيات من البحر الخفيف وُجِدَت بخطِّه ... ٢٤

قصيدة «حنين المتفجِّع»: دراسة تاريخية ٢٧

تمهيد ٢٩

تاريخ نَظْم هذه القصيدة ٢٩

دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ٢٩

احتلال إسطنبول سنة ١٩١٨م ٣١

الموضوع	الصفحة

سؤال التحديث (التغيير) في الدولة العثمانية ٣٢
إرهاصات التحديث في القرن السابع عشر ٣٣
البدايات الأولى للتحديث في القرن الثامن عشر ٣٣
الإصلاح في عهد السلطان سليم الثالث سنة ١٧٩١م ٣٤
الصراع بين الاتجاه المُحافِظ واتجاه التحديث ٣٤
إلغاء الإنكشارية في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦م ٣٥
توسُّع مفهوم التحديث ٣٦
تحديث الأوقاف وإنشاء نظارة الأوقاف السُّلطانية ٣٧
فرمان كُلْخانة (التنظيمات) في عهد السلطان عبد المجيد الأول سنة ١٨٣٩م ... ٣٨
فرمان الإصلاحات في عهد السلطان عبد المجيد الأول سنة ١٨٥٦م ٣٩
التغريب باسم التحديث والإصلاح ٤٠
المدارس الحديثة العَلْمانية والمحاكم النِّظامية ٤١
تقنين أحكام الشريعة الإسلامية، مجلة الأحكام العَدْلية (١٨٦٨-١٨٧٦م) ٤٣
حركة الشباب العثمانيين أو العثمانيين الجدد ٤٤
صراع التحديث في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ٤٥
حركة تركيا الفتاة ٤٦
عَزْل السلطان عبد الحميد الثاني (الانقلاب الدستوري) ٤٩
جمعية الاتحاد والترقي ٤٩
موقع قصيدة «حنين المتفجّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية ٥١
موقف الكوثري من الاتحاديين في هذه القصيدة ٥١
مواقف أخرى من الخصومة والصِّدام بين الكوثري والاتحاديِّين ٥٢
انتقال الكوثري إلى قسطموني نتيجة هذا الصِّدام ٥٣
أبرز مواقف الصِّدام بينه وبين الاتحاديين بعد نَظْم هذه القصيدة ٥٥
الصفحة الأخيرة من الصِّدام: هجرة الكوثري من إسطنبول إلى القاهرة ٥٧

الموضوع الصفحة

قصيدة «حنين المتفجّع»: قراءة تحليلية ٥٩
السبب في عدم افتتاح القصيدة بالبسملة والحمدلة ٦١
المِحوَر الرئيس للقصيدة هو معارضة الاتحاديِّين ٦١
دراسة القصيدة من جهة نَحْوية وصَرْفية.............................. ٦٢
دراسة القصيدة من جهة بلاغية ٦٣
إضاءة على شخصية الكوثريّ الفكرية وحضورها في قضايا الأمة الإسلامية......... ٦٧
موقفه من الخلافة الإسلامية ٧٠
موقفه من العَلْمانية ٧٢
التفريق بين الفقه والشريعة.. ٧٤
تحكيم العُرف والمصلحة في الأحكام الشرعية............................ ٧٤
مَنْحُ الإمام (رئيس الدولة) حقَّ نَسْخ الأحكام الشرعية ٧٦
ضرورة ملاحظة هذا الموقف في مطالعة كلام الكوثريّ في كثير من أبحاثه العلمية ٧٨
الأُخوّة الإيمانية في فِكر الكوثري: تألُّمُه لآلام المسلمين واستبشارُه باستقلال بلدانهم . ٧٩
تألُّمُه لآلام المسلمين ومصائبهم.. ٨٠
رفضُه للدعوات القومية والتعصُّبات العِرقية ٨٢
موقفه من القضية الفلسطينية... ٨٤
موقفه من تأسيس جامعة الدول العربية..................................... ٨٥
موقفه من التغريب في الحياة الاجتماعية، والتجديد في الحالة العلمية ٨٨
علاقة التغريب الاجتماعي بالعَلْمانية التشريعية ٨٩
التعجُّب من حال المُستَغربين في ترك متابعة الغرب في التقدُّم الصناعي
والاكتشافات الكونية ٩٠
الفرق بين التجديد في الأمور الدنيوية والأمور الدينيّة ٩١
نظرته إلى واجب العلماء ووظيفتهم ٩٢
كلمة أخيرة... ٩٦
نصُّ قصيدة «حنين المتفجّع وأنين المتوجّع» ٩٧

الموضوع | الصفحة

صورة القصيدة في الأصل المنشورة عنه ١٠٣
شرح حنين المتفجّع وأنين المتوجّع ١٠٩
مقدمة الشرح ١١١
التحسُّر على البلاد الواسعة التي سقطت من الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ١١١
الحث على التمسُّك بأخوّة الإيمان والإنكار على الثورات الانفصالية ١١٥
أصناف الخارجين عن طاعة الإمام ١١٧
علاقة البلاء بالقَدَر، والفرق بين فعل الله ومفعوله في هذا السّياق ١١٨
عَوْدٌ على التحسُّر على البلاد الواسعة التي سقطت من حكم الدولة العثمانية... ١٢١
الفرق بين حال الدولة العثمانية قبل حكم الاتحاديِّين وأيام حكمهم ١٢٣
ذمُّ حكومة الاتحاد والترقي بضعف العقل وقلّة الحكمة والتدبير............ ١٢٦
ذمُّ الحكومة المذكورة بما أحدثوه من ضرر في الدِّين والعِرْض والوطن ١٢٧
عَوْدٌ مرّةً أخرى إلى ذمِّهم بضعف العقل وقلّة الحكمة والتدبير............ ١٢٩
بيانُ شدّة اضطهاد أولئك الساسة لمخالفيهم، ولا سيّما العلماء منهم ١٣١
النكير على كثرة متابعة الضلالات وقلّة مناصرة الحق........................ ١٣٤
ذمُّهم بما فعلوه من إزاحة الإسلام من أروقة الحكم، وإبعاد العلماء عن وظائف الدولة .. ١٣٥
ذمُّهم في عَلْمنة القضاء، ومحاولة إحلال القوانين الوضعية محلَّ الأحكام الشرعية ... ١٣٧
الإنكار عليهم في معاندة الشرع والنزوع إلى الشهوات والأباطيل............ ١٤٠
التحذير مما تحتويه تشريعات الاتحاديِّين من مفاسد شنيعة ١٤٢
ذمُّهم بما أفسدوه في باب الأحوال الشخصية والعلاقات الأُسَرية............ ١٤٤
ذمُّهم بما تلاعبوا به من أحكام الطلاق........................ ١٤٧
متابعة الاتحاديِّين الغربَ في هذه التشريعات ١٥٠
انصرافهم عن التراث الإسلامي عموماً، وعن السُّنة والفقه خصوصاً........... ١٥١
ذمُّهم بكثرة استحداث البدع وإبطال السُّنَن ١٥٢
عَوْدٌ مرّةً ثالثةً إلى ذمِّهم بضعف العقل وقلّة الحكمة والتدبير............ ١٥٣

CamScanner

الموضوع **الصفحة**

تحالفُهم المشؤوم مع الألمان ١٥٥
شدّةُ انسياقهم وراء الألمان وانقيادُهم لهم ١٥٩
تسبُّبُ الاتحاديِّين بالخسارة المريرة في معركة صاري قاميش........ ١٦١
تسبُّبهم في خَرْقِ الحُرُمات وهَتْكِ الأعراض........................ ١٦٥
الإنكار عليهم في فتح بيوت الدَّعارة في أنحاء البلاد.............. ١٦٨
اضطهادهم السياسي لمن خالفهم بالسَّجْن أو النفي أو القتل........... ١٧٢
استباحتهم أموال الناس بغير حق ١٧٣
تعدِّيهم على دماء الناس وجرأتهم على قَتْل الأبرياء..................... ١٧٣
ذمُّهم بوصول شرِّهم إلى جوامع المسلمين ودور العبادة عند أهل الذِّمّة ١٧٤
ذمُّهم بإيذائهم العلماء والصُّلحاء بالحبس وغيره من أصناف العقوبات ١٧٥
دعاء الناظم للسلطان وحيد الدين بالتأييد.............................. ١٧٦
الكلام عن حادثة ٣١ مارس ١٧٧
هَتْكُهم حرمة الجوامع واعتداؤهم على أهل الدِّين........................ ١٨٠
التحسُّر على تغيير مظاهر الحياة وتبديل ملامح المجتمع ١٨١
التحسُّر على تغيير أحوال المدارس الدينية............................... ١٨٢
التنبيه على أن الفِسقَ والفساد سبب في هزيمة الدولة وخسارة البلاد........ ١٨٤
التحسُّر على سقوط مدينة القدس الشريف بيد الإنجليز...................... ١٨٦
التحسُّر على سقوط العراق والحجاز وكثير من البلاد الإسلامية ١٨٨
ذمُّهم باستحداث ضريبة الحرب للتَّسلُّط على أموال الناس ١٩٠
وَصْفُهم لشدّة خطرهم وعظيم شرِّهم بالدجاجلة ١٩١
لَعْنُ الناظم إياهم لإفسادهم وإضرارهم من غير تعيين شخص منهم ١٩٣
ختام القصيدة.. ١٩٥
المصادر والمراجع ١٩٧

CamScanner

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

مقدمة ٥
دراسة علمية لقصيدة ٩
«حنين المتفجِّع وأنين المتوجِّع».. ٩
١. الكوثري وشعره.. ١١
١. ١. تعريف مُوجَز بالكوثري ١٣
١. ٢. شِعر الكوثريّ.. ١٧
٢. قصيدة «حنين المتفجع» : دراسة تاريخية.. ٢٧
٢. ١. تمهيد ٢٩
٢. ٢. سؤال التحديث (التغيير) في الدولة العثمانية ٣٢
٢. ٣. موقع قصيدة «حنين المتفجِّع» من صراع التحديث في الدولة العثمانية.... ٥١
٣. قصيدة «حنين المتفجع» : قراءة تحليلية.. ٥٩
٤. إضاءة على شخصية الكوثري الفكرية وحضورها في قضايا الأمة الإسلامية ٦٧
٤. ١. موقفه من الخلافة الإسلامية ٧٠
٤. ٢. موقفه من العَلْمانية.. ٧٢
٤. ٣. الأُخوّة الإيمانية في فِكر الكوثري: تألُّمُه لآلام المسلمين واستبشارُه باستقلال بلدانهم ٧٩
٤. ٤. موقفه من القضية الفلسطينية ٨٤
٤. ٥. موقفه من تأسيس جامعة الدول العربية.. ٨٥

CamScanner

الموضوع | الصفحة

٤. ٦. موقفه من التغريب في الحياة الاجتماعية، والتجديد في الحالة العلمية ٨٨
٤. ٧. نظرته إلى واجب العلماء ووظيفتهم ٩٢
٤. ٨. كلمة أخيرة ٩٦
قصيدة «حنين المتفجّع وأنين المتوجّع» ٩٧
صورة القصيدة في الأصل المنشورة عنه ١٠٣
شرح حنين المتفجّع وأنين المتوجّع ١٠٩
المصادر والمراجع ١٩٧
فهرس الموضوعات التفصيلي... ٢٠٧
فهرس الموضوعات ٢١٣

صدر للمؤلف

الدكتور حمزة البكري

عن دار الفتح للدراسات والنشر

المؤلفات :

١ـ شرح القصيدة القشيرية، مع تحقيقه نصَّ القصيدة المذكورة.

٢ـ تعدد الحادثة في روايات الحديث النبوي.

٣ـ ماهية علوم الحديث والاتجاهات النقدية المعاصرة.

٤ـ الإتمام لكتاب التجرُّد والاهتمام (وهو مستدرك على فتاوى البلقيني)، جمعه ورتّبه بالاشتراك مع الدكتور أمجد رشيد، طُبع مُلحَقاً بـ«التجرُّد والاهتمام».

التحقيقات :

١ـ النكت الطريفة في التحدُّث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة، للإمام الكوثري.

٢ـ حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي، للإمام الكوثري.

٣ـ بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني، للإمام الكوثري.

CamScanner

٤ـ لمحات النظر في سيرة الإمام زفر، للإمام الكوثري.

٥ـ الإمتاع بسيرة الإمامين الحسن بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع، للإمام الكوثري.

٦ـ الحاوي في سيرة الإمام أبي جعفر الطحاوي، للإمام الكوثري.

٧ـ الإشفاق على أحكام الطلاق، للإمام الكوثري.

٨ـ الإفصاح عن حكم الإكراه في النكاح والطلاق، للإمام الكوثري.

٩ـ شرح وصية الإمام أبي حنيفة، للإمام البابرتي، (بالاشتراك).

١٠ـ الأنوار الواضحة في تفسير الفاتحة، للإمام أبي محمد عبد العزيز الديريني.

١١ـ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، للإمام شرف الدين الطيبي، (المجلد ٧، ٨، ١٤).

١٢ـ التجرُّد والاهتمام بجمع فتاوى شيخ الإسلام (سراج الدين البلقيني)، للإمام عَلَم الدين البلقيني، (بالاشتراك).